المختصر المفيد

في شرح

جوهرة التوحيد

تأليف

الشيخ نوح علي سلمان القضاة
قاضي القضاة ومفتي القوات المسلحة الأردنية/سابقًا
دكتوراه في الشريعة

دار الرازي
عمان - الأردن

المختصر المفيد

في شرح

جوهرة التوحيد

تأليف

الشيخ نوح علي سلمان القضاة

قاضي القضاة ومفتي القوات المسلحة الأردنية/سابقاً

دكتوراه في الشريعة

دار الرازي

عمان - الأردن

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية:
(١٥٤٦/ ٩/ ١٩٩٩).
رقم التصنيف: (٢٤٢).
المؤلف ومن هو في حكمه: نوح علي سليمان القضاة.
عنوان الكتاب: المختصر المفيد: شرح جوهرة التوحيد.
الموضوع الرئيسي: ١ - الديانات.
٢ - العقيدة الإسلامية - التوحيد.
عدد الصفحات: (٢٣٤ص).
قياس القطع: ١٧ × ٢٤ سم.
عدد النسخ: (٢٠٠٠ نسخة).

تُطلب جميع منشوراتنا على العنوان التالي:
دار الرازي للنشر
ص.ب ١٨٣٤٧٩ عمّان ١١١١٨ الأردن

دار الرازي
للطباعة والنشر والتوزيع
عمان - الأردن

الطبعة الأولى
1420هـ© 1999م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمدٍ وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فقد قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلامُ عقيدةٌ وشريعة، أما العقيدة فهيَ ما يجزمُ به القلب، وأما الشريعةُ فما يجبُ أن يراعيه الإنسانُ في سلوكه، وقد بيّن الله لنا العقيدةَ والشريعةَ في كتابه المجيدِ وسنة نبيه المطهَرة.

واهتم علماءُ المسلمين بالأمرين، فنشأ علمُ العقيدة وأُلّفت فيه الكتب، وسمّي «علمَ التوحيد»، لأن توحيدَ الله تعالىٰ أهم مواضيعه وبحوثه.

ونشأ علمُ الشريعة الذي يحكم في سلوك الإنسان الظاهر، وسمّيَ «علمَ الفقه»، والمؤلفاتُ فيه كثيرةٌ.

أما ما خفيَ من سلوكِ الإنسان ونوازعه النفسيةِ فقد عالجته كتبُ السلوك، ونشأ لبيانه «علمُ التصوف».

والعلوم الثلاثة مستمدةٌ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، عَلِمَ هذا من علمه وجهله من جهله.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلمٌ عن الخليفة الراشد عمرَ ابن الخطاب رضيَ الله عنه أن جبريلَ عليه السّلام جاء إلىٰ النبي ﷺ علىٰ هيئة رجلٍ غريبٍ فسأله علىٰ مسمعِ الصحابة عن الإسلام، فقال رسولُ الله ﷺ: «الإسلام أن تشهدَ أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلًا»، وهذه كلُّها من أعمال الإنسان الظاهرة، ثم سأله عن الإيمان فقال ﷺ: «أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمنَ بالقدر خيره وشره»، وهذه أمورٌ تتعلق بالقلب لا يطَّلع عليها إلا الله تعالىٰ، ثم سأله عن الإحسان فقال ﷺ: «أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذا مزجٌ بين الإسلام والإيمان، ومراعاةٌ لمقتضىٰ الإيمان في الأعمال الظاهرة، وهو غاية ما يريده الراسخون من أهل التصوّف.

ومن المؤلفات المشهورة في علم التوحيد مَتْنُ «جوهرة التوحيد» للشيخ إبراهيمَ اللقّانِيِّ المالكيِّ رحمه الله، وهي منظومةٌ عددُ أبياتها أربعةٌ وأربعون ومئةٌ (١٤٤)، جمعت أهمَّ مسائل العقيدة الإسلامية لِيسهُلَ حفظُها، علىٰ أُسلوب أَصحاب المتون جزاهم الله خيراً، الذين يلخِّصون قواعدَ كلِّ علم نظماً أو نثراً لتبقىٰ حاضرةً في الذهن عند البحث والتوسع. ثم جاء ولدُه الشيخُ عبدُ السّلام فشَرَحَها شرحاً مختصراً مراعاةً لخُطَّةِ والده في ضرورة الاختصار في هذا العلم، وفرغ من شرحها سنةَ سَبْعٍ وأربعين بعدَ الألف من الهجرة ١٠٤٧هـ، وكانت هذه المنظومة مع شرحها يدرَّسان في المعاهد

الشرعية في مصرَ والشامِ وغيرهما من البلدان الإسلامية، لأنهما يناسبان طلابَ العلم في ابتداءِ دراستهم الشرعية، وللمنظومة شروحٌ أخرىٰ.

وقد دَرَستُها علىٰ مشايخي في دمشق، ثم درَّستها لبعض طلاب العلم في الأردن، منها مرة لطلاب العلم الماليزيين في جامعة اليرموك بناءً علىٰ رغبتهم لأنها ما زالت تدرس في بلدهم، وكنت أُراعي في التدريس أمرين:

الأول: التعبيرُ نثراً عما أَرادَهُ المؤلِّفُ نظماً بكل بيتٍ من أبيات الجوهرة.

الثاني: شَرْحُ المعنىٰ المقصودِ من كلِّ بيت، أو أبيات، أو جُزْءٍ من بيت.

وأسلوبُ السلف في مؤلفاتِهم أصبح اليومَ غيرَ مألوفٍ لَدَىٰ طلاب العلوم الشرعية وغيرها، فقد أَلِفُوا أسلوبَ الكتبِ المعاصرةِ التي تُبَسِّطُ العبارةَ وتُسَهِّلُها، وتأتي بالمعنىٰ الواحدِ في عباراتٍ مختلفةٍ من أَجْلِ التوضيح ولا تأبىٰ الإطالة، بل بعضُهم يَقْصِدُها، بينما كان السَّلَفُ وخاصَّةً أصحابَ المتون يُرَكِّزون العبارةَ باعتبارِها قواعدَ في الموضوع المؤلَّفة فيه.

ولا بدَّ من مؤلفاتٍ تَنْقُلُ معلوماتِ كتبِ السَّلف إلىٰ طلاب العلم في كلِّ عصر بما يناسِبُهم لتكونَ تَوْطِئَةً إلىٰ دراسةِ المراجعِ الأصليةِ وبعدَ ذلك تكون صلتُهم بالمراجع مباشرة، وليس هذا في موضوعِ العقيدة فَحَسْب، بَلْ في كلِّ العلوم كالفقهِ والأُصولِ واللُّغةِ وغيرِها.

وقد عَزَمْتُ واللهُ الموفقُ علىٰ بيان المسائل العَقَدِيّة التي جاءت في جوهرةِ التوحيدِ وشرحِها بأسلوبٍ سَهْلٍ مُيَسَّر، مع ذكر أبيات الجوهرة كاملةً، لكن أضعُ لكلِّ بيتٍ أو أبياتٍ مترابطةٍ عنواناً يُبَيِّنُ المقصود، ثم أشرحُ المعنىٰ المرادَ بما يوضِّحُهُ حَسَبَ ٱسْتِطاعتي، وأَسْتَشْهِد له بالآيات الكريمة

والأحاديث الشريفة الواردة في الموضوع والتي استدل بها أهلُ السنة علىٰ عقيدتهم، فإنَّ أَهْلَ السنة من الأشاعرة والماتريدية اعتمدوا في عقيدَتِهم علىٰ الكتاب والسنة وفهموا ما فيهما بما تقتضيه قواعدُ العقل السليم وقالوا: الشريعة كالشمس والعقل كالعين ولا يتمُّ الإبصارُ إلاّ بهما فكما لا تغني الشمسُ عن العين ولا العين عن الشمس، كذلك لا يُعْرَفُ الحقُّ بالعقل دون الشرع ولا بنصوص الشرع دون العقل، فإنَّ الله تعالىٰ خاطبَ بكتابه العقلاء، وقد أَوضَحَ منهجَهم واشتهر بالدفاع عن وجهة نظرهم أبو الحسن الأشعريُّ (٢٦٠-٣٢٠هـ) وأبو المنصور الماتريديُّ المتوفىٰ سنةَ ٣٣٣هـ، فقد اعتمدا نصوصَ الكتاب والسنة وفَهْمَ السلف لهما ثم دافعا عن ذلك بحججٍ عقليةٍ ورفضا كلَّ ما يخالف الكتابَ والسنة. ثم جاء بعدَهما علماءٌ كبارٌ في التفسير والحديث والفقه والمنطق فساروا علىٰ منهجهما وردوا بقوة ووضوح علىٰ تلاميذ الفلسفة اليونانية.

وبعض المسلمين اعتمدوا في أمر العقيدة علىٰ القواعد العقلية التي وضعها البشر من يونانيين وغيرهم، وأوَّلوا النصوصَ الشرعيةَ إذا لم توافق تلك القواعد، وظنُّوا أنهم بذلك يخدمون الإسلام ليقال إنه موافقٌ للعقول السليمة مع أَنَّ الشرعَ معصومٌ والعقل غيرُ معصوم.

وبعض المسلمين اكتفَوا بظاهر النصوص الشرعية، ولم يلتفتوا إلىٰ القواعد العقلية، وتغاضوا عن صحة بعض الأحاديث التي تؤيد مذهبَهم، وأرادوا بذلك إظهارَ شدة التمسك بالنصوص الشرعية.

وقد تعاضدت جهودُ أهل السنةِ الأشاعرةِ والماتريديةِ علىٰ تمييز الصحيح من غيره من الأحاديث الواردة في موضوع الاعتقاد، ثم فهم الصحيح منها بما يجمع بين كل النصوص الواردة في المسألة من كتابٍ

وسنة، وفهم المراد من ذلك كله علىٰ ضوء القواعد العقلية الصحيحة كما فعل الإمام المحدِّث البيهقي في كتابيه «الاعتقاد» و«الأسماء والصفات».

والباحث المصنف يجب أَنْ يستوعبَ وجهةَ نظر الجميع ليعرفَ الحق بعد ذلك ولا يعجل بالحكم بالكفر والضلال علىٰ أحدٍ من أهل القبلة فقد قال رسول الله ﷺ: «من صلىٰ صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم، الذي له ذمة الله ورسوله فلا تخفروا الله في ذمته». رواه البخاري (٣٨٤).

والمسلمُ يحب أن يزيد عددُ المسلمين لا عدد الكافرين. ولهذا امتاز أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية بعدم التسرع في الحكم بالكفر علىٰ غيرهم وإن قال عنهم غيرُهم ما قال، فإن تكفيرَ المسلم ليس أمراً سهلاً، فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه». رواه البخاري (٦١٠٣) ومسلم (٦٠).

والمتأمِّلُ في مذاهب المسلمين العقدية يجدها متفقةً علىٰ القضايا الكبيرة وهي: شهادة أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريك له، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه، وأَنَّ القرآن كلامُ الله المنزل علىٰ سيدنا محمد، وأنه منقولٌ إلينا بالتواتر، ويجبُ اعتقاد ما فيه والعملُ به، وهذا يكفي لاجتماع كلمة المسلمين، أمَّا الخلافُ ففي مسائلَ فرعيةٍ لا أُقلِّلُ من شأنها لكن لا ينبغي تفريقُ صفوف المسلمين بسببها.

ومن الجدير بالذكر أن جهابذة علماء المسلمين من محدثين ومفسرين وفقهاء وأصوليين ومتكلمين هم من الأشاعرة والماتريدية، فالمالكية والشافعية وكثيرٌ من الحنابلة ـ كابن الجوزي ـ أشاعرةٌ، والحنفية ماتريدية، فماذا يقول يومَ القيامة مَنْ سَبَّ هؤلاء وشَتَمَهم وهو عالةٌ عليهم في بقية

علوم الشريعة؟ ولو خالفهم وسكت لكان أقربَ للسلامة. ورحم الله من قال في حق السّلف: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

هذا وقد استفدت فيما كتبت من كتاب «الاعتقاد» للبيهقي، و«شرح الجوهرة» للشيخ عبد السلام اللقاني، و«حاشية الشيخ إبراهيم الباجوري علىٰ جوهرة التوحيد»، و«حاشية الشيخ محمد الأمير»، وتعليقات الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد علىٰ «شرح الشيخ عبد السلام للجوهرة»، و«تهذيب حاشية الباجوري» لشيخي الشيخ نايف عباس رحمهم الله جميعاً ورحمنا معهم، وكتاب «العقيدة الإسلامية» لشيخي الشيخ عبد الرحمٰن حبنكة حفظه الله، وقد سميتُ هذا الشرح:

«المختصر المفيد في شرح جوهرة التوحيد»

وأدعو الله تعالىٰ أن يغفر الزلل، ويوفقنا جميعاً إلىٰ صالح العمل، ويتقبل منا بفضله وكرمه، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

د. نوح علي سلمان

١٤١٩ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

١ ـ الحَمْـدُ للهِ علـىٰ صِـلاتِـهِ ثـمَّ سَـلامُ اللهِ مَـعْ صَـلاتِـهِ

٢ ـ علـىٰ نَبِـيٍّ جـاءَ بـالتَّـوْحيـدِ وقَـدْ خَـلا الـدِّيـنُ عَـنِ التَّـوْحِيـدِ

يبدأ المؤلفون المسلمون مؤلفاتِهم بجملة: (بسم الله الرحمٰن الرحيم) وذلك اقتداءً بالقرآن الكريم، فإن أول آيةٍ فيه: (بسم الله الرحمٰن الرحيم)، وقد أمرَ النبيُّ ﷺ أنْ نبدأ أمورَنا المهمَّة بهذه الكلمة الطيبة، فقال ﷺ: «كلُّ أمرٍ ذي بال» أي مهم «لا يُبْدَأُ فيه ببسم الله الرحمٰن الرحيم فهو أَبْتَر»؛ أي: ناقصٌ قليلُ البركة. رواه أبو داود، انظر كشف الخفاء (١٩٦٤). ومناسبتها في ابتداء الأمور: كأنّ صاحبها يقول: أتبَرك باسمِ الله الرحمٰن الرحيم، وأستعينُ بالله الرحمٰن الرحيم، ولا أنسىٰ ربي عند هذا الأمر المهم.

ومن أسماء الله الحسنىٰ: الله والرحمٰن والرحيم، وذِكْرُ هذه الأسماء في ابتداء الأمور يُشعر بأن قائلها يرجو معونةَ الله تعالىٰ ورحمته.

بعد البسملة يحمد المؤلفون المسلمون الله تعالىٰ فيقولون: (الحمد لله) وهذا أيضاً اقتداءٌ بالقرآن الكريم، فإن أول سورة في القرآن «الفاتحة» وأولها

بعد (بسم الله الرحمٰن الرحيم): ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ومعناها: أنَّ كلَّ الحمد يستحقه الله تعالىٰ، فالإنسان يحمد صاحب الفعل الجميل، وكلُّ الأفعال الجميلة من الله تعالىٰ، وغيرُه مسخَّرٌ له، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل ٥٣]، وهذا الثناء علىٰ الله طلبٌ للمزيد من النعم واعترافٌ بفضل الله تعالىٰ وحسنِ صنيعه. قال الله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

بعد الحمدِ لله، يصلّون ويسلّمون علىٰ رسول الله ﷺ استجابةً لقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ثمّ إنَّ جميعَ العلوم الإسلامية مأخوذةٌ عن رسول الله ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، فوجب أَنْ نذكره بالخير وأَنْ نسألَ الله تعالىٰ له المزيدَ من الرحمة والإكرام؛ فإنَّ صلاةَ الله تعالىٰ علىٰ عباده رحمته، وصلاةَ الملائكة علىٰ المؤمنين الاستغفارُ لهم، وصلاةَ العباد لله التضرّعُ والدعاء.

والسلامُ تحيةُ الله لعباده الصالحين في الدنيا والآخرة، قال الله تعالىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. والسلامُ كلمةٌ تُشعر بالسلامة من كل مكروه.

الإسلام دين التوحيد:

إن الدين الإسلاميَّ الذي أوحىٰ الله به إلىٰ نبيه مُحَمَّدٍ ﷺ هو دين التوحيد، فشعاره (لا إلٰه إلا الله)، وهي كلمةٌ عظيمةٌ جامعةٌ تعلن أن الله تعالىٰ هو الإلٰه الحقُّ، وغيرُه ليس إلٰهاً بل هو عبدٌ لله.

وكل الأنبياء جاؤوا يدعون إلىٰ التوحيد ولكنَّ دياناتِهم دخلها التحريف والتبديل، ولذا لم يكن عند مبعثِ النبيِّ محمّدٍ ﷺ دينٌ يدعو إلىٰ التوحيد الخالص، لأن الناسَ كانوا يومئذ إما وثنيين يعبدون الأصنام، وإما أهلَ كتاب، وهم اليهود والنصارىٰ، لكنهم حرّفوا الكتبَ التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ أنبيائهم.

فاليهودُ يقولون: عزيرٌ ابن الله، والنصارىٰ يقولون: عيسىٰ ابنُ الله، ومنهم من يقول: عيسىٰ هو الله، ومنهم من يقول: هو جزء من الله، وكل هذا يخالف التوحيد.

ثُمَّ إنَّ اليهود والنصارىٰ كما أَخبر الله عنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، لأنَّ الأحبارَ والرهبانَ أَحَلُّوا لهم الحرامَ وحَرَّمُوا عليهم الحلال فأطاعوهم، فتلك عبادتهم كما قال الرسولُ ﷺ(١). وهذه الطاعةُ تأْليهٌ لهم، لأن التحليلَ والتحريمَ والتشريعَ لله فقط، فإعطاء هذه الصفة لغير الله شركٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ ﴾ [يوسف: ٤٠]. أمَّا ما يفعله المجتهدون المسلمون فهو بيانٌ لحكم الله بواسطةِ الاستنباط من المصادر الشرعية، ولذا يتفق المسلمون علىٰ أن الحاكمَ هو الله، فهو الذي يحلِّلُ ويحرِّم، ويفرض ويسنُّ ويكره، وهو الذي جعل شيئاً شرطاً لشيءٍ أو سبباً أو مانعاً منه، إلىٰ آخر الأحكام الشرعية، وهذا من معاني التوحيدِ الذي جاء به النبيُّ ﷺ.

---

(١) انظر كتب التفسير.

كيف دعا النبي ﷺ إلىٰ الإسلام؟

٣ ـ فأَرْشَدَ الخَلْقَ لِدِينِ الحَقِّ بسَيْفِهِ وهَدْيِهِ للحَقِّ

لقد بدأ رسول الله ﷺ دعوته إلىٰ الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، يقيمُ الحجَج والبراهين علىٰ صحة ما جاء به من عند الله.

وكانت دعوته تتلخّص: بالتوحيد، وتركِ عبادة الأصنام وغيرها مما سوىٰ الله، ودعا إلىٰ مكارم الأخلاق والمساواة بين الناس مهما كانت ألوانهم وقبائلهم وشعوبهم، ودعا أيضاً إلىٰ تحكيم شريعة الله في كل الشؤون.

فآمنَ به خِيارُ الناس الذين تنفع فيهم الكلمةُ الطيبة والحجة والبرهان، وعارضه الذين يستفيدون من نظام الكفر وشريعة الجاهلية التي تقوم علىٰ الإشراكِ بالله، والتفرقةِ بين البشر، والتحاكم إلىٰ الطاغوت.

ولذا كان لا بد من الجهاد، فقاتل أنظمة الكفر بعد أن هاجرَ إلىٰ المدينة وأقامَ فيها الدولة الإسلامية، لذا أجمع الصحابة الكرام في زمن عمرَ بن الخطاب رضيَ الله عنه علىٰ أن تكون الهجرةُ بداية التأريخ الإسلامي، لأنها بداية قيام الدولة الإسلامية، فجعلوا عامَ الهجرة العام الأوَّل في التاريخ الإسلامي.

اختتامُ النبواتِ بسيدنا محمد ﷺ:

٤ ـ محَمَّدِ العاقبْ لِرُسْلِ رَبِّهِ وآلِهِ وصَحْبِهِ وحِزْبِهِ

لقد بعث الله رسلاً كثيرينَ إلىٰ الناس في عصور متعاقبة وأماكن متعددة، وكانت رسالاتهم خاصة بأقوامهم، وما يناسب أحوالهم، قال الله تعالىٰ:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، ولكنَّ محمداً ﷺ بعثه الله تعالىٰ إلىٰ الناس كافة، وجعله خاتمَ الأنبياء، قال الله تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، لأنَّ شريعته صالحة لكل زمان ومكان، وتغطي احتياجاتِ البشر من التشريع بأساليب متعددة، فهي أتمُّ الشرائع.

ثم إن النبيَّ ﷺ بُعث بين يدي الساعة قال ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطىٰ. رواه البخاري ومسلم وغيرهما. فهو العاقبُ لأنه جاء عَقِبَ جميع الأنبياء، ولأنَّ الناسَ يُحشرون يومَ القيامة عقبَ بعثته بمدةٍ قريبة بالنسبة لما مضىٰ من القرون.

مَنْ هم آل رسول الله ﷺ؟

آل رسول الله ﷺ هم: أزواجُه وكل مؤمنٍ من أقاربه: وهم ذرية هاشم والمطّلب ابني عبد مناف، وهاشمٌ هو أبو جَدِّ النبيِّ ﷺ فهو ﷺ: محمد بن عبد الله بن عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مَناف، والمطَّلب أخو هاشم، ولذا حُرِّمت الصدقةُ علىٰ بني هاشم وبني المطّلب تشريفاً لهم لقرابتهم من رسول الله ﷺ.

وقد أمرنا رسول الله ﷺ بأن نصلِّيَ علىٰ آله إذا صلّينا عليه، فقد سأل الصحابةُ رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا رسولَ الله عَرَفْنا كيف نسلِّم عليك؛ فكيف نصلِّي عليك؟ فقال: «قولوا: اللهمّ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آل محمدٍ كما صليتَ علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم...» إلىٰ آخر الصلاة الإبراهيمية. رواه البخاري ومسلم.

مَنْ هم الصحابة؟

وأمَّا أصحابُ النبيِّ ﷺ فهم كل من لقي الرسولَ ﷺ مؤمناً ومات علىٰ ذلك.

وهذا هو تعريف الصحابيِّ عند المحدِّثين، فكل من لقيه في حياته مؤمناً ومات علىٰ الإيمان فهو صحابيٌّ نال شرفَ الصحبة، وهو ثقة فيما يرويه عن رسول الله ﷺ.

أما الأصوليون الذين قالوا: إنَّ قول الصحابيِّ مصدرٌ من مصادر التشريع، فقالوا لا بدَّ مع ما ذُكر في تعريف الصحابيِّ أن تطولَ صحبته.

وفضل الصحابة لا يخفىٰ، لذا نصلِّي عليهم مع رسول الله ﷺ وآله اعترافاً بفضلهم، فهم الذين نقلوا لنا هذا الدين.

مَنْ هم حزبُ رسول الله؟

وأمَّا حزب الرسول ﷺ فهم حزب الله، أي: كل مؤمن بالله ورسوله في أيِّ زمان ومكان، ونصلي عليهم تأسياً بقول الله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فالله تعالىٰ يصلي علىٰ المؤمنين ونحن نصلي عليهم.

حكم العلم بأصول الدين:

٥ ـ وبَعْدُ فالعِلْمُ بأَصْلِ الدِّينِ   محَتَّـــمٌ يَحْتَـــاجُ لِلتَّبْييـــنِ

٦ ـ لكِنْ مِنَ التَّطْوِيلِ كلَّتِ الهِمَمْ   فصَــارَ فيـــهِ الاخْتِصَـــارُ مُلْتَـــزَمْ

العلم: هو إدراك الشيء علىٰ ما هو به؛ أي: معرفة الشيء علىٰ حقيقته، فمن أيقن أن صلاةَ الظهر أربع ركعاتٍ فقد علم هذا الحكمَ الشرعي، ومن لم يعرف عددَ ركعات صلاة الظهر فهو جاهلٌ بهذا الحكم، لكن جهله بسيط؛ أي: غير مضاعف، ومن اعتقد أن صلاةَ الظهر ثلاثُ ركعات، فهو جاهلٌ بهذا الحكم جهلاً مركباً؛ أي: مضاعفاً؛ لأنه جاهلٌ ولا يدري أنه جاهل.

ومن اعتقد أن الله تعالىٰ خالق الكون فهو عالمٌ بهذه المسألة، ومن قال: لا أدري مَنْ خالق الكون، فهو جاهلٌ بهذه المسألة جهلاً بسيطاً، ومن اعتقد أنَّ الكون وُجِدَ من غير موجد فهو جاهل بهذه المسألة جهلاً مركباً.

وأُصولُ الدين الإسلامي: هي العقائدُ التي يقومُ عليها الإسلام، والمراد بالعقائد هنا مجموعُ ما يصدِّق به المسلم تصديقاً جازماً، سواءٌ كان دليله قطعياً أم ظنياً، وأما قول العلماء: إن العقائد لا يقبل فيها إلا المتواتر، فإن المراد بالعقائد في هذه القاعدة ما يكفر جاحده، وسيأتي بيانٌ لهذه القاعدة إن شاء الله تعالىٰ عند شرح معنى الإيمان.

والعلم بأصول الدين واجبٌ شرعاً لقول الله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فقد أمر الله تعالىٰ نبيَّه والمؤمنون أنْ يعلموا علماً جازماً بأنه (لا إلٰه إلا الله) والأمر يفيد الوجوب، فصار العلمُ بهذه الحقيقة واجباً، وكذلك العلم بالحقائق المتعلقة بها.

ويكفي في حق المسلم العادي ـ غير المتخصِّص بعلم التوحيد ـ أن يعرفَ قواعدَ هذا العلم التي تتعلق بالله عز وجل وصفاته، والأنبياء والرسل عليهم الصّلاة والسّلام والأمور الغيبية التي أخبر بها النبي ﷺ، فيعتقد أن الله

تعالىٰ واحدٌ لا شريك له، وليس كمثله شيء، وليس له والدٌ، ولا ولد، ولا زوجة، وأنه متصفٌ بصفات الكمال المطلق اللائق به، ومنزهٌ عن صفات النقص التي لا تليق به.

ويعتقد أن الله تبارك وتعالىٰ أرسلَ رسلاً إلىٰ الناس لهدايتهم إلىٰ التوحيد وإلىٰ ما يسُعدهم في الدنيا والآخرة، وجعل خاتم الأنبياء محمداً ﷺ، فلا نبيَّ بعده، وأنَّ الأنبياء عليهم السّلام متصفون بالصفاتِ الكريمة اللائقة بهم ومنزَّهون عن النقائص التي لا تليق بهم.

ويعتقد باليوم الآخر، والبعث بعدَ الموت، والحساب، والصراط والميزان، وأنَّ الجنةَ مصيرُ المؤمنين، وأنَّ النارَ مصيرُ الكافرين، وأمّا المتخصِّصُ بعلم التوحيد فيجب أنْ يعرفَ مفرداتِ هذه المسائل بالمقدار الذي جاء في الكتاب والسنة الصحيحة وما استُنبط منهما، بحيث يقدر ـ إنْ شاء الله ـ علىٰ رَدّ شبه الجاحدين ويجيبُ علىٰ أسئلةِ المسترشدين، وهذا هو موضوع هذا الكتاب.

الحاجة إلىٰ الاختصار في بيان العقيدة:

وقد ألّف علماءُ المسلمين مؤلفاتٍ متعدّدةً في هذا العلم، وبعضهم أطال فيه إطالةً يعجز عن ٱستيعاب مضمونها غير المتفرغين وهم أكثر الناس، فوجبَ علىٰ العلماء أن يختصروا في التأليف ليستفيد من مؤلفاتهم كل المسلمين، وهذا ما فعله صاحبُ «الجوهرة» وولده شارحُها رحمهما الله تعالىٰ، وأنا أقتدي بهما في التعبير عن هذه العقائد بلغةِ العصر الحاضر كما ذكرتُ في المقدمة إن شاء الله.

القصد من تأليف جوهرة التوحيد:

٧ ـ وهَـــذِهِ أُرْجُـــوزَةٌ لَقَّبْتُهـــا   جَـوْهَـرَةَ التَّـوْحيـدِ قـدْ هَـذَّبْتُهـا
٨ ـ والله أَرْجُـو فـي القَبُـولِ نـافعـا   بِهـا مُـرِيـداً فـي الثَّـوابِ طَـامِعـا

من الأساليب التربوية التي استعملها علماءُ المسلمين في تسهيل حفظ العلوم علىٰ الطلاب صياغةُ القواعد العلمية بأسلوبٍ شعريٍ سهلٍ هو أُسلوب الرَجَز، وذلك لأنّ حفظ الرَجَز أسهلُ من حفظ النثر، وهكذا فعل المؤلفُ رحمه الله، فقد نظم قواعدَ العقيدة بطريقة الرَجَز، وسمّىٰ كتابه «جوهرة التوحيد»؛ أي: أهم مسائل علم التوحيد، ونظمَ غيرُهُ قواعدَ النحو، ومسائلَ الفقه... إلخ، ولكل عصرٍ ما يناسبُ ذوقَ أصحابه من الأساليب التربوية، والمهم المعلومات التي تتضمنها المؤلفات.

وعلماؤنا عليهم رحمة الله امتازوا بأنهم تعلّموا العلمَ لوجه الله عز وجل طمعاً في الأجر والثواب، وعلّموه من أجل ذلك، ولهذا سأل المؤلف ربه عز وجل أن يقبل منه هذا العملَ الجليل، وأَنْ ينفع به من أرادَ الآخرةَ في طلبه للعلم، وقد استجابَ الله دعوته ونفعَ بمؤلَّفه خلقاً كثيراً، وندعو الله تعالىٰ أن ينفعنا به أيضاً.

العقيدة الواجبة علىٰ المكلف:

٩ ـ فكُلُّ مَنْ كُلِّفَ شَرْعاً وَجَبَا   عَلَيْـهِ أَنْ يَعْـرِفَ مَـا قَـدْ وَجَبَـا
١٠ـ للهِ، والجَـائِـزَ والمُمْتَنِعـا   ومَثْـلَ ذا لِـرُسْلِـهِ فَـاْسْتَمِعَـا

المكلَّفُ في نظر علماء الشريعة الإسلامية: هو الإنسانُ المطالَبُ بفعل الأوامر الشرعية واجتنابِ ما نهىٰ عنه الشرع الشريف، وله الأجر والثواب

علىٰ الطاعة، ويُعَرِّضُ نفسَهُ للعقوبة إن خالف، وهو مَنْ توفرت فيه ثلاثُ صفاتٍ هي: البلوغ، والعقل، ووصول الدعوة الإسلامية إليه:

أ ـ أما البلوغ: فهو النضجُ البدني، وله علاماتٌ معروفةٌ عند الأطباء والفقهاء، أهمُّها الاحتلام؛ أي: خروجُ المني، وهذا في حق الرجال والنساء، والحيض، وهذا في حق النساء. فمتىٰ ظهرت هذه العلامات صار الإنسان بالغاً مهما كان عمره، وإن لم تظهر حتىٰ بلغ الخامسةَ عشرةَ من عمره بالحساب القمري اعتُبر بالغاً، وذلك لأن العقلَ والإدراكَ لا يكونان كاملين قبلَ البلوغ، لكن علىٰ وليِّ الصبي أن يعلِّمه قواعدَ العقيدة الإسلامية بحسب ما يليق بحاله، ويأمرَه بالصلاة والعبادة، ويبين له الحلال والحرام مما يتعرَّض له في حياته اليومية.

ب ـ وأما العقل: فهو القدرةُ علىٰ فهمِ الكلام، فالمجنون غيرُ مكلَّف. والمعتوهُ الذي لا يستوعب معنىٰ ما يقال له ليس مكلفاً، لكن يُعلَّم كالصبي بحسب حاله.

جـ ـ وأما بلوغ الدعوة: فهو أن يعلمَ أن الله تعالىٰ قد بعث رسولاً إلىٰ الناس اسمه محمدٌ ﷺ، وكان متصفاً بالصفات الكريمة، وقد أقام الحجة علىٰ أنه رسولُ الله بظهور المعجزات علىٰ يديه، وطلب من الناس أن يؤمنوا بالله وحده لا شريكَ له وأن يطيعوا أمره. فمن لم تبلغه الدعوة لا يطالَبُ بالإيمان، ولا يعذَّبُ علىٰ الكفر، ومن هؤلاء أهلُ الفترة؛ أي: الذين ماتوا قبلَ مبعث نبينا محمد ﷺ ولم تبلغهم دعوةُ نبيٍ قبله.

وكذلك من وُلد أعمىٰ أصم، فهذا لا يمكنه أن يعلمَ ببعثة الرسول ﷺ، ولذا لا يعد مكلفاً؛ لأن الدعوةَ لم تبلغه، والدليل علىٰ اشتراط بلوغ الدعوة قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وبناءً على هذا: من مات قبلَ البلوغ لا يعذَّب علىٰ الكفر ولا علىٰ غيره. ومثله من وُلد مجنوناً ومات مجنوناً، أما مَنْ بلغ عاقلًا ثم جُنَّ ومات مجنوناً فإنه يحاسب كَمَنْ مات بعد البلوغ.

والذي لم تبلغه الدعوة لا يعذَّب علىٰ الكفر ولا علىٰ غيره، ومن لم يعذَّب يدخل الجنة. إذن فغيرُ المكلَّف ينجو من العذاب ويدخل الجنةَ بفضل الله تعالىٰ.

الشريعة مصدر الأحكام:

التكليفُ بالاعتقاداتِ والأحكامِ مصدرُهُ الشرعُ فقط، فما أوجبه هو الواجب، وما حرَّمه هو المحرم، فقبلَ نزول الشرع لا يوصف الفعل بأنه حرامٌ أو واجبٌ أو غير ذلك من الأوصاف الشرعية للأفعال.

نعم إن العقلَ البشري يستحسنُ بعضَ الأفعال النافعة كبِرِّ الوالدين، ويستقبحُ بعضَ الأفعال الضارة كعقوق الوالدين، وإذا كانت الفطرة سليمةً اهتدىٰ الإنسان إلىٰ أن هذا الكون له خالقٌ وإنْ لم يعرف صفاته، وأنكر أن يوجد الكونُ من غير موجد.

وهذا لا شكَّ فيه، لكن عندما نقول: هذا واجبٌ شرعاً فالمقصود: أن فاعل هذا الفعل يُثاب عليه من الله تعالىٰ، وعندما نقول: هذا حرامٌ فالمقصود أن فاعلَه يستحق العقوبة، وهكذا بقيةُ الأحكام الشرعية، وبهذا المعنىٰ فالأحكام الشرعية كلُّها مصدرُها الشرع، فالواجبُ ما أوجبه، والحرامُ ما حرّمه، والمكروه ما كرهه، أما استحسانُ العقول قبلَ ورود الشرع فلا علاقةَ له بالثواب، واستقباحُ العقول قبلَ ورود الشرع لا علاقةَ له بالعقاب.

معنىٰ الواجب والجائز والمستحيل:

تتردد كثيراً في علم التوحيد كلماتٌ يجبُ علىٰ دارس هذا العلم أن يعرفَ معناها، وهي: الواجب عقلاً، والمستحيل عقلاً، والجائز عقلاً، وهي من مصطلحات علم المنطق. أما الواجب: فهو ما لا يَتَصَوَّرُ العقلُ عدمَهُ؛ أي: لا يتصور العقلُ أن لا يكون موجوداً، مثال ذلك: (وجود حيز لكل جسم)، فإن العقلَ لا يتصور جسماً لا يأخذ حيزاً من الفراغ. و(أن الجسمَ إما ساكن وإما متحرك)، فالعقلُ لا يتصور جسماً غير ساكن ولا متحرك. و(كل الشيء أكثر من بعضه)؛ وهذه الأمور كما ترىٰ بَدَهيَّةٌ لا يتصورُ العقل عكسها.

وأما المستحيل: فهو ما لا يتصور العقلُ وجودَه. ومثالُ ذلك: عكسُ الأمور الواجبة، كجسمٍ لا يشغل مقداراً من الفراغ، وجسمٍ غير ساكن ولا متحرك، وبعض شيءٍ أكبر من كله، فهذه أمورٌ لا يتصورها العقل.

وأما الجائز ويسمىٰ الممكن: فهو ما يتصوَّرُ العقلُ وجودَهُ ويَتصوَّرُ عدمَهُ، فكلا الاحتمالين ممكنٌ ويقبله العقل. فتصور جسمٍ متحركٍ ممكنٌ، وتصور جسمٍ ساكنٍ ممكنٌ، وأن يكون فلان غنياً ممكنٌ، وأن يكون فقيراً ممكنٌ.

والأمثلة التي ضربتها من السهل أن يدركها الإنسان، لكن بعض القضايا تحتاج إلىٰ نظرٍ وتأملٍ واستدلالٍ ليعرف الإنسان بعد ذلك أنها واجبةٌ أو مستحيلةٌ أو جائزة.

وجوب معرفة الواجب والمستحيل والجائز في حق الله تعالىٰ ورسله:

يجبُ علىٰ المكلف أن يعرفَ الواجبَ في حق الله تعالىٰ، فيعلم أنَّ الله واحدٌ لا شريك له، وأنه سميعٌ بصير، إلىٰ آخر الواجبات التي سَنَمُرُّ بها في هذا الكتاب، ويجب أن يعرف المستحيلَ في حق الله تعالىٰ، فيعلم أن الله تعالىٰ يستحيل عليه أن يكون له ولدٌ أو زوجة، وكذا عكس الصفات الواجبة.

ويجبُ أن يعرف الجائزَ في حق الله تعالىٰ، فيعلم أن الله تعالىٰ قادرٌ علىٰ أن يجعل فلاناً غنياً، وقادرٌ علىٰ أن يجعل فلاناً فقيراً، وقادرٌ علىٰ أن يعجل العقابَ للظالمين.

ويجبُ علىٰ المكلَّف أن يعرف الواجب والمستحيل والجائز في حق الرسل عليهم الصّلاة والسّلام، فيعلمَ أن الصدقَ واجبٌ في حقهم، وأن الكذبَ مستحيلٌ عليهم، وجائزٌ عليهم أن يأكلوا ويشربواويناموا...

وهذه العقائد يجبُ علىٰ المكلف أن يتعلمها بحسب وُسعه وطاقته، فالعالم يُطْلَبُ منه ما لا يطلب من العامي، والذكي يَعْرِف ما لا يعرفه الغبي، فالعالم والذكي يجبُ عليهما أن يعرفا الدليلَ وأن يقيما الحجةَ علىٰ صحة هذه العقائد، وغيرُهما يكفيه أن يعرف الأمرَ مجملاً كما سمعه من العلماء.

والدليل علىٰ وجوب هذه المعرفة قولُ الله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقولُ الرسول ﷺ: «أُمرْتُ أن أقاتل الناسَ حتىٰ يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم علىٰ الله» رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وقد أجمع المسلمون علىٰ وجوب هذه المعرفة؛ لأنها العقائدُ التي تميز المسلم من غيره.

حكم التقليد في العقيدة:

١١ ـ إذْ كُلُّ مَنْ قلَّدَ في التَّوْحِيدِ — إيمانُهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ تَرْدِيدِ
١٢ ـ ففيه بَعْضُ القَوْمِ يَحْكِي الخُلْفا — وبَعْضُهُم حَقَّقَ فيهِ الكَشْفا
١٣ ـ فقال: إنْ يَجْزِمْ بقَوْل الغَيْرِ — كَفَىٰ، وإلاَّ لَمْ يَزَلْ في الضَّيْرِ

التقليد: هو اتباع الغير فيما يعتقد من غير معرفةٍ بالدليل الذي استدل به، أما إذا عَرف الدليل واقتنع به فليس مقلِّداً، ومن وافق غيرَهُ في اعتقادِهِ بناء علىٰ دليلٍ خاصٍ استنبطه ليس مقلداً.

ثم إن المقلِّد قد يكون جازماً بحيث لو رجع مَن قلَّده عن اعتقاده لا يرجع هو، وقد يكون غيرَ جازم بحيث لو رجع مَن قلده يرجع هو أيضاً تبعاً له.

والتوحيد: كلمةٌ مشتقةٌ من كلمةِ «واحد»، وتطلق علىٰ علم العقائد الإسلامية، لأن أهمَّ ما فيها توحيد الله عز وجل، وهذا العلمُ يشتمل علىٰ مسائلَ منها ما يتوقف عليه الإيمان المنجي في الآخرة من النار، ولذا يجب الإيمان الجازم بها لأن مخالفتها تعد كفراً، وذلك كالإيمان بوحدانية الله تعالىٰ، ونبوة محمدٍ ﷺ ورسالته.

ولا شك في صحة إيمان من اعتقد بمسائل التوحيد وجزم بها عن دليل، سواءٌ استنبط ذلك بنفسه أو تعلمه من غيره وجزم به.

ولا شك أيضاً في عدم صحة إيمان المقلِّد لغيره في هذه المسائل تقليداً غيرَ جازم، بحيث لو رجع عنها المقلَّدُ وخالفَها لاتَّبعَهُ المقلِّد؛ لأن الإيمان هو التصديق الجازم، وهذا تصديقه غير جازم، فلم يكن مؤمناً.

أما المقلِّدُ الجازمُ بمسائل العقيدة تبعاً لغيره دون معرفةٍ بالدليل فقد اختلف فيه العلماء:

أ ـ فمنهم من قال: إنَّ إيمانَهُ صحيح؛ لأنه موافِقٌ للحق مُعْتَقِدٌ به.

ب ـ ومنهم من قال: إنْ قلَّدَ القرآنَ والسنةَ القطعيةَ فإيمانه صحيحٌ؛ لأنه اتبع القولَ المعصوم. وإنْ قلد غيرَهما فإيمانه غير صحيح؛ لأنه قلّد غير المعصوم.

جـ ـ ومنهم من قال: إنَّ إيمانه صحيحٌ إلا أنه آثمٌ لأنه ترك الاستدلال الذي يقدر عليه، وهذا فيمن يقدر علىٰ الاستدلال أما غير القادر فيكفيه التقليد الجازم.

د ـ ومنهم من قال: إيمانه غيرُ صحيح.

وهذا فيمن سمع بالإسلام فآمن بما سمع من غير بحث، أما من نشأ في ديار الإسلام وتواتر عنده حالُ النبيِّ ﷺ وما أوتي من المعجزات فآمن وتمكَّن الإيمانُ في قلبه فهذا مؤمنٌ بلا شك.

ومن هذا يتبين لنا الفرق بين الإسلام وبين بعض الديانات التي تحرم البحث في العقيدة مطلقاً مهما كان نوع البحث، ويريد رجالُ الدين فيها أن يصدقهم الناس فيما يقولون دون مناقشة، أما علماء المسلمين فيحثُّون علىٰ البحث ويختلفون في صحة إيمان المقلِّد كما رأيت، وسبب ذلك أن علماء المسلمين يعلمون أنهم علىٰ الحق، وأن المنطقَ السليمَ يؤيدهم، وصاحبُ الحق لا يخشىٰ من البحث، وغيرهم يخشىٰ أن يكشف البحثُ تناقضَ ما يقول، فالحمد لله علىٰ هذا الدين الحق، الذي ترتضيه العقول السليمة، لقد أمرنا الله بالتفكير وأمر غيرنا، وفكرنا وعرفنا صدق ما جاء به نبينا ﷺ، وغيرنا حرَّف الرسالات، وحرم التفكير.

إن العقائد الإسلامية مبنيةٌ علىٰ الحجج العقلية الصحيحة، والأحكام الشرعية مبنيةٌ علىٰ العقائد.

هذا الخلاف الذي ذكر في صحة إيمان المقلد هو من حيث النجاة في الأخرة، أما الأحكام الدنيوية فيكفي فيها الظاهر، فكل من ولد من أبوين مسلمين أو كان أحد أبويه مسلماً يحكم له بأنه مسلمٌ، وكذا من كان كافراً ونطق بالشهادتين ولم يصدر منه ما يناقض الإسلام كالسجود لصنم مما يُعبد من دون الله تعالىٰ. ودليلُ هذا قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]، وقولُ النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ صلاتَنا، واستقبل قبلتَنا، وأَكَلَ ذبيحتَنا، فذلك المسلمُ الذي له ذِمَّةُ الله وذمة رسولِه فلا تَخْفِرُوا الله في ذمته» رواه البخاري (٣٨٤).

ومعنىٰ الحكم له بالإسلام أَنْ يعاملَ في الأحكام الدنيوية معاملةَ المسلمين، فيحكم بصحة صلاته وصيامه، ويرث من أقاربه المسلمين، ويرثه أقاربه المسلمون، وتؤكل ذبيحته، ويصح زواجه من المسلمة، وإن كان امرأة يصح زواجُ المسلم منها.

معرفة الله أول الواجبات:

١٤ـ واْجْزِمْ بأنَّ أَوَّلاً مما يَجِبْ　　مَعْرِفَةٌ وفيه خُلْفٌ مُنْتَصِبْ

أول ما يجبُ علىٰ المكلَّف أنْ يعرفَ اللهَ تعالىٰ؛ أي: يعرف صفاته عز وجل، فيعرف أنه موجود، وأنه الذي خلق هذا الكون بما فيه، ولولاه عز وجل ما وجد شيء، ويعرف أنه واحدٌ لا شريكَ له، وأنه متصفٌ بكل صفات الكمال التي تليق به عز وجل، ومنزَّهٌ عن كل صفات النقص التي لا

تليق به سبحانه وتعالىٰ، وهذه العقائد تُعرف مما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومما تواتر بين المسلمين.

لكن هذه المعرفة تحتاج إلىٰ نظرٍ وتأملٍ وبحث، فهل الواجب الأول هو المعرفة أم البحث المؤدي إليها؟ اختلف العلماء في هذا، وهو خلافٌ نظريٌّ كما ترىٰ، لأن البحثَ لا يُراد لذاته بل من أجل المعرفة، فالمطلوب الأول هو المعرفة.

بعض الأدلة علىٰ وجود الله عز وجل:

١٥ـ فَانْظُرْ إلىٰ نَفْسِكَ ثُمَّ انْتَقِلِ ... لِلْعَالَمِ العُلْوِيِّ ثُمَّ السُّفْلِي
١٦ـ تَجِدْ بِهِ صُنْعاً بَدِيعَ الحِكَمِ ... لَكِنْ بِهِ قَامَ دَلِيلُ العَدَمِ
١٧ـ وَكُلُّ ما جَازَ عليهِ العَدَمُ ... عَليهِ قَطْعاً يَسْتَحِيلُ القِدَمُ

معرفة الله تعالىٰ أولها الإيمان بوجوده عز وجل، والإيمان بوجوده تعالىٰ له طرق كثيرة، حتىٰ قالوا: لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق، فكما أن أنفاس الخلائق لا تحصىٰ فطرق معرفة الله لا تحصىٰ، وأوضحُ الدلائل علىٰ وجود الله تعالىٰ ملاحظة الإنسان لنفسه وللكون مِنْ حوله.

أ ـ إذا نظر الإنسان إلىٰ نفسه يجد أن جسمه يحتوي علىٰ عددٍ هائلٍ من الأجهزة لم يستطع الأطباء إلىٰ اليوم أن يحيطوا بها علماً وأن يعرفوا كلَّ وظائفها، كالدماغ، والأعْصاب والقلب، والدم، والكبد، والكلىٰ، والغدد المختلفة، والسمع، والبصر، وجهاز الهضم... إلخ، وكل عضوٍ يقوم بوظيفته بدقة متناهية، وبطريقةٍ مُكَمِّلَةٍ لما تقوم به الأجهزة الأخرىٰ، وقد أصبح الطبيب يتخصّص بجزءٍ من هذه الأعضاء، وتراه يقف حائراً أمام الكثير من الأمور.

هذا عدا عن القضايا النفسية والعقلية، فكيف وجد هذا الجسم بأجهزته المتعددة وكيف نُظِّمَ عَمَلُهُ؟

نحن نرىٰ لعبةً من لعب الأطفال فنعتقد تلقائياً بأن هناك من صنعها ودبّر طريقة عملها ولا نقبل غير ذلك، ولا نُصَدِّقُ إذا قيل لنا: إنها وجدت من غير صانع، إذَنْ هذا الجسم العجيب لا بدَّ له من صانع مدبِّر، وصانعه ومدبِّره هو الله تعالىٰ، لقد أحسن ذلك الطبيبُ المسلمُ الذي سمّىٰ كتابه «**الطبّ محراب الإيمان**»، فقد عرض فيه من عجائب الجسم البشري ما يجعل العاقلَ المنصفَ يؤمن بالله إيماناً لا يقبل الشك.

إن الإنسانَ لم يَخلُق نفسه ولا خلقه أبواه، ولا بدَّ له من خالق، وخالقه هو الله عز وجل.

ب ـ إذا نظر الإنسان إلىٰ السماء وما فيها من نجومٍ وأفلاكٍ وقرأ ما كتبه العلماء عن ذلك يجد أن فيها أجراماً هائلة كبيرة وكثيرة جداً، ومتباعدةً بُعْداً هائلاً، ومع ذلك هي مترابطةٌ متجاذبةٌ منظمةٌ تنظيماً دقيقاً بحيث لا تصطدم، إذ لو اصطدمت لتحطمت، وأقربُ مثالٍ علىٰ ذلك: الشمسُ، فهي تطلع وتغرب علىٰ مدار العام في أوقات ثابتة لا تتقدم ولا تتأخر، فكيف وُجدت هذه الأجسام الهائلة؟ وكيف نُظمت هذا التنظيم الدقيق؟ إنها جماداتٌ لم توجِد نفسَها ولم تنظِّم نفسَها فلا بدَّ لها من موجد ومُنَظِّم، وموجدها ومنظمها هو الله عز وجل.

لا أحد يصدق أن الساعة تُوجِدُ نفسَها وتنظم عملها بنفسها، وهذا الكون الكبير المنظم لا يصدق عاقلٌ أنه وجد من تلقاء نفسه ونظم نفسه بنفسه، بل يشعر بقوة أوجدته ونظمته إنها قوة الله عز وجل.

جـ ـ الأرض وما فيها من المخلوقات من أوجدها وأوجد ما فيها؟ إن فيها جماداتٍ، وفيها أحياءً، والأحياء منها نباتات بأنواعها المختلفة، ومنها حيوانات بأصنافها المتدرجة في التعقيد، فمن أوجد الأحياء من الجمادات؟ ومن جعل لكل حيٍّ نظامَ حياةٍ خاصاً به في تكاثره وغذائه؟ لقد حاول الإنسان بوسائله المتعددة المتطورة أن يُكَوِّنَ خليةً حيةً واحدةً فلم يستطع، فكيف وُجدت هذه الأحياء المكوَّنة مما لا يحصىٰ من الخلايا ولكل خليةٍ وظيفة؟ إن هذه المخلوقات لم تخلق نفسها ولم تنظم نفسها، ولا بدّ لها من خالق ومنظم، وخالقها ومنظم شؤونها هو الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، لقد ظن الإنسان أَنَّ الجمادات أَمْرُها هيِّنٌ، ثم اكتشف أنها تتألف من ذرَّاتٍ في غاية الدقة والتعقيد، وهي تشهد علىٰ افتقارها إلىٰ الخالق المبدع، وصدق العارفُ بالله إذ قال:

وفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لـه آيـةٌ ... تـدُلُّ علـىٰ أنَّـهُ الـوَاحِـدُ

د ـ كان بعض الفلاسفة يقولون: إنَّ أصلَ الكون قديمٌ؛ أي: أنه موجودٌ بلا موجد، وجوداً ليس له بداية، وهذا الكلام باطلٌ، لأن الكون مؤلَّفٌ من أجزاء ولها أشكالٌ مختلفةٌ وصفاتٌ مختلفة، فمنها البارد، ومنها الحار، ومنها الساكن، ومنها المتحرك، ومنها الكروي، والمستطيل، والأسطواني، ومنها الغاز، والجامد، والمائع، إلىٰ غير ذلك من الأعراض (الصفات)، وهذه الصفات تتبدل، والفلاسفةُ أنفسُهم يقولون: إن ما تعتريه الأعراض المختلفة لا يكون قديماً لأنه يحتاج إلىٰ موجود قبله خصَّهُ بهذه الصفات، إِذَنْ: فالكون حادثٌ، والحادث لا بد له من محدث، ومحدثه هو الله تعالىٰ.

لقد اكتشف العلماء في هذا العصر الموادَّ المشعّةَ. وهذه المواد لها عمرٌ إشعاعي؛ أي: أنها تشع إلىٰ مدةٍ قد تكون قصيرةً وقد تكون طويلةً، فإذا انتهىٰ الإشعاع تحوّلت إلىٰ مادة أخرىٰ، وكان هذا دليلًا قاطعاً علىٰ أنَّ الكونَ ليس قديماً بل حادثٌ، إذ لو كان قديماً لما وُجدت فيه مادةٌ مشعّة، إذْ يكون كل الإشعاع قد انتهىٰ، وإذ ثبت أنَّ الكونَ حادثٌ فلا بدَّ من قديمٍ أحدثه، وهو الله عز وجل.

ويجب الانتباهُ إلىٰ أن إثباتَ وجود الله تعالىٰ يختلف عن إثبات المحسوسات؛ أي: الأشيـاء التي ندركها بأحـد الحـواس الخمس، لأن الله عز وجل غير محسوس ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وفي حياتنا العملية إذا أردنا إثباتَ محسوسٍ وضعناه تحت الحس المناسب، فالمبصَرات نضعها تحت البصر، والمسموعات تحت السمع وهكذا بقية الحواس، ومن الخطأ أن نبحث عن الشيء بغير الحاسة المناسبة فنبحثَ عن الألوان بواسطة الشم مثلًا.

أما غيرُ المحسوسات فنبحث عنها بالبحث عن آثارها، فإذا وجدنا آثارَها عرفنا أنها موجودة، وذلك كالفرح والحزن والذكاء والكهرباء والمغناطيس، فهذه غير محسوسة، ونعرف وجودَها بوجود آثارها، ولذا من الخطأ أن يطلب منا الجاحدُ أن يُحِسَّ بالله تعالىٰ ونحن نقول إنه غير محسوس، أما آثارُ الله تعالىٰ فكثيرة، ومنها هذا الكون، فإذا صدّقنا بوجود الكون لا بدَّ أن نؤمنَ بوجود الله، وذلك يتضح بملاحظة ما يلي:

أ ـ الكون موجود، وكل موجودٍ حادثٍ يحتاج إلىٰ مُوجد، وقد علمنا أن الكونَ حادثٌ، فهو بحاجة إلىٰ محدِثٍ، ومحدِثُه هو الله تعالىٰ.

ب ـ الكونُ منظَّم، وكل نظامٍ يحتاج إلىٰ مُنظِّمٍ عالمٍ مدبِّر، والكون جمادٌ لا يستطيع أن ينظمَ نفسه، فمنظِّمه هو الله تعالىٰ.

جـ ـ الكون فيه أجسامٌ متحركةٌ كالشمس والقمر والمجرّات، والحركةُ لا بدّ لها من محرِّك، والكون قابلٌ للحركة والسكون، ومحرِّكه هو الله تعالىٰ.

د ـ الكون فيه جماداتٌ وأحياء، وإخراج الحيِّ من الميت لا يقدر عليه الكونُ بنفسه، فلا بدّ من باعثٍ للحياة في الأحياء، والمحيي هو الله تعالىٰ.

هـ ـ الأحياء أنواعٌ كثيرة، والعلماء اكتشفوا أن كل نوعٍ من الأحياء فيه نظامٌ وراثيٌ يمنع تحول النوع إلىٰ نوعٍ آخر، فمن أوجد الأحياءَ المختلفة؟! إنه الله تعالىٰ.

وقد يتمادىٰ العقل فيقول: من خلقَ الله؟ وقد أجاب علىٰ هذا الرسول ﷺ فقال: «إن الشيطانَ يأتي أحدَكم فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله، فيقول له: فمَن خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنتُ بالله ورسوله، فإن ذلك يذهبُ عنه»، رواه ابن أبي الدنيا في «مكايد الشيطان»، انظر «الجامع الصغير». ويمكن توضيحُ هذا فنقول: هناك احتمالان فقط:

الاحتمالُ الأول: أن نقول: إن الكونَ الجامد الجاهل العاجز وُجِدَ من غير موجد، أي خلقَ نفسَه بنفسِه وطوَّرَ نفسَه بنفسِه.

الاحتمال الثاني: أن نقول: إن الله تعالىٰ الحيَّ القيومَ القادرَ العليمَ المتصفَ بصفات الكمال قديمٌ لا أولَ لوجوده، وهو الذي خلق الكونَ بأنواعه الكثيرة وصفاته المتعددة، أي أنه لا بد للملحد والمؤمن من التسليم

بوجودِ موجودٍ لا بدايةَ لوجوده، إما الكونُ الجاهل العاجز، أو اللهُ العالم القادر، وكل عاقلٍ إذا قارن بين الاحتمالين وجد أن الثانيَ هو الحق، خاصةً بعدما نبَّه العلماء من كافة التخصّصات علىٰ أمورٍ كثيرةٍ في الكون يستحيل معها أن يكون هذا العالَم خلق نفسَه بنفسه، وحبّذا لو راجع طالبُ العلم بعضَ الكتب في هذا الموضوع مثل كتاب: «**العلم يدعو للإيمان**»، وكتاب: «**الله والعلم الحديث**»، وكتاب: «**الله يتجَلّىٰ في عصر العلم**».

صحيحٌ أن العقلَ يصعب عليه أن يتصور موجوداً بلا بداية لوجوده، لكن السببَ في صعوبة هذا التصور هو قصورُ العقل البشري وليس خطأَ القضية (المعلومة)، فالعقل البشري لا يُدرك نهايةَ الأعداد ولا بدايتَها، ولا نهاياتِ الجهاتِ الست، ولا بدايةَ ونهاية الزمان، مع أنه يتعامل بالأعداد والزمان والمكان، فدل علىٰ أن العقلَ محدودٌ، والمحدود لا يحيط بغير المحدود، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، لقد صعب علىٰ البعض أن يؤمنوا بوجود إلٰهٍ ليس لوجوده بداية، فأنكروا وجودَ الكون لأنهم إذا آمنوا بالكون وأنه موجود لا بدّ أن يُسلِّموا بوجود الله، وهؤلاء علىٰ حماقتهم أعقل من الذين يؤمنون بوجود الكون ثم يقولون إنه وُجد بلا موجد.

والحق أن فكرةَ الإلحاد قد انهارت بانهيار الاتحاد السوفييتي الذي كان يقوم علىٰ الإلحاد كفكرٍ يميزه عن غيره من الأنظمة الاشتراكية غير الملحدة، ورغم كل وسائله انهار أمام عقيدة الإيمان بالخالق التي لم يستطع اقتلاعها من فطرة الناس فعادوا إلىٰ الإيمان بالخالق بعد أن ذهب عنهم كابوس الإلحاد وقهرُه.

معنى الإيمان والإسلام:

١٨ـ وفُسِّرَ الإيمـانُ بـالتصـديـقِ والنطـقُ فيـه الخُلْـفُ بـالتحقيـقِ
١٩ـ فقيلَ: شرطٌ كالعمل، وقِيلَ: بل شَطْرٌ والإسلامَ اشْرَحَنَّ بـالعَمَـلْ
٢٠ـ مثـالُ هـذا الحـجُّ والصـلاةُ كـذا الصيـامُ فـأَدْرِ والـزكـاة

الإيمان في اللغة هو التصديق، والتصديقُ هو الإذعان للحكم وقبوله والاعتراف به، فالإيمانُ مأخوذٌ من الأمن الذي هو ضد الخوف، لأن الذي آمن بحكمٍ أُمن جانبه من التكذيب به والإنكار له. فنحن نقول: (محمدٌ رسول الله) فنحكم بالرسالة لمحمدٍ ﷺ، فمن صدَّق وأذعن لهذا الحكم فهو مؤمنٌ به.

أما الإيمان في عُرْف أهل الشرع فهو ما ينجو صاحبه من الخلود في نار جهنم ويفوز بالجنة خالداً فيها أبداً ولو عُذِّب في النار فترةً، ولمعرفة المعنىٰ الدقيق لهذا الإيمان أعرِضُ صوراً من أحوال الناس المتوقَّعة، فبضدها تتميَّز الأشياء:

أ ـ الكافر إذا قال: (أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله) وكان قلبه مصدِّقاً بكل ما بلغه بصورةٍ قطعيةٍ أن محمداً ﷺ جاء به (وهو ما اشتهر بين أهل الإسلام أنه من الدين)، وكان راضياً بذلك مذعِناً له عازماً علىٰ العمل بما ينبني عليه: فهو مؤمنٌ في الدنيا والآخرة، فيعامَلُ في الدنيا معاملةَ المسلمين، تُؤكل ذبيحته ويُقتدىٰ به في الصلاة، وتُقبل شهادته علىٰ المسلم... إلخ، وهو مؤمنٌ في أحكام الآخرة فلا يخلد في النار إن دخلها، ويكون خالداً في الجنة بعد دخولها بفضل الله عز وجل، لأنه صدَّق بمضمون الشهادتين ونطق بهما.

ومثله من حُكِمَ بإسلامه تَبَعاً لأبويه أو أحدهما وكان مصدقاً راضياً بما جاء به النبي محمدٌ ﷺ.

ب ـ من نطق بالشهادتين ولم يصدِّق في قلبه بكل أو بعض ما جاء به محمدٌ ﷺ مما بلغه بصورةٍ قطعية (وهو ما اشتهر بين المسلمين أنه من الدين) فهو منافق؛ أي: تجري عليه أحكام المسلمين في الدنيا وأحكام الكافرين في الآخرة، فيكون خالداً في النار قد حرَّم الله عليه الجنة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، ومثلُه من حُكِمَ بإسلامه تبعاً لأبويه أو أحدهما وكان قلبه مكذباً بكل أو ببعض ما جاء به محمدٌ ﷺ مما اشتهر بين المسلمين.

جـ ـ مَن كان قلبه مصدِّقاً بما جاء به رسولُ الله ﷺ راضياً مذعناً له لكنه لم ينطق بالشهادتين لأنه أخرس فهو مؤمنٌ في الدنيا والآخرة سواء كان قبلَ ذلك كافراً أم مسلماً تبعاً لأبويه أو أحدهما، ومثله الكافرُ الذي صدق بقلبه وأذعن ورضيَ لكنه مات فجأةً قبل أن يتمكن من النطق بالشهادتين.

د ـ الكافر المصدِّق بما جاء به رسولُ الله ﷺ الراضي المطمئن المذعن لكنه لم ينطق بالشهادتين مع أنه طُلبَ منه النطقُ بهما فرفض وأبىٰ وليس له عذرٌ في هذا من خوفٍ ونحوه، فهو كافرٌ في أحكام الدنيا والآخرة.

هـ ـ بقي الكافر المصدِّق بما جاء به رسولُ الله ﷺ مما بلغه بصورةٍ قطعيةٍ (وهو ما اشتهر بين المسلمين)، لكنه لم ينطق بالشهادتين مع قدرته علىٰ ذلك فليس به خَرَسٌ ولا خوفٌ ولم يُطلَب منه النطقُ بالشهادتين، فهذا حكمُه في الدنيا حكمُ الكافرين ولا تجري عليه أحكام المسلمين، لأن شرطَ إجرائها علىٰ من كان كافراً النطقُ بالشهادتين، لكن هل هو مؤمنٌ في أحكام الآخرة فينجو من الخلود في النار ويفوز بالجنة؟

والمسألة كما ترىٰ نظريةٌ لا يترتب عليها أثرٌ عمليٌ في الدنيا، فما يُدْرينا بحال هذا وأمثاله؟ ولكن لا بد لنا من ذكر أقوال العلماء فيه، كما جاءت في كلام المؤلف والشارح، فقد اختلف العلماء في حكمه علىٰ أقوال:

أ ـ قال بعضُهم: هو مؤمنٌ ناجٍ عند الله تعالىٰ؛ لأن الإيمانَ هو التصديق، وهذا مصدقٌ بما جاء به محمدٌ ﷺ، وأما النطقُ بالشهادتين فهو شرطٌ لإجراء الأحكام الإسلامية الدنيوية عليه، وحجةُ هؤلاء:

١ ـ قول الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ووجهُ الدلالة أن الله تعالىٰ جعل القلبَ موضعَ الإيمان، وهذا قلبه مصدقٌ فهو مؤمن.

٢ ـ قول النبي ﷺ: «يا مقلِّبَ القلوب ثبِّت قلبي علىٰ دينك»، رواه الترمذي والحاكم، انظر «كشف الخفاء» (٢: ٣٩٠). ووجه الدلالة فيه أن رسولَ الله ﷺ سألَ الله تعالىٰ تثبيتَ الإيمان في القلب، فدل علىٰ أن القلبَ مكانُ الإيمان وعليه المعوَّل، أما الأعمالُ الصالحة ومنها النطقُ بالشهادتين فهي شرطُ كمالٍ للإيمان.

٣ ـ قولُ الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ووجه الدلالة أن الله تعالىٰ خاطبَ المؤمنين باسم الإيمان قبلَ أن يفرض عليهم الأعمالَ الصالحة، ومثلُ هذه الآية في كتاب الله تعالىٰ كثيرٌ، فدل علىٰ أن الإيمانَ شيءٌ والأعمالَ الصالحةَ شيءٌ آخر مكمِّلٌ له ومثبت.

٤ ـ قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: ١٠٧]، فعطف العملَ الصالحَ علىٰ الإيمان، والعطفُ يدل علىٰ التغاير أي أن العملَ الصالحَ غيرُ الإيمان، نقول: جاء زيدٌ وعمرو.

٥ ـ إجماع المسلمين علىٰ أنّ الإيمانَ شرطٌ لصحة العمل الصالح، والشرطُ غير المشروط، فدل أيضاً علىٰ أنّ الإيمانَ شيءٌ والعملَ الصالحَ شيءٌ آخر.

ب ـ وقال بعض العلماء: الإيمان هو التصديق، ولكن النطق بالشهادتين شرطٌ لصحته، فمَن لم ينطق بهما مع القدرة وانتفاء الموانع فإيمانُه غيرُ صحيحٍ في الدنيا والآخرة لعدم توفر الشرط وهو النطق بالشهادتين.

جـ ـ وقال بعضُهم: الإيمان هو التصديق، لكنّ النطقَ بالشهادتين جزءٌ من التصديق؛ أي: ركنٌ من أركان الإيمان، ولعل حجتهم أن الإيمان هو التصديق بالقلب لكن مع الرضىٰ والقبول والإذعان، فما معنىٰ أن يكونَ مصدِّقاً بقلبه ثم لا ينطق بالشهادتين مع القدرة علىٰ ذلك وانتفاء الموانع؟ إن هذا دليلٌ علىٰ العناد، وقد شهدَ الله تعالىٰ علىٰ المعاندين بالكفر، وهم الذين يقرّون في قلوبهم بنبوة محمدٍ ﷺ، ولكنهم لا يعترفون بها بألسنتهم، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وخلاصة القول: إن العلماءَ منهم مَن قال: الإيمان هو التصديق، والنطقُ بالشهادتين شرطٌ لإجراء الأحكام الدنيوية.

ومنهم من قال: الإيمانُ هو التصديق، والنطقُ بالشهادتين شرطٌ لصحة الإيمان.

ومنهم من قال: الإيمان هو التصديق، والنطق بالشهادتين ركنٌ في الإيمان؛ أي: جزءٌ منه.

ويلاحَظُ اتفاقُ القول الثاني والثالث في النتيجة، لأن عدمَ توفر الشرط يؤدي إلىٰ البطلان، وكذلك عدم توفر الركن.

وهذه الأقوالُ كلها تتفق علىٰ أن الأعمالَ الصالحة ـ عدا النطق بالشهادتين ـ هي شرطُ كمالٍ للإيمان، فمن صدَّق بقلبه ونطق بلسانه بالشهادتين مؤمنٌ ولو لم يعمل عملاً صالحاً، لكن لا يخفىٰ أنه علىٰ خطرٍ عظيم، وإذا كان النبي ﷺ يقول: «يا مقلِّبَ القلوب ثبِّت قلبي علىٰ دينك» فماذا يُقال في هذا الذي لم يعمل عملاً صالحاً؟! لكنّ البحوثَ النظريةَ شأنُها التدقيق.

بقيَ أن نعلمَ أن هذه الأقوالَ الثلاثةَ هي مذهبُ جمهور المحقِّقين من الأشاعرة والماتُرِيدية، وهناك مذاهبُ أخرىٰ نذكرها كما ذكرها العلماء للعلم بها:

١ ـ مذهب الكّرامية الذين قالوا: الإيمان هو إقرار اللسان بالشهادتين، فمن أقرَّ بهما فهو مؤمنٌ دون نظر إلىٰ ما في القلب.

٢ ـ مذهب الخوارج وبعض المعتزلة: أن الإيمان هو الطاعاتُ مطلقاً سواء أكانت فروضاً أم كانت نوافل.

٣ ـ مذهب الجُبّائي وأكثر معتزلة البصرة: أن الإيمان هو الطاعاتُ المفترضة دون النوافل.

٤ ـ مذهبُ جماعةٍ من أهل السنة والمعتزلة والكثيرِ من أهل الحديث: أنّ الإيمان هو التصديق بالجَنان؛ أي: القلب، والإقرارُ باللسان، والعملُ بالأركان؛ أي: الجوارح، فمن صدَّق بقلبه وأقر بلسانه وعمل بأحكام الإسلام فهو المؤمن.

ومراجعة هذه الأقوال وأدلتها مفيدٌ ليكون إيمان المؤمن صحيحاً لدىٰ جميع المسلمين، والقولُ الأخير هو الأحوطُ والعاملُ به مجمَعٌ علىٰ إيمانه.

معنىٰ الإسلام:

في الحديث الصحيح الذي رواه مسلمٌ أن جبريلَ عليه السلام سأل النبيَّ ﷺ علىٰ مسمع من الصحابة عن الإيمان فقال: «أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَرَ خيره وشره»، ثم سأله عن الإسلام فقال: «أن تشهدَ أن لا إلٰهَ إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة وتؤتيَ الزكاةَ وتصومَ رمضانَ وتحُجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلاً»، ثم سأله عن الإحسان فقال: «أن تعبُدَ اللهَ كأنكَ تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراكَ» الحديث، فهل الإيمان شيءٌ والإسلام شيءٌ آخر؟

وقبلَ الإجابة علىٰ هذا السؤال نقول: اتفق العلماءُ علىٰ أنه لا يوجد في الحقيقة مؤمنٌ ليس مسلماً ولا مسلمٌ ليس مؤمناً، فكل مؤمنٍ عندَ الله هو مسلم، وكل مسلمٍ عندَ الله هو مؤمن، وقد يُحكم علىٰ الإنسان أنه مسلمٌ بحسب الظاهر وهو كافرٌ عند الله، وذلك هو المنافق، وقد يُحكم علىٰ الإنسان أنه كافرٌ بحسب الظاهر وهو مؤمنٌ عند الله، وذلك هو المؤمن الذي يكتم إيمانه، لكن هذا في الظاهر، والمقصودُ في هذا البحث ما في حقيقة الأمر؛ أي: عند الله تعالىٰ.

إذاً المقصود بالبحث: هل الإيمان جانبٌ من صفات الإنسان والإسلام جانبٌ آخر؛ أم أن الإسلامَ والإيمان شيءٌ واحدٌ يعبر عنه بهذا مرة وبهذا مرة أخرىٰ بحسب المقام؟

اختلف العلماء في هذا علىٰ مذهبين:

١ ـ فذهب جمهور الأشاعرة إلىٰ أن الإيمانَ شيءٌ والإسلام شيء آخر.

٢ ـ وذهب جمهور الماتريدية والمحققون من الأشاعرة إلىٰ أن الإسلامَ والإيمان شيءٌ واحد، بمعنىٰ: أن اللفظين يدلان علىٰ حقيقةٍ واحدة.

الأدلـة:

استدل الفريق الأول بما يلي:

أولاً: قولُ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآيةَ، ووجه الدلالة أن الله تعالىٰ عطف المؤمنين علىٰ المسلمين، والعطفُ يفيد التغاير، يقال: جاء أبو بكرٍ وعمر، ولا يقال: جاء عمرُ وأبو حفص، لأن أبا حفصٍ هو عمر، فدل علىٰ أن الإسلامَ شيءٌ والإيمان شيءٌ آخر.

ثانياً: حديث جبريل المتقدم، فقد سأل عن الإيمان وسأل عن الإسلام، وأجابه الرسول ﷺ بجوابين مختلفين، فدل علىٰ أنهما متغايران في نظر جبريلَ والنبيِّ ﷺ، وكفىٰ بها حجةً. ويُلاحظ في الجواب أن أركانَ الإيمان تتعلق بالقلب ولا يطلع عليها إلا الله تعالىٰ، وأركانَ الإسلام تتعلق بالجوارح ويمكن الاطلاع عليها.

ثالثاً: اللغة فإن معنىٰ الإيمان غير معنىٰ الإسلام، فالإيمان: هو التصديق كما سبق، والإسلام: هو الخضوع والانقياد.

واستدل الفريق الثاني بما يلي:

أولاً: قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، ووجه الدلالة: أن المرادَ بالمؤمنين والمسلمين في الآية لوطٌ عليه السلام والمؤمنون من أسرته، فلما عبّر عن الشيء الواحد بلفظين دلَّ علىٰ اتحاد المراد من اللفظين، ويمكن الجواب علىٰ هذا: بأننا متفقون علىٰ أن كل مسلمٍ مؤمنٌ، والخلافُ في حقيقة الإيمان والإسلام.

ثانياً: الاتفاق علىٰ أنه لا يوجد مؤمنٌ غيرُ مسلمٍ ولا مسلمٌ غيرُ مؤمن، فكل مَن حُكم له بالإسلام حُكم له بالإيمان، والعكسُ صحيحٌ، ويُجاب علىٰ هذا أيضاً: بأن الخلافَ ليس في هذا بل في الجانب الذي يُطلق عليه اسمُ «إسلام» من صفات الإنسان والجانب الذي يُطلق عليه اسمُ «إيمان».

ومع أن الخلافَ لا تترتب عليه نتيجةٌ عمليةٌ لأن المسلم هو المؤمن والمؤمن هو المسلم بالاتفاق كما تقدم فينبغي أن نلاحظ ما سبق بيانه من أن الناجيَ عند الله تعالىٰ هو من صدَّق بكل ما جاء به محمدٌ ﷺ ورضيَ به وأذعن له، والذي جاء به محمدٌ ﷺ منه ما يتعلق بالقلب ومنه ما يتعلق بالجوارح، أما ما يتعلق بالقلب وهو ما سماه جبريل عليه السلام إيماناً فالواجبُ الجزم به والتصديقُ التام، وأما ما يتعلق بالجوارح وهو ما سمّاه جبريلُ عليه السلام إسلاماً فالواجبُ أيضاً التصديقُ بوجوبه والرضا به والإذعان له سواءٌ عمل به أم لا، إلا النطق بالشهادتين فقد سبق بيانُ حكمه، ولذا نجد الفقهاءَ عند ذكر الصلاةِ والزكاةِ وغيرها من الواجبات المشهورة يقولون: مَن تركها جحوداً لوجوبها فقد كفر، وعند ذكر المحرمات المشهورة يقولون: مَن فعله مستحِلاً فقد كفر، ولذا لا نكفِّر بترك الواجبات مع اعتقاد وجوبها، ولا بفعل المحرمات مع اعتقاد حرمتها كما سيأتي إن شاء الله.

فتكون النتيجةُ أن المؤمنَ والمسلمَ شيءٌ واحد، لكنّ الإيمان جانبٌ من حياته والإسلامَ جانبٌ آخر، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وبناءً علىٰ ما تقدم فالإسلام هو العمل الصالح؛ أي: امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمراد: الإذعانُ لتلك الأحكام وعدمُ ردها سواءٌ عمل بها أم لم يعمل، ومثالُ العمل الصالح: الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها من شرائع الإسلام التي تكفّلت كتبُ الفقه بشرحها، ومن أراد النجاةَ عند الله تعالىٰ

فليؤد الواجباتِ وليترك المنهياتِ وليستغفرَ من المخالفات، ويقول: يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي علىٰ دينك.

هل يزيد الإيمان وينقص؟

٢١ـ ورُجِّحَتْ زيادةُ الإيمانِ بما تَزِيدُ طاعةُ الإنسانِ
٢٢ـ ونقصُهُ بنقصِها، وقيلَ: لا وقيلَ: لا خُلْفَ، كذا قد نُقِلا

تقدم قريباً أن الإيمانَ هو التصديقُ الجازم بكل ما اشتهر بين المسلمين أنّ رسولَ الله محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قد جاء به، فهل يزيد هذا الإيمان وينقص؟

للعلماء في ذلك أقوال:

١ ـ ذهب جمهورُ الأشاعرة إلىٰ أن الإيمانَ يزيد بسبب زيادة الطاعات وينقص بسبب نقصها، والطاعاتُ هي فعلُ المأمور به واجتنابُ المنهي عنه.

٢ ـ وذهب أبو حنيفةَ رحمه الله ومَن وافقه من العلماء إلىٰ أن الإيمانَ لا يزيد ولا ينقص.

٣ ـ وقال بعضُ العلماء: الإيمان يزيد ولا ينقص.

٤ ـ وقال آخرون: إن الخلافَ لفظيٌ.

الأدلـة:

أ ـ استدل القائلون بأن الإيمانَ يزيد وينقص بما يلي:

١ ـ قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، فقد نصّت الآيةُ علىٰ زيادة الإيمان بسبب سماع القرآن الكريم، وهو من أعظم الطاعات، ومثلُ هذه الآية قولُ الله تعالىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ

إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقولُه تعالىٰ: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقولُه عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وهذه الآيات كلها تنصُّ علىٰ زيادة الإيمان، وما كان قابلاً للزيادة فهو قابلٌ للنقص.

٢ ـ قولُ النبي ﷺ حين سُئل أيُّ المؤمنين أكمل إيماناً: «رجلٌ يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، ورجلٌ يعبد الله في شِعْبٍ من الشِّعاب قد كفىٰ الناسَ شرَّه»، رواه البخاري ومسلم. وقولُه عليه الصلاة والسلام: «لو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجحَ به»، رواه إسحاق بن راهويه والبيهقي في «الشُّعَب»، انظر: «كشف الخفاء» (رقم ٢١٣٠). وقولُه ﷺ: «يدخلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ، ثم يقول الله تعالىٰ: أخرِجُوا من النار من كان في قلبه مثقالُ حبةٍ من خردل من إيمان. .» الحديث، رواه البخاري ومسلم. وهذه الأحاديث دليلٌ علىٰ تفاوت إيمان المؤمنين.

٣ ـ قال الإمام البخاري: «لقيتُ أكثر من ألف رجلٍ من العلماء بالأمصار فما رأيتُ أحداً منهم يختلف في أن الإيمانَ قولٌ وعمل، ويزيدُ وينقص». ورأيُ السلف حجةٌ في هذا الموضوع.

٤ ـ لو لم تتفاوت حقيقةُ الإيمان لكان إيمانُ عامةِ المؤمنين بل الفَسَقة منهم مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهذا باطلٌ لا يقول به أحدٌ، فدل علىٰ تفاوت الإيمان.

(ب) ـ وأما أصحابُ المذهب الثاني القائلون بأن الإيمانَ لا يزداد ولا ينقص، فاحتجوا بالعقل وقالوا: الإيمانُ هو التصديق الجازم الذي بلغ حدَّ الإذعان والقبول، والإنسانُ إما مصدقٌ وإما غيرُ مصدق، ولذا لا يقبل الإيمانُ الزيادةَ والنقص.

وأما قولُ الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢]، فالمرادُ: زاد ما يؤمنون به، وهو الآياتُ الجديدةُ التي نزلت، فالزيادةُ هنا بسبب زيادة ما يؤمنون به من آياتِ الله تعالىٰ.

جـ ـ وأما الذين قالوا: الإيمانُ يزيد ولا ينقص فحجتهم أن الإيمان: **قولٌ**، وهو النطق بالشهادتين: وهذا لا يزيد ولا ينقص، **وعملٌ** صالح، وهذا يزيد وينقص، **واعتقادٌ**، وهو يزيد ولا ينقص، فإذا نقصَ ذهب؛ أي: إذا حصل الشك فيما اعتقد فقد ذهبَ اليقينُ وذهب الإيمان، لأن الإيمانَ هو التصديق الجازم الذي لا يخالطه شكٌّ، لكن هذا يعارض ما نُقل عن السلف الصالح ويخالف الأدلةَ السابقة، فالاعتقادُ بها أولىٰ.

د ـ وأما الذين قالوا الخلافُ لفظيٌّ فحجتهم أن الإيمانَ هو التصديق، وكمالُه بالعمل الصالح، فالذين قالوا الإيمانُ لا يزيد ولا ينقص نظروا إلىٰ أصل الإيمان وهو التصديق، والإنسانُ إما مصدقٌ وإما غير مصدق، والتصديقُ لا يزيد ولا ينقص، وعلىٰ هذا تُحمَل أدلتهم. والذين قالوا الإيمانُ يزيد وينقص نظروا إلىٰ ما به كمالُ الإيمان، وهو العملُ الصالح، وهذا يزيدُ وينقص بلا شك، وهذا نوعٌ من التوفيق بين القولين المشهورين.

والراجحُ أن الإيمانَ يزيد وينقص، بدليل ما تقدم من الآيات والأحاديث وأقوالِ السلف الصالح، والمعقول أيضاً، والإنسانُ لو تأمل في نفسه لوجد أن تصديقَه ببعض القضايا أقوىٰ من تصديقه بالبعض الآخر، بل إن تصديقَه بالقضية الواحدة يختلف باختلافِ الأحوال، فكل مسلمٍ يصدق بوجود مكةَ المكرمةِ والمدينة المنورة والكعبة المشرفة والقبر الشريف والحجر الأسود.. إلخ، لكن ليس الإيمانُ بها عند من رآها كالإيمان بها عند من لم يَرَها.

وقد شبّه العلماءُ الإيمانَ بالغَرْسة الصغيرة، إذا سقيتها الماءَ واعتنيت بها كبرت وأينعت، وإن تركتها بلا ماءٍ ولا عنايةٍ ضعفت ويبست وماتت، وكذلك الإيمانُ موجودٌ بالفطرة، لكنه يقوىٰ بالعمل الصالح ويضعف بالمعاصي، ولذا تجد القرآنَ الكريمَ يقرن بين الإيمان والعمل الصالح فيقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وليس إيمانُ الصالحين كإيمان فَسَقة المسلمين، حتىٰ قالوا: المعاصي بريدُ الكفر، أي قد تؤدي إلىٰ الكفر، وذلك عندما يستحِلُّها فاعلها، نسأل الله العافية.

* * *

مباحث علم التوحيد ثلاثةُ أقسام

ما تقدم من المسائل يعتبر مقدمةً في علم التوحيد، أما المباحثُ المقصودة في هذا العلم فتنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

إلٰهيات، ونبوات، وسمعيات.

فالإلٰهيات: هي المسائل التي يُبحَث فيها عن صفات الله تعالىٰ وما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه عز وجل.

والنبوات: هي المسائل المتعلِّقة بالأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام وما يجبُ وما يجوز وما يستحيل في حقهم عليهم السَّلام.

والسمعيات: هي الأمور الغيبية التي يجبُ الإيمان بها ولا تُعرَف إلا من طريق الوحي الذي ينزل علىٰ الأنبياء ويعبِّرون عنه بكلامٍ نسمعه منهم، وهذا لا يعني أن الإلٰهيات والنبوات لا يُستَدَلُّ عليها بنصوص الكتاب والسنة؛ ولكن المقصودَ أن الإلٰهيات والنبوات يُستدل عليها بالعقل والنقل، والسمعيات يستدل عليها بالنقل، ولولاه لما عُرفت، وقد أشار المؤلف إلىٰ هذه المباحث بقوله:

فكُلُّ مَنْ كُلِّفَ شَرْعاً وجبا ... عليه أن يَعرِفَ ما قد وَجَبا
للهِ والجائِزَ والممتَنِعا ... ومثلَ ذا لرُسْلِهِ فاسْتَمِعا

* * *

الإلـٰهيات

الإلٰهيات

الصفات الواجبة لله تعالىٰ:

٢٣ـ فواجبٌ له الوجودُ والقِدَمْ كـذا بقـاءٌ لا يُشـابُ بـالعَـدَمْ

في بحث الإلٰهيات يتحدث العلماءُ عن صفات الله تعالىٰ، وهي صفاتٌ يقتضي العقلُ السليم أن يتصفَ بها الله عز وجل، ثم جاء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فصرَّحا بها، ولذا نجد الدليلَ عليها من النقل والعقل، وعلماءُ التوحيد يقسِّمون هذه الصفات إلىٰ أربعة أقسام:

الأولىٰ: نفسية، وهي التي تدل علىٰ نفسِ ذاتِ الله تعالىٰ، فوصفُهُ بها عز وجل يدل علىٰ ذاته من غير ملاحظة شيءٍ آخر، وهي صفة الوجود، فهي تدل علىٰ ذاته تبارك وتعالىٰ فقط، بينما صفة السمع تدل علىٰ ذاتٍ لها سمعٌ، وكذا صفة البصر تدل علىٰ ذاتٍ تُبصِر.

الثانية: صفاتٌ سلبية، وهي صفاتٌ تدل علىٰ سلبِ أمرٍ لا يليق بالله تعالىٰ، ومنها صفةُ القِدَم، ومعناها سلبُ الحدوث، والبقاء، ومعناه: سلبُ الفَناء.

الثالثة: صفاتُ المعاني، وهي كل صفةٍ قائمةٍ بموصوف موجبةٍ له حكماً، كالقدرة، فهي أمرٌ معنوي، وهي من صفات الله تعالىٰ، واتصافه بها عز وجل يقتضي أنه قدير، والسمع أمرٌ معنوي، وهو من صفات الله عز وجل، واتصافه بها يقتضي أنه سميع.

الرابعة: صفاتٌ معنوية، وهي صفاتٌ ثبتت لله تعالىٰ نتيجةَ اتصافه بصفات المعاني، فعندما ثبتت نسبةُ القدرة إليه عز وجل اقتضىٰ أنه قديرٌ تبارك وتعالىٰ، ولما ثبتت نسبةُ السمع إليه عز وجل اقتضىٰ أنه سميع.

وأنت ترىٰ أن هذه التقسيمات ليست من صلب العقيدة، ولكنها ثمرةُ البحوث المنطقية العقلية في قضايا التوحيد، فالمكلَّفُ يجب أن يعتقدَ أن الله تبارك وتعالىٰ موجودٌ وواحدٌ ومتصفٌ بالقدم والبقاء وله قدرةٌ وسمعٌ وبصر، وهو قديرٌ وسميعٌ وبصيرٌ، ولا يجب عليه أن يعرفَ ما الذي يُعدُّ من هذه الصفات نفسياً وما الذي يُعد سلبياً وما الذي يُعد من صفات المعاني أو الصفات المعنوية، وليس لي ولا لغيري أن يقلِّلَ من شأن بحوث علمائنا الأجلاء؛ لكن أريدُ أن أبيّن أنه لا ينبغي أن تكون هذه التقسيمات عائقاً عن فهم ما يجب اعتقادُه بعدَ أن أصبح علمُ المنطق منسياً اليومَ مع أنه علمٌ مهم.

ولنعد الآن إلىٰ بيان الصفات الواجبة لله تعالىٰ، أي التي يجب أن نعتقدَ أن الله عز وجل متصفٌ بها:

القسم الأول: من الصفات الواجبة لله تعالىٰ: الصفة النفسية:

وهي صفةٌ واحدةٌ هي صفة الوجود الذاتي، بمعنىٰ أن وجوده تعالىٰ واجبٌ عقلًا لذاته عز وجل وليس لعلةٍ أو سببٍ آخر، وتوضيحُ هذا الكلامُ يحتاج إلىٰ بيان أمرين:

الأول: معنىٰ واجب الوجود، وقد سبق أن الواجبَ ما لا يَتصوَّرُ العقلُ عدمَه بحالٍ من الأحوال، لا في السابق ولا في الحاضر ولا في اللاحق، والله تعالىٰ لا يتصور العقلُ عدمَ وجوده، فهي صفةٌ خاصةٌ بالله تعالىٰ، فنحن نتصور وجودَ الكون من غير البشر أو من غير الجبال أو من غير السمٰوات. . . ، لكن لا نتصور وجودَ الكون من غير وجود الله تعالىٰ، فالكونُ عاجزٌ عن خَلْقِ

نفسه، وبعضُه عاجزٌ عن خلق بعض، فلا بد له من خالق، وخالقه هو الله تعالىٰ، بل إن كل ذرةٍ في الكون تُعد أمراً معجِزاً يحتاج إلىٰ موجد، ولا يقدر علىٰ خلقه إلا الله تعالىٰ، فإما أن نقول إن الكونَ غير موجود، وهذا جنونٌ وباطل، أو نقول موجودٌ ويحتاج إلىٰ موجد، وموجده هو الله تعالىٰ، وقد سبق شرحُ هذا بصورةٍ أوسع.

الثاني: أن الله تعالىٰ لا يستند وجوده إلىٰ علة، والمقصودُ بالعلةِ السببُ، فنحن إذا رأينا إنساناً قلنا: سببُ وجوده أبواه، وإذا رأينا شجرةً قلنا: سببُ وجودها البذرة، والأبوان والبذرة يرجع وجودُهما لسببٍ آخر، وهكذا.

وفي النهاية نقول: علةُ وجودِ أصل الموجودات هو الله تعالىٰ، فالله تعالىٰ خلق أصل الخلق ثم جعل خلقه أطواراً، طَوراً بعد طَور، أما الله تعالىٰ فوجوده ليس له علةٌ، لأننا لو قلنا لوجوده علةٌ لاحتاجت العلة إلىٰ علة وهكذا إلىٰ ما لا نهاية، وهذا باطل، ولا بد أن نجزم بوجودٍ لا يستندُ إلىٰ علة، وهو وجود الله تعالىٰ، وهذا هو الفارقُ بين وجود الله تعالىٰ ووجود غيره، فالله تعالىٰ موجود، وغيره يُقال عنه موجود، لكن الفارق بين الوجودين أنّ وجودَ الله تعالىٰ لذاته ووجودَ غيره لغيره، أي بسبب غيره. وقولُنا: إن الله تعالىٰ واجبُ الوجود يعني أن وجودَه ليس له علةٌ.

وإذا كان العقل يصعبُ عليه أن يتصورَ وجودَ موجودٍ بلا علة فسبب صعوبة تصوره لذلك أنه اعتاد علىٰ وجود علةٍ لكل ما يُحِسُّ به، وذاتُ الله تعالىٰ غيرُ محسوسةٍ ولا ينطبق عليها قانونُ المحسوسات، ثم إن العقلَ قاصرٌ لا يحيط بكل شيء، فلا يصلح حَكَماً في كل قضية، فالعقلُ لا يحيط ببداية الأعداد ولا بنهايتها، ولا ببداية الزمن ونهايته، ولا بنهاية الجهات الست كما سبق بيانُ هذا الأمر.

فالإقرارُ بوجود الكون يقتضي الإقرارَ بوجود خالقٍ للكون ليس لوجوده علةٌ ولا سبب، ووجوده واجبٌ لذاته، وهو الله تعالىٰ.

وما أعظمَ القرآنَ الكريمَ عندما عبَّر عن هذا بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وبقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، والخلقُ من غير خالقٍ مستحيلٌ، ولا أحدَ يقول: إنه خلقَ نفسه، إذا لا بد من خالقٍ لم يُخلَق، وهو الله عز وجل.

القسم الثاني: من الصفاتِ الواجبةِ لله تعالىٰ: الصفاتُ السلبية:

وهي التي تدل علىٰ سلبِ أمرٍ لا يليقُ بالله تعالىٰ، ومنها:

١ ـ القِدَم:

ومعناه، أن وجودَ الله تعالىٰ غيرُ مسبوقٍ بعدم، فنحن نقول: هذا كتابٌ قديم، لكن مهما كان عمره فقد كان قبل ذلك غيرَ موجودٍ ثم وُجد، ونقول هذا بناءٌ قديم، لكن مهما كان تاريخُ بنائه فقد كان قبلَ ذلك غيرَ موجودٍ ثم وُجد، وليس هذا هو المعنىٰ المقصودَ في حق الله تعالىٰ؛ لأنه يدل علىٰ وجودٍ بعد عدم؛ أي: حدوث.

ونقول: الكعبةُ أقدم من المسجد الأقصىٰ، بمعنىٰ أنها بُنِيَت قبلَه، ونقول: آدمُ عليه السَّلام أقدمُ من نوحٍ عليه السلام؛ أي: أنه كان قبله، وهذا المعنىٰ أيضاً غيرُ مرادٍ في حق الله تعالىٰ، لأنه أيضاً يدل علىٰ وجودٍ بعد عدم؛ أي: حدوث.

أما وجودُ الله تعالىٰ فغير مسبوقٍ بعدم، لأنه غيرُ حادث، إذ لو كان قبلَ وجوده معدوماً لاحتاج إلىٰ موجد، واحتاج موجدُه إلىٰ موجد، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية، وهذا مستحيل، وهذه العبارة هي معنىٰ قولهم: لو كان حادثاً

لاحتاج إلىٰ محدِث، واحتاج محدِثُه إلىٰ محدث، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية، وهذا مستحيلٌ، وقد سبق بيانُ ذلك وأنه لا مفرَّ من أحد أمرين: إما أن نقولَ: الكونُ غير موجود، وهذا باطلٌ، أو نقولَ: موجودٌ وموجدُه لا يحتاج إلىٰ موجِد، وهو الله سبحانه وتعالىٰ، وقولُنا: موجودٌ لذاته وواجبُ الوجود يعني: أنه قديمٌ، لكن العلماء يذكرون الوجودَ والقِدَمَ للإيضاح.

٢ ـ البقاء:

ومعناه أن وجودَ الله تعالىٰ يستحيل أن يلحقه عدمٌ، أي يستحيل أن يأتيَ بعده عدمٌ يُزيله. فأنت تقول: أنا باقٍ في المسجد إن شاء الله حتىٰ تَطلُعَ الشمس، أي إذا طلعت الشمسُ خرجتَ من المسجد وانقطع وجودُك فيه، وتقول: هذا البناءُ باقٍ إلىٰ ما شاء الله؛ أي: فإذا شاءَ الله انقطع وجوده ولحقه العدم، وتقول: فلانٌ مسافرٌ وأنا باقٍ؛ أي: بعدَ سفره، لكنّ بقاءك ينقطع بالسفر أو الموت.

وكل هذه المعاني للبقاء غيرُ مرادةٍ في حق الله تعالىٰ، بل المرادُ أنّ وجودَه يستحيل أن يلحقه عدمٌ يقطعُه.

وتقول: أهلُ الجنة باقون في الجنة إلىٰ الأبد؛ أي: إلىٰ ما لا نهاية، وهـذا صحيحٌ، لكنَّ بقاءهم في الجنة ليس لذاتهم بل بسبب إرادة الله، لذلك قال الله تعالىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٨]؛ أي: غيـرَ منقطع، فبقاؤهم في الجنة ليس لذاتهم، أما بقـاء الله تبارك وتعالىٰ فهو لذاته، لأنه جلَّ جلالُه قديمٌ، وما كان قديماً بالمعنىٰ الذي ذكرناه يستحيلُ عليه العدم، فوجودُه تعالىٰ لذاته، وقِدَمُه لذاته، وبقاؤه لذاته سبحانه وتعالىٰ، وليس هذا لغيره، فغيرُه وجودُه لغيره،

فهو حادث، والحادث لا يكون قديماً ولا باقياً لذاته، ثم إن بقاء ما سوىٰ الله تعالىٰ يُلاحَظُ فيه الزمن، والله تعالىٰ خالقُ الزمان والمكان، فوجودُه سابقٌ لهما، فلا يَحتاج إليهما، ولا يُلاحظان في صفاته، فهي قديمةٌ أيضاً.

٣ ـ المخالفة للحوادث:

٢٤ـ وأنّــه لِمَــا يَنــالُ العَــدَمُ   مُخــالِــفٌ بُــرهــانُ هــذا القِــدَمُ

الحوادثُ كل ما سوىٰ الله تعالىٰ، فقد تقرر سابقاً أن ما سوىٰ الله تعالىٰ حادثٌ ومخلوقٌ لله عز وجل، فذاتُ الله تعالىٰ ليست كذاتِ أي شيءٍ من المخلوقات، وكل صفةٍ من صفاته ليست كصفة أي شيءٍ من المخلوقات، وأفعاله تعالىٰ ليست كأفعال أي شيءٍ من المخلوقات، قال الله تعالىٰ عن نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، فبعض الحوادث تُوصَف بأنها أجسامٌ مؤلفةٌ من عناصر وذرات وخلايا ولها أطوالٌ وأوزان وألوان، وكل الحوادث محدَّدةٌ بالأزمنة والأمكنة، وهذه الصفاتُ كلها مستحيلةٌ علىٰ الله تعالىٰ، لأن كل هذه الذواتِ والصفاتِ حادثةٌ مخلوقة، والله تعالىٰ قديمٌ، والقديم لا يشبه الحادث.

والإنسانُ إذا لم يحسَّ بشيءٍ وهو عالمٌ بوجوده تخيّله، لكن خياله لا يتجاوز المحسوسات وإن ركَّبها بطريقةٍ غير مألوفة. مثال ذلك أن البعضَ سمع بالبُراق الذي ورد ذكرُه في حديث الإسراء، لكنه لم يره فتصوّره فرساً لها أجنحةٌ ولها وجهُ امرأةٍ وعلىٰ رأسها تاجٌ مرصَّع، وهذه الصورة غير موجودةٍ في الكون لكنّ أجزاءها موجودة، فجسمُ الفرس موجود، والأجنحةُ موجودة، وكذا وجهُ الإنسان والتاجُ، فرجع الأمر إلىٰ أجزاء من المحسوسات تدركها الحواس، والله تعالىٰ لا تدركه الحواس، فإذا أراد الوهمُ أن يتصوّره

فقد أخطأ، لأنه شبّهه بالحوادث، والله تعالىٰ يقول عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ولذا قال العلماء: «كل ما خطرَ ببالك فاللهُ بخلاف ذلك»، لأنه لن يخطرَ ببالك إلا محسوسٌ حادث، وقالوا: «تركُ الإدراك إدراكٌ، والبحثُ عن ذاتِ الله إشراكٌ»، لأن الذي يُبحَثُ عن ذاته بالحواس والوَهْم هو المحسوس الحادث، ومَن اعتقد أن الله تعالىٰ يُشبه المحسوساتِ فقد اعتقد بإلٰهٍ سوىٰ الله فوقع في الشرك.

٢٥ـ قيامُهُ بالنَّفْسِ وَحْدانِيّهْ مُنَزَّهاً أوصافُهُ سَنِيَّهْ

٢٦ـ عَنْ ضِدٍّ أَوْ شِبْهٍ شَرِيكٍ مُطلَقا ووالدٍ كذا الوَلَدْ والاصْدِقا

٤ ـ قيامُه بالنفس:

أي استغناؤه تعالىٰ عن غيره وعدمُ حاجته إلىٰ المحل والمخصِّص، فالعلماء يقسمون المحسوسات إلىٰ قسمين: ذوات، وأعراض، فإذا قلنا: (هذا كتابٌ أخضر مستطيلٌ) فالكتابُ ذاتٌ، والخُضْرةُ عَرَض، والاستطالةُ عَرَض، ونحن لا نتصوَّر ذاتاً إلا ولها أعراضٌ من لونٍ وطولٍ وسُمْك وحجم ومكان وزمان... إلخ، ولا نتصوَّر أعراضاً إلا بذاتٍ تقومُ بها الأعراض، فلا نتصور خُضرةً إلا وهي موجودةٌ في شيءٍ أخضر، ولا نستطيع تصورها مجردةً عن ذاتٍ تقوم بها، ولا نتصور طولاً إلا بشيء طويل، ولا يُتصوَّر الطولُ مجرداً عن ذاتٍ لها طول، وهكذا قُل في كل الأعراض من حركةٍ وسكون وقُربٍ وبُعد... إلخ، والذواتُ والأعراضُ تحتاج إلىٰ موجد، وهذا كلُّه مستحيلٌ علىٰ الله تعالىٰ؛ فلا يحتاج إلىٰ شيءٍ يقومُ به كالأعراض ولا يحتاج إلىٰ مُوجِدٍ كالحوادث من ذواتٍ وأعراض؛ لأنه تعالىٰ قديمٌ وهذه كلُّها حوادث، وهو مستغنٍ عنها قبلَ وجودها وبعدَ وجودها.

ثم إن الأعراضَ لا تُوصَفُ بالقدرة ولا بالسمع ولا بالبصر ولا بالإرادة، والله تعالىٰ قديرٌ سميعٌ بصيرٌ مريدٌ عالمٌ متكلِّمٌ، وتقدَّم أنّ الله تعالىٰ قديمٌ لا يحتاج إلىٰ موجد.

وهذا البيان من علمائنا يبيّن ضلالَ الذين يصفون الله تعالىٰ بما يُوصَف به خَلْقُه، فيتصورونه قائماً ببعض مخلوقاته من شمسٍ أو قمرٍ أو إنسان. . . إلخ، ولذا كان الإسلامُ دينَ التنزيه المطلَقِ لله تعالىٰ، يعبِّرُ عن ذلك قولُ الله تعالىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠]؛ أي: تنزَّهَ عمّا يَصِفُه الواصفون له بما يجعله شَبِيهاً بمخلوقاته، وتنزّه عما يتوهّمه المتوهِّمون، ومن الملاحَظِ التقاربُ بين معنىٰ الوجود والقِدَمِ والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس، وعلماؤنا يؤكِّدون علىٰ كل واحدةٍ من هذه الصفات لأهميتها ولا يكتفون بذكر ما يوافقها في معناها.

٥ ـ الوحدانية:

يُعرَفُ الإسلام بأنه دينُ التوحيد، وهو دين جميع الأنبياء من قبل، ولكن الديانات السابقةَ حُرِّفَت وحفظَ اللهُ الإسلامَ من التحريف، ولذا نجد في القرآن آياتٍ كثيرةً تؤكد علىٰ التوحيد كقول الله تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وقولِه عز وجل: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، ومعنىٰ التوحيد أنه لا يوجد إلٰهٌ إلا الله، ولا يوجد شيءٌ مثل الله تعالىٰ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾، وهذه وحدةُ الذات، ولا يوجد لغير الله صفاتٌ كصفاتِ الله عز وجل، وهذه وحدةُ الصفات، وليس لغير الله تعالىٰ فعلٌ كفعله جل جلاله، وهذا ما يسمونه وحدةَ الأفعال، فالله عز وجل واحدٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، وهذا الذي يعبِّرون عنه بوحدة الذات والصفات والأفعال.

أما الأدلة علىٰ هذه الوحدة فكثيرةٌ منها:

١ ـ أن الذين ادُّعيت لهم الألوهية لا توجد فيهم صفاتُ الألوهية، وهي الخَلْقُ من العدم والقدرةُ علىٰ كل شيء، قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، فبطلَ ادعاءُ الشريك والمثيل لله تعالىٰ وثبتت حقيقةُ التوحيد.

٢ ـ أن وحدةَ الأثر تدل علىٰ وحدة المؤثر، فإذا وجدنا خَطَّين متطابقَين قلنا إنهما لشخصٍ واحد، ولذا يُعتمَدُ التوقيعُ في إثبات صحة الوثائق، فإذا تطابق التوقيعان كان الموقِّع واحداً، وإذا وجدنا بصماتٍ متطابقةً قلنا إنها لشخصٍ واحد، وهكذا..، وقد أثبتَ العلمُ الحديث اليومَ أن طريقةَ التصميم في جميع الكون واحدةٌ، فكل المخلوقات مؤلَّفةٌ من ذرات، وهي مركبةٌ بطريقةٍ واحدةٍ وإن اختلفت المواصفات، وطريقةُ تركيب أجزاء الكون واحدة، فالذرةُ نُواةٌ تدور حولها جُسَيمات، والمجموعة الشمسية نُواتها الشمس تدور حولَها أجسامٌ هي الأرض والمريخ... إلخ، والمجرّاتُ الكبيرة كذلك.

ويلفت الانتباهَ أنّ الأرض تدور حولَ نفسها من اليمين إلىٰ اليسار، والحُجّاجُ الطائفون بالكعبة أمرَهم الله تعالىٰ أن يطوفوا حولَ الكعبة من اليمين إلىٰ اليسار، فالخالق والمشرِّعُ واحدٌ سبحانه وتعالىٰ.

٣ ـ لو كان في الكون إلٰهان لأمكن أن يختلفا في أمرٍ ما كأن يُريد أحدُهما حركةَ شخصٍ ويريدَ الآخرُ سكونَه، وعندئذٍ من المستحيل أن تَنفُذَ إرادتاهما معاً، لأنّ الشيءَ لا يكون متحركاً وساكناً في نفس الوقت،

ومن المستحيل أن لا تنفُذَ إرادةٌ واحدةٌ منهما، لأن الإلٰهَ لا بد أن تنفُذَ إرادته، إذن لا بد أن تنفُذَ إرادة واحدةٍ منهما، فالذي نفذت إرادتُهُ هو الإلٰه الحق، والآخر ليس بإلٰه، بل هو عبدٌ مقهور، والإلٰهُ الحق هو الله عز وجل وما عداه عِبادٌ له، فثبتَ التوحيد، وثبتت الوحدةُ لله تعالىٰ.

ولهذا قال إبراهيمُ عليه السلام للنمرود الذي ادعىٰ الألوهية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلمّا رأىٰ النمرودُ أن إرادته لن تنفُذَ في هذا الشأن بُهِت، فالشمسُ تُشرق وتغرب بانتظامٍ كما يشاء الله تعالىٰ، والكونُ كله يسير بانتظامٍ لا خللَ فيه حسبَ إرادة الله تعالىٰ، فدل علىٰ أن الكونَ ليس فيه إلا إلٰهٌ واحدٌ هو الله تعالىٰ، وأن إرادته هي التي تسيِّر الكونَ بهذا النظام الصالح لجميع مَن فيه، ولو كان مع الله إلٰهٌ لما كان هذا النظام الرتيب النافع المدهش، وصدق الله العظيم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فعدمُ الفساد في السمٰواتِ والأرض دليلٌ علىٰ أن إلٰههما واحدٌ هو الله عز وجل.

وإذا ثبت أنه لا إلٰه إلا الله ثبت أنه ليس لأحدٍ صفاتٌ كصفاتِ الله، ولا أحدَ يشبه فعلُه فعلَ الله، فالله تعالىٰ إذا أرادَ شيئاً كان، وغيرُه يحتاجُ إلىٰ أسبابٍ ووسائل، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢].

وبعدَ معرفة هذه الصفاتِ يجبُ أن نعتقدَ أن الله تعالىٰ منزَّهٌ عن مضادٍّ له في ذاته أو في صفاته، لأنه قديمٌ وصفاته قديمة، وهذا يعني عدمَ المضاد له في السابق واللاحق، لأنّ الضدَّ لا يجتمع مع ضده، كالحركة والسكون، والظلام والنور، والله عز وجل قديمٌ باقٍ فيستحيل أن يكون له ضد.

والله تعالىٰ منزَّهٌ عن المشابِه له سبحانه في الذاتِ أو الصفات، لأنه مخالفٌ للحوادثِ كما سبق، ومنزَّهٌ عن الشريك في الذات والصفات والأفعال، لأنه واحدٌ في ذاته وصفاته وأفعاله كما سبق أيضاً، ومنزه عن الوالد والولد، لأنّ الولادةَ من صفاتِ الحيوانات، والله تعالىٰ منزَّهٌ عن مشابهة المخلوقات، والولدُ محتاجٌ إلىٰ الوالد في وجوده، والله تعالىٰ موجودٌ لذاته قديمٌ كما بيَّنا، والوالدُ يحتاج إلىٰ الولد ليكون وجودُه امتداداً لوجوده بعدَ موته، والله تعالىٰ حيٌ لا يموت، والولادةُ تقتضي أنّ الوالدَ ينفصل منه جزءٌ فيكون ولداً، والله تعالىٰ واحدٌ لا يتجزّأ ومخالفٌ للحوادث، والتجزُّؤُ من صفات الحوادث، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٣]، فقد بيَّن القرآنُ الكريم أن الولدَ مستحيلٌ علىٰ الله، لأنّ الولادةَ نقصٌ، وادّعاءُ الولد له يتنافىٰ مع اعتقاد الكمال له، ثم إن الذين ادُّعِيَت لهم بنوّة الله كعيسىٰ عليه السَّلام صفاتُهم صفاتُ بقيةِ عبادِ الله، فهم عبيدٌ لله.

والله تعالىٰ منزَّهٌ عن الأصدقاء، لأن الإنسانَ يتخذ الأصدقاءَ لحاجته إليهم، والله تعالىٰ مستغنٍ عن الخَلْق، والصداقةُ تكون بين المتجانسَين، والله تعالىٰ لا يشبهه شيءٌ.

نعم إن لله تعالىٰ أولياءَ يحبُّهم ويحبونه، لكن حبَّه لهم ليس كحُبِّنا، لأنّ صفاتِه ليست كصفاتنا، والله منزَّهٌ عما يعتري المحبِّين من رِقّةٍ وهوىٰ.

هذه المعاني كلُّها تُفهَمُ من قول الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقولِهِ تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

القسمُ الثالث: من الصفات الواجبة لله تعالىٰ صفاتُ المعاني:

٢٧ـ وقــــدرةٌ إرادةٌ وغــــايَــــرَتْ أمـراً وعلمـاً والـرِّضـا كمـا ثَبَـتْ

صفاتُ المعاني كما تقدم هي صفاتٌ لها معانٍ متّصفةٌ بها ذاتُ الله تعالىٰ، وتدل علىٰ اتصافه بمقتضاها، أو كما يقول العلماء: كل صفةٍ قائمةٌ بموصوف، موجِبةٌ له حكماً، وصفاتُ المعاني التي قام عليه الدليلُ سبعُ صفاتٍ هي:

القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والكلام، والسمع، والبصر.

ولا نزيد عليها إلا بدليلٍ من الكتاب أو السنة، لأنه لا يجوز أن نَصِفَ الله تعالىٰ بما لم يَصِف به نفسَه في الكتاب أو السنة، ولم يرد في الكتاب والسنة من صفات المعاني غيرُ هذه الصفات وما يَؤُولُ إليها، وفيما يلي بيانٌ لمعانيها:

١ ـ القدرة:

ومعناها أن الله عز وجل قادرٌ علىٰ إيجاد كل ما يتصور العقلُ السليم إيجادَه وفقاً لإرادته عز وجل، وقادرٌ علىٰ إعدامِ كل ما يتصور العقلُ إعدامه وفقاً لإرادته تبارك وتعالىٰ، والدليلُ علىٰ ذلك قولُه عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ويدل علىٰ القدرة ما نشاهده من مخلوقاتٍ متنوعةٍ عجيبةٍ خلقها الله تعالىٰ كما يريد مع أن الأصلَ فيها العدم، وكل واحدةٍ منها عجيبةٌ في صنعها، ابتداءً من أصغر المخلوقات وانتهاءً بأكبرها، كما أن العقلَ يتصور أشياءَ كثيرةً لكن اقتضت إرادةُ الله تعالىٰ أن لا يُوجِدَها وأن يبقيها في حَيِّز العدم؛ فمن الممكن أن تشرقَ علىٰ الأرض شمسان أو أكثر، ولكنّ إرادة الله وحكمته اقتضت أن لا تشرقَ إلا واحدةٌ، وبقي إشراق

الزائد في حيز العدم، ومن الممكن أن يكونَ للإنسان أربعُ عيونٍ أو أكثر وثلاثُ أيدٍ أو أكثر، ولكن إرادةَ الله تعالىٰ وحكمته سبحانه لم تُوجِد إلا يدين وعينَين فقط للإنسان، وبقيَ الزائد في حيز العدم. والله تعالىٰ قادرٌ علىٰ نقل الموجود الممكن إلىٰ حيز العدم فيتلاشىٰ ويفنىٰ، وهذا ما أراده العلماءُ بقولهم في تعريف قدرة الله تعالىٰ: صفةٌ أزليةٌ يتأتّىٰ بها إيجادُ كل ممكنٍ وإعدامُه وفق الإرادة.

والمراد بالممكن ما يتصور العقلُ السليمُ وجودَه وعدمَه كما تقدم، ولذا فإن قولَ بعض الجُهلاء: هل يستطيع الله تعالىٰ أن يُخرجني من مُلْكِه؟ دليلٌ علىٰ الجهل، فنقول له: هل يتصوَّر العقلُ السليمُ مكاناً غيرَ مملوكٍ لله تعالىٰ؟!

وقولُ البعض الآخر: هل يستطيع الله تعالىٰ أن يخلق صخرةً لا يقدر علىٰ حملها؟ دليلٌ آخرُ علىٰ الجهل، لأن العقلَ السليمَ لا يتصور صخرةً بهذه الصفة، والله تبارك وتعالىٰ يخلُقُ ما تقتضيه حكمتُه لا ما تشتهيه أحلامُ السُّفَهاء.

وأجهلُ منهم من يقول: هل يستطيع الله تعالىٰ أن يخلقَ إلٰهاً مثله، والجواب: أن الإلٰهَ لا يكون مخلوقاً، والعقلُ السليمُ لا يتصور إلٰهاً مخلوقاً، وهل يتصور إنسانٌ عاقلٌ أن يسيرَ شخصٌ واحدٌ في زمانٍ واحدٍ إلىٰ الشرقِ والغربِ معاً؟! أو أن يكونَ شيءٌ ساكناً ومتحركاً في وقتٍ واحدٍ، وباعتبارٍ واحد؟! ووجودُ إلٰهٍ مخلوقٍ مما لا يتصوره العقل السليم، صحيحٌ إنّ الجهلَ يفضح صاحبه. وهؤلاء لو فكَّروا في شيءٍ من خَلْقِ اللهِ لكان خيراً لهم وأقربَ إلىٰ الهدىٰ الذي ينفعهم في الدنيا والآخرة، ولكنهم ما قدروا الله حقَّ قدره.

وما يُوجده الله تعالىٰ يوجده وفقاً لإرادته، وما يبقيه في حيز العدم يبقيه معدوماً وفقاً لإرادته، وكذلك إعدام الموجود وإفناؤه وفقاً لإرادة الله عز وجل، وقدرةُ الله تعالىٰ قديمة؛ أي: أنها موجودةٌ من الأزل قبلَ أن توجد المخلوقات، لأنها صفةُ لله تعالىٰ، وصفاتُ الله تعالىٰ قديمةٌ.

٢ ـ الإرادة:

الإرادةُ في اللغة: القصد، وتُرادِفُها المشيئة، وقد عِلمنا أن قدرةَ الله تعالىٰ أوجدت المخلوقات، لكن الموجوداتِ لها صفاتٌ مختلفة، فهذا طويلٌ وهذا قصير، وهذا أبيضُ وهذا أخضر، وهذا غنيٌ وهذا فقير، وهذا في الشرق وذلك في الغرب، وهذا حارٌّ وهذا بارد. . . إلخ.

فمن الذي أعطىٰ الموجوداتِ هذه الصفات؟ إنها لم تُعْطِ نفسَها، ولا تستطيع أن تعطيَ نفسَها الصفاتِ التي اتصفت بها، فلا بدَّ من إرادةٍ خَصَّت كلَّ موجودٍ بالصفات التي يتصف بها، لأن غيرَها جائزٌ عليها أيضاً، فضلاً عن أن الممكناتِ منها ما وُجِدَ ومنها ما لم يُوجَد.

وهذا معنىٰ قول العلماء: الإرادة ـ أي إرادة الله ـ صفةٌ قديمةٌ زائدةٌ علىٰ الذات قائمةٌ بها شأنُها التخصيص، فتخصِّصُ كلَّ ممكنٍ ببعض ما يجوزُ عليه.

فهيَ من صفات الله تعالىٰ، والصفةُ غير الموصوف، وهي قديمةٌ؛ أي: أن الله تعالىٰ مريدٌ قبلَ وجود المرادات، لأنّ صفاتِ الله تعالىٰ كلَّها قديمةٌ، إذ الحادثُ لا يقوم بالقديم، بل يستحيل اتصافُ القديم بالصفات الحادثة.

والذي يدل علىٰ صفةِ الإرادة وجودُ هذه الصفات المختلفة للمخلوقات مع أن هذه الصفاتِ غيرُ واجبةٍ بل ممكنةٌ وغيرُها ممكن، فإيجادُها دونَ غيرِها دليلٌ علىٰ إرادة خالقِها سبحانه وتعالىٰ.

وقد دلَّ علىٰ صفةِ الإرادة القرآنُ الكريم، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يسٓ: ٨٢-٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨]، والاختيارُ إرادةُ أحدِ الاحتمالاتِ مع العلم بالباقي، وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تدل علىٰ صفةِ الإرادة، فكل ما في الكون من ذواتٍ وصفاتٍ هو من خلقِ الله وبإرادته سبحانه وتعالىٰ.

وكَيْلا يلتبس معنىٰ الإرادة بغيره أكّدَ العلماءُ علىٰ أنّ الإرادةَ غيرُ الأمر، وغيرُ العلم، وغيرُ الرضا، لأن لكل كلمةٍ من هذه الكلماتِ معنىً خاصٌ بها، فالأمر: هو استدعاءُ الفعل بالقول ممن هو دونَه علىٰ سبيل الوجوب، وقد أمرَ الله عبادَه بأوامرَ كثيرةٍ طلب منهم فيها أفعالاً مختلفةً كالصلاة، والزكاة، والجهاد، وبرِّ الوالدين، والصدق. . . إلخ، ونحن نرىٰ أن بعضَ العِباد أطاعوا وبعضَهم عَصَوا، فدل هذا علىٰ أنّ الإرادةَ غيرُ الأمر، إذ لو كان الأمرُ والإرادةُ شيئاً واحداً لَمَا تخلَّفَ أحدٌ عن الطاعة.

ويُوضِحُ هذا أن الله تعالىٰ قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٨]، ونحن نرىٰ بعضَ المؤمنين يشهدون بالعدل وبعضَهم لا يشهدون به، لأن الأمرَ هنا أمرٌ تشريعي، يُطِيعه البعضُ ويَعصِيه البعضُ الآخر، وقال تعالىٰ للذين عَصَوا من بني إسرائيلَ واعتدوا في السبت: ﴿ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، فصاروا جميعاً قِردَةً لم يتخلَّف منهم أحد، لأن الأمرَ هنا أمرٌ تكوينيٌ يعبِّرُ عن إرادةِ الله تعالىٰ، وهذا التفريقُ بين الإرادةِ والأمرِ ضروريٌ، إذ لو كان الأمرُ والإرادةُ شيئاً واحداً لما وجدنا عاصياً لله تعالىٰ، لكنّ حكمته تعالىٰ اقتضت أن يختبر الناسَ فأمرهم

وجعل لهم اختياراً، فأطاع البعضُ وفازَ بالجنة، وعصىٰ البعضُ فاستحقَّ العقاب، لكن الذي أطاع لم يخرج عن إرادةِ الله، والذي عصىٰ لم يخرج عن إرادته عزَّ وجل.

وأما العلم؛ أي: علمُ الله تعالىٰ، فهو أيضاً غيرُ إرادته، لأنّ العلمَ صفةٌ تحيط بالمعلومات، كما سيأتي قريباً إن شاء الله، والإرادة تخصيصُ الممكن ببعضِ ما يجوزُ عليه.

وأما الرِّضا: فهو قبول الفعل والإثابةُ عليه، ومعلومٌ أن القبول والإثابة تكون للأفعال الإرادية الموافقة لما أمر الله به، فهو غيرُ الإرادة كما ترىٰ.

٣ ـ العلم:

٢٨ـ وعِلمُهُ ولا يُقالُ مُكْتَسَبْ فَٱتْبَعْ سَبيلَ الحَقِّ وٱطْرَحِ الرِّيَبْ

تبيَّن لنا أنّ الموجوداتِ من ذواتٍ وصفاتٍ أو كما يقولون من جواهرَ وأعراض هيَ من خلق الله وبإرادته عز وجل، وهذا يقتضي أن الله تعالىٰ عالمٌ بها كلِّها علىٰ حقيقتها؛ لأنه هو الذي خلقها، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وعَلِمْنا أن الله تعالىٰ قديمٌ واجبُ الوجودَ، وكذلك صفاتُه، والله تعالىٰ عالمٌ بذاته وصفاته، وما عَلِمَ الخَلْقُ من ذلك إلا ما عَلَّمَهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقال رسولُ الله ﷺ: «لا أُحصي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِك»، رواه مسلمٌ وغيرُه.

وعَلِمْنا أنّ الممكناتِ بعضُها وُجِدَ وبعضُها لم يوجد، وكان من الممكن عقلاً أن تُوجَدَ لو شاءَ الله تعالىٰ، وهذه أيضاً يعلم الله عزَّ وجل ما كان وما لم يكن منها.

وقدّمنا أن المستحيلَ هو الذي لا يتصور العقلُ وجودَه، والله تعالىٰ يعلمُ المستحيلاتِ أيضاً.

وهكذا نرىٰ أن علمَ الله تعالىٰ أحاطَ بالواجباتِ والجائزاتِ والمستحيلات، كلٌ بما يليقُ به، فالواجبُ عَلِمَهُ موجوداً، والمستحيلُ يعلمُهُ معدوماً، والجائزُ يعلمُ الموجودَ منه والمعدوم، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولهذا قال العلماء: علمُ الله تعالىٰ صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاته تعالىٰ متعلِّقةٌ بجميع الواجباتِ والجائزاتِ والمستحيلاتِ علىٰ وجهِ الإحاطة علىٰ ما هيَ عليه مِن غير سبقِ خَفاء.

ومعنىٰ (متعلِّقة) أي: لها علاقةٌ، وعلاقتُها الإحاطةُ، بالواجباتِ والجائزاتِ والمستحيلات، ويجبُ الانتباه إلىٰ أنّ علمَ الله تعالىٰ لا يُشبه علمَنا بأي وجهٍ من الوجوه، لما سبقَ أن تقرَّرَ من أن ذاتَه عزَّ وجل لا تشبهها الذوات، وصفاتِه لا تشبهها الصفات، فنحن نخرج إلىٰ هذه الحياة لا نعلم شيئاً ثم يعلِّمُنا اللهُ تعالىٰ، قال عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٨]، وما من شيءٍ نعلمه إلا وسبقَ جهلُنا عِلْمَنا به، أما علمُ الله تعالىٰ فقديمٌ لم يسبقه خَفاء، لذا كان علمُنا مكتسَباً؛ أي: حادثاً، وعلمُ الله تعالىٰ قديمٌ غيرُ مكتسب، فهو عز وجل يعلم الأشياءَ قبلَ أن تكون، بكلِّ تفاصيلِها وصفاتِها الدقيقةِ والكبيرة، ويعلمُها إذا تكوَّنت، علىٰ ما هيَ عليه، ويعلمُ ما كان كيفَ كان، ولا اختلافَ بين علمه عز وجل بما كان وبما سيكون وبما هو كائنٌ، لأنّ الماضيَ والحاضرَ والمستقبلَ أمورٌ نسبيةٌ في حَقِّنا، والله عز وجل لا يحُدُّهُ الزمانُ ولا المكان.

وهنا يتساءل البعض: إذن ما معنىٰ قولِ الله عزَّ وجل: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ [الكهف: ١٢]؟ والجوابُ أنّ ظاهرَ هذه الآية غيرُ مراد، فوجبَ تأويلُها بما يوافق العقيدةَ الصحيحةَ من أن علمَ الله قديمٌ، وللعلماء تأويلاتٌ كثيرة، والمختار منها: أن اللام في قوله تعالىٰ: ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ لامُ العاقبة؛ أي: أن الله تعالىٰ بعثهم فترتب علىٰ ذلك علمُه بالشيء واقعاً بعدَ علمه به قبلَ أن يقع، فالله تعالىٰ يعلم أيُّ الحزبين أحصىٰ مدةَ بقاءِ أهل الكهف في كهفهم نائمين، يعلم ذلك قبل أن يخلقَ السمٰواتِ والأرض، لأن علمَه قديمٌ، ولما بعث الله أهلَ الكهف من نومهم ظهرَ الفريقُ المُحْصِي لمدة نومهم وفقاً لما سبق في علم الله، فعَلِمَ اللهُ الفريقَ وقد أحصىٰ كما عَلِمَه قبلَ أن يُحصي، وهكذا يُقال في الآياتِ التي تشبه هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال: ٦٦]؛ أي: عَلِمَ الضعفَ واقعاً وقد عَلِمَه قبلَ أن يقع.

٢٩ـ حياتُهُ كذا الكَلامُ السَّمْعُ ثُمَّ البَصَرْ بِذِي أتانا السَّمْعُ

٤ ـ الحياة:

لقد وصفَ اللهُ تبارك وتعالىٰ نفسَه بالحياة فقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقد عَلِمْنا أنّ الله تبارك وتعالىٰ مخالفٌ للحوادث: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، فما معنىٰ الحياةِ في حقه عز وجل؟ إنّ حياةَ المخلوقاتِ لا يعرف كُنْهَها (حقيقتها) إلا الله تعالىٰ، ورغم التقدم العلمي لم يعرف البشرُ إلا ظواهرَها، فكيف يُمكن أن نعرفَ كُنْهَ حياةِ الله سبحانه وتعالىٰ؟! لذا

عرَّف العلماءُ حياةَ المخلوقاتِ ببيان آثارها فقالوا: «كيفيةٌ يلزمُها قبولُ الحس والحركة الإرادية»، وهم يريدون بذلك حياةَ الحيوانات، مع أن النباتاتِ تُعَدُّ من الأحياء، ومِن علمائنا السابقين مَن لاحظَ أن حياةَ المخلوقاتِ ثلاثةُ أنواع:

أ ـ حياةٌ نباتية: ومن مظاهرها النمو والتكاثر.

ب ـ حياةٌ حيوانية: ومن مظاهرها النمو والتكاثر والحس والحركة الإرادية، أي حياةٌ نباتيةٌ وزيادة.

جـ ـ حياةٌ إنسانية: ومن مظاهرها زيادةً علىٰ ما في الحياة الحيوانية: التفكيرُ والتحليلُ والتركيب والتَطلُّع إلىٰ ما وراء الحاضر، وهذه هي الخاصية التي خَصَّ اللهُ بها الإنسانَ ليستطيعَ إعمارَ الأرض وتحسينَ ظروف حياته عليها وتلمُّسِ ما وراء المادة، وهي التي نسمّيها: الروحَ الإنسانية.

وكل هذه الأنواع من الحياة غير مرادةٍ في حق الله عز وجل، لذا قال العلماء في تعريف حياته عز وجل: «صفةٌ أزليةٌ تقتضي صحةَ العلم»، وهذا ليس تعريفاً لذات الحياة بل بيانٌ لما يستلزمها، فنحن نؤمن بأن الله تعالىٰ يعلم كلَّ شيءٍ وهو خالق كل شيء، وهذا العلمُ والخَلْقُ لا يكونان إلا من حي، لذا يجبُ إيمانُنا بوجودِ حياةٍ لله تعالىٰ ليست كحياةِ شيءٍ من المخلوقات، وقد أخبَرَنا الله تعالىٰ عنها في محكم كتابه، فنؤمنُ بها وإن كنّا لا ندري كيفيتَها، ولا كُنْهَها.

٥ ـ الكلام:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٦]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وكل مسلمٍ يعتقدُ أنّ القرآنَ كلامُ الله، لكن نحن نعلمُ أنّ صفاتِ الله تعالىٰ لا

تشبه صفاتِ المخلوقين، والقرآنُ كلامٌ عربيٌ في مفرداته وتراكيبه، فكيفَ يُقال إنه كلامُ الله، أو كيف يُقال: إن صفات الله لا تُشبه صفاتِ المخلوقين؟ هذه الأسئلةُ أثارت مشكلةً بين المسلمين وأثارت فتنةً أُوذِيَ بسببها الإمامُ الجليل أحمدُ بن حنبل وغيرُه من العلماء، ولعلها شغلت بعضَ المسلمين عن العمل بما في القرآنِ العظيم، وشغلتهم عن قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٧-٨]، فالأَولىٰ بالمسلم أن يعتقدَ أنّ الله تعالىٰ متكلِّمٌ وأن القرآنَ كلامُ الله فيعملَ بما فيه دون أن يدخلَ في بحوثٍ قد تكونُ مزَلَّةَ قدم، وهذا هو موقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عندما سئل عن القرآن: أخالقٌ أم مخلوق؟ قال: «هو كلامُ الله»، وقال: «القرآنُ قديمٌ» دونَ تفصيل.

ولعل من المناسب أن نذكرَ خلاصةَ أقوال المسلمين في هذا الموضوع، لأن بعضَ الناس لا يكتفون بما قاله الإمام أحمد:

أ ـ أما المعتزلة فقالوا: القرآنُ حروفٌ وأصواتٌ يشبه كلامَ العرب، فلا يمكن أن يكونَ صفةً قديمةً لله تعالىٰ، لأن هذا يقتضي التشبيه، وهو محالٌ، فالقرآنُ مخلوقٌ لله تعالىٰ، وكلُّ كلامٍ لا بد أن يكونَ حروفاً وأصواتاً، فما أُسنِدَ إلىٰ الله تعالىٰ من كلامٍ هو كلامٌ يخلقه الله في شيءٍ من المخلوقات كالشجرة التي سمع موسىٰ عليه السلام من جهتها الكلام، وأُسنِدَ الكلامُ إلىٰ الله تعالىٰ لأنه خالقُه، وأرادَ المعتزلةُ حملَ الناس علىٰ ذلك بسيفِ المأمون، فقد كان معتزلياً.

ب ـ وعلىٰ النقيضِ من هذا كلامُ الحنابلة (المنتسبين إلىٰ الإمام أحمد، لا كلامُ الإمامِ نفسِه)، فقد قالوا: القرآنُ قديمٌ بحروفه ومعانيه وألفاظه، وغالىٰ بعضُهم فقال: الورقُ المكتوبُ عليه القرآنُ قديمٌ، وشنّعوا علىٰ الإمام البخاريِّ لأنه قال: لفظي بالقرآن حادث؛ أي: ما يُسمَع مني وأنا أقرأ القرآنَ حادثٌ.

جـ ـ وأما الأشاعرةُ فقالوا: القرآنُ يطلق علىٰ معاني، يطلق علىٰ الصوتِ الذي نسمعُهُ فنسميه قرآناً، ونسميه كلامَ الله، ويُطلق علىٰ الحروف المكتوبة علىٰ الورق، ويُطلق علىٰ الورق وعلىٰ المجلد الذي فيه الحروفُ المكتوبة، ويُطلق علىٰ المعنىٰ الذي يدل عليه الصوت، أما الحروفُ فتدُلُّ علىٰ الصوت، ولا شكَّ أن الصوتَ حادثٌ فلا يكونُ صفةً لله تعالىٰ، وكذلك الحروفُ والورقُ والكلماتُ والجُمَل، بل اللغةُ العربية وغيرُها حادثةٌ لأنها حروفٌ وكلماتٌ يأتي بعضُها بعدَ بعض، والقديمُ لا يكون بعضُهُ سابقاً وبعضُهُ مسبوقاً.

يبقىٰ المعنىٰ الذي يدل عليه اللفظ، وهذا هو القديم، وهو كلامُ الله تعالىٰ، لكن هل يصح في اللغة أن يُقال: إنّ الكلامَ هو المعنىٰ؟ إذا لاحظنا واقعَ الإنسان نجدُ أنّ الألفاظ التي لا معنىٰ لها لا تُسمّىٰ كلاماً، ونجدُ أن اللفظَ يدل علىٰ معنىً قائمٍ في النفس، نقول: فلانٌ يحضِّرُ كلاماً في نفسه، ونجد أنّ المعنىٰ قد يُعبَّر عنه بالإشارة باليد والرأس والعين وغير ذلك، وقد كثر هذا في زماننا في إشاراتِ المرور وغيرها، بل الحروف إشاراتٌ تدل علىٰ لفظ، واللفظُ يدل علىٰ المعنى، وهكذا يكون المرادُ من قولنا: إنّ كلامَ الله قديمٌ، أو: إنّ القرآن قديمٌ؛ هو المعنىٰ الذي تدل عليه الكلماتُ

المكتوبة أو الملفوظة، أما الأصواتُ والحروفُ والكلمات والورق فهذه كلُّها حادثةٌ ومخلوقةٌ لله تعالىٰ.

لكنهم نبَّهُوا وشدَّدُوا علىٰ أن هذا يُقال في مجال التعليم وفي مجال الردِّ علىٰ الذين ينحرفون في بحوثهم عمّا يوافق الشرع أو عمّا يوافق العقل، ولا ننسىٰ أنّ كلماتِ القرآن وحروفَه وورقَه وجلدَه لها حُرمتُها العظيمة، حتىٰ أنّ من أهانَها أو استخَفَّ بها كفر، وأن اللغوَ عندَ سماعِ القرآن حرامٌ.

ولهذا عرّفوا الكلام الذي هو صفةٌ من صفاتِ الله تعالىٰ بأنه: صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاته تعالىٰ، منافيةٌ للسكوت والآفة، هو بها آمرٌ ناهٍ مُخبرٌ إلىٰ غير ذلك من أنواع الكلام.

والمرادُ بالآفةِ الخَرَس، فهم أثبتوا صفةَ الكلام عملاً بالدليل السمعي، وجزموا بأنها قديمةٌ لأنّ صفاتِ الله تعالىٰ كلُّها قديمة، ولم يتكلموا عن كُنهِها لأنّ كُنْهَ صفاتِ الله تعالىٰ لا يعلمها إلا الله عز وجل، لكن ذكروا ما ينافيها وهو السكوتُ والعجزُ عن الكلام، ونزّهوا الله تعالىٰ عنهما لأنهما لا يليقان به عز وجل، وذكروا آثارَ هذه الصفة وهي الأمرُ والنهي والإخبار... إلخ، وهكذا ترىٰ أنهم أثبتوا ما أثبته الدليلُ وسكتوا عمّا لم يَرِد به دليل.

٦ ـ السمع:

الصفة السادسة من صفاتِ الله تعالىٰ التي أخبرنا بها هي السمع، فقد وصفَ الله تبارك وتعالىٰ نفسَه بأنه سميعٌ في أكثر من آية، منها قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وبهذا أيضاً وصفه الرسولُ ﷺ، فقد قال للذين يرفعون أصواتهم بالدعاء: «يا أيها الناس أَرْبِعُوا علىٰ أنفسِكم إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنه معكم سميعٌ قريب» رواه البخاري ومسلم.

ولكن سمعَ الله تعالىٰ ليس كسمعنا، لأن صفاتِ الله تعالىٰ لا تشبهُ صفاتِ المخلوقين، فنحن نسمعُ بواسطة الأُذُن والعَصَب السمعي وما يحدثه الصوتُ من اهتزاز في غشاء الأُذُن، وهذا كلُّه مستحيلٌ علىٰ الله تعالىٰ، ولذا قال العلماءُ عن سمع الله تعالىٰ: (هو صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاته تعالىٰ تتعلق بالمسموعاتِ أو بالموجوداتِ فتُدرَك إدراكاً تاماً)، فهم كما ترىٰ أثبتوا ما جاءَ به الدليلُ ولم يبحثوا في حقيقة السمع، لأن ذلك لا يعلمه إلا الله. ويلاحَظُ أنهم عرَّفوا السمعَ بما تنكشف به المسموعات، وهذاواضحٌ، لكن أضافوا: (أو الموجودات) أي المسموعات وغيرها، لكن انكشافَ الموجوداتِ بالسمع غيرُ انكشافها بالعلم أو البصر، كيلا تكون الصفاتُ متحدةً.

٧ ـ البصر:

لقد أخبر الله تعالىٰ عن نفسه عز وجل بأنه بصيرٌ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال لسيِّدنا محمدٍ ﷺ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]، وأخبرَ الرسولُ ﷺ أن الله تعالىٰ يرىٰ عبادَه حيثما كانوا، فقال لمن سأله عن الإحسان: «أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، رواه البخاري ومسلم، وهذا كلُّه يدل علىٰ أنّ الله تعالىٰ له صفةٌ هيَ: «البصر».

لكن بصرَهُ عز وجل ليس كبصرنا ولا كبصر شيءٍ من المخلوقات، فنحن نرىٰ بواسطة عينٍ مؤلَّفةٍ من طبقاتٍ وأعصاب... إلخ، والرؤيةُ لها كيفيةٌ خاصةٌ، وهذا كلُّه مستحيلٌ علىٰ الله عز وجل، لأن صفاتِه عز وجل ليست كصفاتِ المخلوقين، ولذا عرَّفَ العلماءُ البصرَ في حق الله تعالىٰ بأنه:

(صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاته تعالىٰ تتعلَّق بالمبصَرات أو الموجوداتِ فتُدرَك إدراكاً تاماً)، فهم أثبتوا البصرَ عملاً بالدليل من الكتاب والسنة وبيّنوا المعنىٰ اللائقَ بالله تعالىٰ وأن المرادَ بالبصر في حقه تعالىٰ صفةٌ قديمة (وهكذا كلُّ صفاته عز وجل) تُدركَ بها المبصَرات أو الموجودات، والمبصَراتُ هي ما تُبصِرُه المخلوقاتُ من ألوانٍ وأضواءٍ وأشكال، أما الموجودات فتشمل الأصواتَ والروائحَ والطعوم وغيرها من الموجودات التي لا يراها الإنسان وما أكثرَها، فإنّ الإنسانَ رؤيته محدودةٌ لا يرىٰ إلا ما كان ملوَّناً بألوان الطَّيْف فقط، فلا يرىٰ الألوان التي تحت الحمراء ولا التي فوقَ البنفسجي، بل يكشفها بغير العين، فرؤيتها ممكنةٌ وكلُّ ممكنٍ فالله تعالىٰ قادرٌ عليه، فقول علمائنا إن صفةَ البصرِ الأزليةَ التي يتصف بها الله تعالىٰ تُدرَك بها الموجودات هو من الفتح الرّبّاني، لأنّ العلماءَ ما كانوا يومَها يعرفون أن هناكَ ألواناً لا يراها البشر!

الإدراك:

٣٠ـ فهل له إدراكٌ أو لا: خُلْفُ   وعندَ قومٍ صَحَّ فيهِ الوَقْفُ

تقدَّم أن لله تعالىٰ صفةَ اسمُها السمع تتعلق بالمسموعات، وصفةَ اسمُها البصر تتعلق بالمبصَرات، لكن إلىٰ جانب المسموعات والمبصَرات توجد الملمُوسات والمشمُومات والمذوقات، ولا شك أن الله تعالىٰ يعلمُها علىٰ ما هيَ عليه، لكنّ تعلُّقَ علمه بالمسموعاتِ غير تعلُّقِ سمعه عز وجل بها، وتعلُّقُ علمِه بالمبصَرات غيرُ تعلُّقِ بصره بها، فهل نقول: إن الله تعالىٰ له صفةٌ اسمُها (الإدراك) تتعلّق بالملموسات والمذوقات والمشمومات؟ أم نقول: ليس له صفةٌ اسمُها الإدراك ويكفي إحاطة علمِهِ تعالىٰ بالملموسات

والمذوقات والمشمومات علىٰ ما هيَ عليه؟ اختلفَ العلماءُ في هذه المسألة، وهذا بيانُ آرائهم:

أ ـ ذهب القاضي الباقِلّاني وإمامُ الحرمَين إلىٰ أن لله تعالىٰ صفةً اسمُها الإدراك تتعلّق بالملموسات والمذوقات والمشمومات، لكنّ تعلُّقَها بها ليس كتعلُّقِ لمسِنا وذوقِنا وشَمِّنا، كما أن تعلُّقَ بصره بالمبصراتِ ليس كتعلُّقِ بصرنا بها، وتعلُّقَ سمعه بالمسموعاتِ ليس كتعلُّقِ سمعِنا بها، وحجَّتُهم في هذا ما يلي:

١ ـ أن إدراكَ هذه الأشياء بصفةٍ خاصةٍ غيرُ إدراكها بصفةِ العلم، فلا تُغني عنها صفةُ العلم، كما أن صفةَ العلم غيرُ صفتَي السمع والبصر اللتين أخبر عنهما الكتابُ والسنة كما أخبر عن صفة العلم.

٢ ـ أن الاتصافَ بصفةِ الإدراك كمالٌ، وكل كمالٍ لائقٍ بالله تعالىٰ يجبُ اعتقادُ اتصافِه به عز وجل.

٣ ـ إذا لم يتصف تعالىٰ بهذه الصفة اتصف بعكسها، وهو نقصٌ محالٌ علىٰ الله تعالىٰ، فوجب اتصافُه بما ينافي النقص.

لكلِّ هذا أثبتوا صفةَ «الإدراك» لله تعالىٰ علىٰ ما يليق بذاته عز وجل، بل قالوا: هي صفاتٌ ثلاثٌ وليست صفةً واحدة، فهي صفةُ إدراك الملموسات، وصفةُ إدراك المذوقات، وصفةُ إدراك المشمومات.

ب ـ وذهب جمعٌ من العلماء إلىٰ نفي صفة الإدراك، وحجتهم في هذا ما يلي:

١ ـ أنه لا يجوز أن ننسب إلىٰ الله تعالىٰ صفةً إلا بدليلٍ سمعيٍ من الكتاب أو السنة الصحيحة، وبما أنه لم يَرِد في إثبات هذه الصفة شيءٌ فلا يجوز أن نصفَ الله تعالىٰ بها.

٢ ـ أن إثبات هذه الصفة يقتضي عقلاً الاتصالَ بين المدرَكات بها وبينَ ذاتِ الله تعالىٰ، وهذا مستحيلٌ.

أقول: يمكنُ أن يُجابَ عن هذا الدليل بأن هذا الاقتضاءَ العقليَّ واردٌ في حق البشر، كما أنه واردٌ في صفة السمع والبصر للإنسان، وقد أثبت الدليلُ صفةَ السمع والبصر لله تعالىٰ مع نفي الاتصال، ويمكن تصوُّر صفة الإدراك هذه مع نفي الاتصال، ولذا فالاعتماد علىٰ الدليل الأول أقوىٰ.

٣ ـ أن نفيَ هذه الصفة لا يقتضي النقصَ، لأن صفةَ العلم تُغني عنها.

جـ ـ وتوقّف بعضُ العلماء في هذه المسألة نظراً لأدلة المثبتين والنافين، فلم يجزموا بثبوت صفة الإدراك لله عز وجل لأن إثباتها يحتاج إلىٰ دليلٍ من الكتاب أو السنة، ولا دليلَ، ولم يجزموا بنفي هذه الصفة لأن النفيَ أيضاً يحتاج إلىٰ دليل، ولا دليلَ، وعدمُ العلم بالشيء لا يدل علىٰ نفيه.

وقد رجَّح العلماءُ هذا القولَ وقالوا: هو أسلم، لأنه لا يجوزُ لنا أن نعتقدَ اتصافَ الله تعالىٰ بصفةٍ إلا إذا قام عليها الدليل من الكتاب أو السنة، ولا يجوز لنا أن ننفيَ عن الله صفةً تدل علىٰ كمالٍ إلا بدليلٍ من النقل أو العقل، فقد قال رسولُ الله ﷺ في دعائه: «.. أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هو لكَ سمّيتَ به نفسَكَ أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرتَ به في علم الغَيب عندكَ أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي وجلاءَ حزني وذهابَ همّي وغمّي» الحديث، ذكره البيهقي في «الأسماء والصفات» ص٦. فالحديث يدل علىٰ أنّ الله تعالىٰ استأثر عندَه في علم الغيب ببعض أسمائه، وأسماؤه تعالىٰ تدل علىٰ صفاتٍ، فالإمساك عن الإثباتِ والنفي بغير دليلٍ أولىٰ، أما إذا جاء النهيُ عن اعتقاد صفةٍ: اعتقدنا نفيَها، وكذا إذا كانت الصفةُ تُشعِر بنقصٍ في حقه تعالىٰ، فعدمُ الولد نقصٌ في حق البشر وكمالٌ في حق الله عز وجل.

هذا مع اعتقاد الجميع أنّ اللهَ تعالىٰ لا يخفىٰ عليه شيءٌ من الملموسات ولا من الروائح والطُّعُوم، فقد قال رسولُ الله ﷺ: «ولخُلُوف فم الصائم عندَ الله أطيبُ من ريح المسك» رواه البخاري (١٨٩٤) ومسلمٌ (١١٥١).

بقيَ بيانُ معنىٰ الإدراك، وهو في حقنا نحن المخلوقين: تصوُّر حقيقة المدرَك عندَ المدرِك، أما معنىٰ صفةِ الإدراك في حق الله تعالىٰ عندَ من أثبتها فهو صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذاته تعالىٰ تُدرَك بها الملموسات كالنعومة والخشونة، والمشمومات كالروائح الطيبة، والمذوقات كالحلاوة والمرارة، من غير اتصال بمحالّها التي هي الأجسام.

فالتنزيهُ عن صفات المخلوقين لا بد منه عندَ من أثبتَ هذه الصفة، لكنّ الوقوفَ في أمر العقيدة عند ما ثبتَ بالنصّ أَولىٰ.

القسمُ الرابع: من الصفات الواجبة لله تعالىٰ الصفاتُ المعنوية:

٣١ـ حــيٌّ عَلِيــمٌ قــادِرٌ مُــرِيــدُ ... سَمِــعٌ بَصِيــرٌ مــا يَشَــا يُــرِيــدُ
٣٢ـ متكَلِّــمٌ، ثــم صفــاتُ الــذاتِ ... لَيسَــتْ بِغَيــرٍ أو بعَيــنِ الــذاتِ

تبيّنَ لنا فيما مضىٰ أنّ من صفاتِ الله تعالىٰ: الحياةَ، والعلمَ، والقدرةَ، والإرادةَ، والسمعَ، والبصرَ، والكلام، وهذه الصفاتُ تقتضي أنه تعالىٰ: حيٌّ، عليمٌ، قادرٌ، مريدٌ، سميعٌ، بصيرٌ، متكلِّمٌ، وفيما يلي بيانُ الدليل علىٰ هذه الصفات.

١ ـ الدليلُ علىٰ أنه تعالىٰ: (حيٌّ) قولُه تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقد سبقَ أن حياةَ الله تبارك وتعالىٰ ليست كحياة أحدٍ من المخلوقات، فحياتُه عز وجل لذاته، وحياةُ غيرِه خلقَها الله تعالىٰ.

٢ ـ الدليلُ علىٰ أنه تعالىٰ: (عليمٌ) قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وعلمُه تعالىٰ قديمٌ محيطٌ بكل ما يمكن أن يُعلَم.

٣ ـ الدليلُ علىٰ أنه تعالىٰ: (قادرٌ) قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ [الأنعام: ٦٥]، والقادر هو: الذي إن شاءَ فعلَ وإن شاءَ ترك، فهو متمكِّنٌ من الفعل والترك، يفعل ما يشاءُ ويترك ما يشاء.

٤ ـ أما الدليلُ علىٰ أنه تعالىٰ (مريدٌ) فقولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]، وقولُه تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، والمريدُ هو الذي تتوجّه إرادته علىٰ المعدوم فيوجِدُه، وتخصِّصُ الممكنَ ببعض ما يحوز عليه، وقد سبق أن إرادتَه ومشيئتَه بمعنىً واحد، فإرادتُه هي مشيئتُه.

٥ ـ وأما أنه تعالىٰ: (سميعٌ) فيدل عليه قولُه تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، فسمعُه تعالىٰ يتعلق بالمسموعات أو الموجودات فيدركُها إدراكاً تاماً كما تقدم.

٦ ـ والدليل علىٰ أنه تعالىٰ (بصيرٌ) قولُه تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقد تقدّم معنىٰ البصر، والله عز وجل لا يشغله ما يَسمَعُه عما يُبصِره، ولا يشغله مبصَرٌ عن مبصَرٍ ولا مسموعٌ عن مسموع، لأن سمعَه ليس كسمعنا، وبصرَه عز وجل ليس كبصرنا.

٧ ـ والدليلُ علىٰ أنه (متكلِّمٌ) قولُه تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ولكنّ كلامَه تعالىٰ ليس مثلَ كلامِنا، فليسَ صوتاً ولا حرفاً، وقد سبق بيانُ ذلك.

صفاتُ المعاني ليست عينَ الذات ولا غيرَ الذات:

أنتَ ترىٰ أن إثبات هذه الصفاتِ هو كنتيجةٍ لإثبات صفاتِ المعاني، فثبوتُ صفة الحياة له عز وجل تقتضي أنه حيٌّ، وثبوتُ صفةِ السمع تقتضي أنه سميعٌ، وكذا بقيةُ الصفات، ولهذا سُمِّيت الصفات المعنوية، لأنها مقتضىٰ ثبوتِ صفاتِ المعاني، والدليل عليهما من الكتاب والسنة واحدٌ كما تلاحظ، فالآياتُ والأحاديثُ التي تصرِّح بذكر الصفات المعنوية: الحي، القدير، العليم، السميع، البصير هيَ التي نستدل بها علىٰ صفاتِ المعاني، والآيةُ التي صَرّحت بصفة (الكلام) وهيَ من صفاتِ المعاني بها نستدل علىٰ أنه تعالىٰ (متكلمٌ) وهي من الصفات المعنوية، والآياتُ التي صرّحت بأفعالٍ تدل علىٰ الإرادة بها نستدل علىٰ أنه تعالىٰ مريدٌ وله إرادة.

وهذا الكلامُ واضحٌ ظاهرُ الدليل، لكن المعتزلةَ تَبَعاً للفلاسفة قالوا: إذا كانت صفاتُ المعاني السبع؛ أي: الحياة والقدرة والإرادة... إلخ، إذا كانت قائمةً بالذات فهيَ غيرُ الذات، وإذا كانت أيضاً قديمةً فإن القُدَماء علىٰ هذا ثمانية: الذاتُ المقدَّسة وصفاتُ المعاني السبع، وتعدُّدُ القدماءِ كفرٌ باتفاقِ المسلمين، فالصوابُ أن نقول إن الله تعالىٰ حيٌّ بذاته لا بحياة، سميعٌ بذاته لا بسمع، بصيرٌ بذاته لا ببصر.. إلخ، هكذا قال المعتزلة.

وأنت ترىٰ أنّ هذه الشبهةَ لا يوجد من يُثيرها اليومَ وقَلَّ من يستوعِبُها، وإذا أُقيمت الحجةُ علىٰ وجودِ الله تعالىٰ ـ وهي قائمةٌ متعددةُ الأساليب ـ فإنّ الناسَ يُسلِّمون بصفاتِ الله تعالىٰ كما جاءت في الكتاب والسنة ولا يثيرون هذه الإشكالات، ومع هذا لا بد من الإجابة علىٰ هذا الإشكال، لأنه وردَ مع جوابه في مصادرِ أهلِ السنة، والجوابُ كما يلي:

إنّ صفاتِ الذات ليست عينَ الذات من كل وجه؛ أي أن حقيقةَ الذات غيرُ حقيقةِ الصفات، لأنّ الصفةَ غيرُ الموصوف، والله تعالىٰ ذاتٌ متصفٌ بصفات، فكانت الصفاتُ غيرَ الذات من حيث المفهوم، فليست الذاتُ هي مجموعَ الصفات كالعشرة هي مجموعُ آحادٍ عددُها عشرة، وهذه الصفاتُ أيضاً ليست غير الذات من كل وجه، لأنها لا تنفك عنها، فنحن إذا قلنا: علمُ زيد، فزيدٌ شيءٌ وعلمُه شيء، وإذا قلنا: كلامُ عمرو، فعمرٌو شيءٌ وكلامُه شيءٌ آخر، أي يمكن أن ينفك علمُ زيدٍ عن ذاته، وأن ينفك كلامُ عمرٍو عن ذاته، أما صفاتُ الله تعالىٰ فلا تنفك عن ذاته، لأن القِدَمَ لازمٌ لها لذاتِ الله تعالىٰ، أي اقتضتها كمالاتُه تعالىٰ أزَلاً وليست لازمةَ القِدَم بذاتها، فلا تُتَصوَّرُ منفكَّةً عن الذات، فلا تغايرَ بينَ الذاتِ والصفات، ولا بينَ الصفاتِ بعضِها مع بعض، لأن كل صفةٍ منها غيرُ قائمةٍ بنفسِها، ولذا لا تعدُّدَ للقدماء، فالقديمُ ذاتُه تعالىٰ وصفاتُه لازمةٌ لذاتِه؛ أي: اقتضتها كمالاتُ ذاتِهِ أزلاً غيرَ منفكَّةٍ عنها قديمةً بقِدَمها وليست قديمةً بذاتها.

والخلاصة: أن صفاتِ الذات غيرُ الذات لكنها قائمةٌ بها لازمةٌ لها لزوماً لا يقبل الانفكاك، فهيَ دائمةُ الوجود مستحيلةُ العدم، ولذا قلنا ليست عينَ الذات؛ أي: ليست هيَ هيَ، ولا غيرَ الذات؛ أي: غيراً قابلاً للانفكاك.

وقد يقول قائلٌ: الشيءُ إما عينُ غيرِه، كالحِنْطة هيَ عين القمح أو غيرُه فالحنطة غير التمر، فكيف تقولون: لا عينه ولا غيره؟! والجوابُ أن الغيرَ في المثال السابق غيرٌ منفكٌّ، فالحنطةُ غير التمر، ونحن نقول غيرٌ لا يقبل الانفكاكَ عن الذات بل ملازمٌ لها.

والذي جعل أهلَ السنة يعتقدون بصفاتِ المعاني هو ما سبق من الأدلة السمعية علىٰ وجودِها، وقد تقدمت، والذي ألزمَ المعتزلةَ بما قالوا اتباعُ المقالاتِ الفلسفية التي تستند إلىٰ حجج العقل البشري الناقص.

ولاحظ قولَ الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فقد أثبتَ صفةَ الكلام، وقولَ الرسول ﷺ: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك»، رواه البخاري في الدعوات، فقد أثبتَ صفتَي العلم والقدرة، وقولَ السيدةِ عائشةَ رضيَ الله عنها في حديث المجادلة: «الحمدُ لله الذي وَسِعَ سمعُه الأصوات»، رواه البخاري تعليقاً، فقد أثبتت صفةَ السمع.

إذن فالله تعالىٰ: حيٌّ وله حياة، عالمٌ وله علم، قادرٌ وله قدرة، مريدٌ وله إرادة، سميعٌ وله سمع، بصيرٌ وله بصر، متكلِّمٌ وله كلام.

الفرقُ بين صفاتِ الذاتِ وصفاتِ الفعل:

وقد فرَّق العلماءُ بينَ صفات الذات وصفات الفعل، فصفات الذات ما قام بالذات، أو اشتُقَّ من معنىً قائمٍ بالذات كالعلم وعالِم، فالعلمُ صفةٌ من صفات الذات، وكذا عالِمٌ، وهي صفةٌ مشتقةٌ من العلم، وكذلك القدرةُ، وكونُه تعالىٰ قادراً، والسمعُ وكونه تعالىٰ سميعاً، فذاته تعالىٰ متصِفٌ بالسمع والقدرة وهو عز وجل قادرٌ وسميعٌ.

وأما صفاتُ الفعل فهي الصفاتُ المشتقة من معنىً خارجٍ عن الذات، مثل: خالق، فهيَ صفةٌ مشتقةٌ من الخَلْق، والخلقُ خارجٌ عن الذات، فنحن إذا قلنا: سمعُ الله، فهمنا معنىً قائماً بذاته عز وجل، وإذا قلنا خَلْقُ الله فهمنا معنىً غيرَ قائمٍ بالذات، بل خارجاً عنها، فتكون صفةُ (خالق) صفةَ

فعل، وكذا رازق، فهيَ صفةٌ مشتقةٌ من الرزق، والرزقُ معنىً غيرُ قائمٍ بالذات، ويُلاحَظ أيضاً أن الخَلْق والرزقَ أثرٌ من آثارِ القدرة، والقدرةُ من صفات الذات.

صفاتُ المعاني بماذا تتعلّق؟

٣٣ـ فقــدرةٌ بمُمْكــنٍ تَعلَّقَــتْ ... بــلا تنــاهـي مــا بِـهِ تَعَلَّقَــتْ

٣٤ـ ووحدةٌ أوجِبْ لها، ومثلَ ذِي ... إرادةٌ، والعلــمُ لكــنْ عَــمَّ ذي

٣٥ـ وعَـمَّ أيضـاً واجبـاً والممتَنِعْ ... ومثــل ذا كــلامُــهُ فَلْنَتَّبِــعْ

٣٦ـ وكلُّ موجودٍ أَنِطْ للسَّمْعِ بِهْ ... كـذا البَصَـرْ، إدراكُـهُ إنْ قِيـلَ بِـهْ

٣٧ـ وغيـر علـم هـذه كمـا ثَبَـتْ ... ثــم الحيــاةُ مــا بِشَــيْ تَعلَّقَــتْ

تقـدم أن صفـاتِ المعـانـي سبعٌ هـي: الحيـاة، والقـدرة، والإرادة، والعلم، والكلام، والسمع، والبصر، واختُلِف في الإدراك.

ولو قارَنّا بين صفةِ الحياة وصفة القدرة، لوجدنا أن كلّاً منها صفةٌ قائمةٌ بذات الله تعالىٰ، لكن القدرةَ تعني القدرةَ علىٰ شيءٍ ما؛ أي: مع قيامها بالذات تتوجّه إلىٰ أمرٍ زائدٍ علىٰ الذات، لأنّ معنىٰ القدرة يقتضي مقدوراً عليه؛ أي: قابلاً للتأثر بالقدرة، وأما الحياةُ فلا تعني أكثرَ من قيامِها بالذات.

لهذا قال العلماء: إن الصفاتِ التي تقتضي أمراً زائداً علىٰ القيامِ بالذات صفاتٌ متعلِّقة، والصفاتُ التي لا تقتضي أمراً زائداً علىٰ القيام بالذات صفاتٌ غير متعلِّقة، والتعلُّق معناه: طلبُ الصفةِ أمراً زائداً علىٰ الذات يصلُحُ لتلك الصفة.

إذا تقرَّر هذا، فإنّ الحياةَ غيرُ متعلقةٍ بشيء، والقدرةُ متعلِّقةٌ، وكذا بقيةُ صفات المعاني، لكن منها ما يتعلق بالواجب والجائز والمستحيل، وهو العلم والكلام، ومنها ما يتعلق بالجائز فقط، وهو القدرة والإرادة، ومنها ما يتعلق بالواجب والجائز الموجود، وهو السمع والبصر. وهذا الإيجاز يحتاج إلىٰ تفصيلٍ فنقول:

١ ـ إن قدرةَ الله تعالى تتعلَّق بالممكنات؛ أي: أن معنىٰ القدرة يقتضي التأثيرَ فيما يقبل التأثُّر وهو الممكن، وقد تقدم معنىٰ الممكن وأنه ما لا يجبُ وجودُهُ ولا عدمُهُ لذاته، فوجوده ممكنٌ وعدمه ممكنٌ، فهذا الممكنُ قد تتعلَّقُ القدرةُ بوجوده فيوجد كالسمٰواتِ والأرض وما بينهما، والعرشِ والكرسيِّ واللوحِ والقلمِ والجنةِ والنار، وقد تتعلَّقُ القدرةُ بعدم وجوده فلا يوجد، كأن يكون للإنسان جناحانِ يطيرُ بهما، فهذا ممكنٌ لكن قدرةَ الله تعالىٰ أبقتهما في حَيِّز العدم، فكل ما جاز وجودُه فوُجد فوجودُه بقدرةِ الله تعالىٰ، وكل ما جازَ وجودُه ولم يُوجَد فعدمُ وجودِه بقدرةِ الله تعالىٰ.

يبقىٰ الواجبُ لذاته والمستحيلُ لذاته، فهذا لا تتعلَّقُ به القدرة؛ أي: أنّ معنىٰ القدرةِ لا يقتضي التأثيرَ فيهما؛ لأنّ الواجبَ لو توقَّفَ وجودُه علىٰ تعلُّقِ القدرة لما كان واجباً بل يكون جائزاً، والقدرةُ صفةٌ مؤثرة، ومقتضىٰ التأثيرِ الوجودُ بعدَ العدم، والواجبُ لذاته لا يقبل العدم، وذلك مثل كونِ كل الشيء أكبرَ من بعضه وكونِ الجسمِ يشغل حيزاً من الفراغ.

وكذلك المستحيلُ لذاته لا تتعلق به القدرة، لأنّ المستحيلَ ما لا يتصور العقلُ وجودَه، وما لا يتصور العقلُ وجوده لو أمكن وجوده لما كان مستحيلاً بل جائزاً.

ومن هذا يظهر أن قدرةَ الله تعالىٰ تتعلَّق بأشياءَ لا نهايةَ لها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وكل ما وجد ويوجد فهو أثرُ قدرةِ الله تعالىٰ، وقدرتُه عز وجل واحدةٌ لا تتعدد وإن تعدد المقدور عليه.

٢ ـ وأما إرادة الله تعالىٰ فتتعلَّق بالجائزات (الممكنات)؛ أي: أنها هيَ التي خصَّصت كلَّ ممكنٍ ببعض ما يجوز عليه، فالممكنُ يجوز عليه الوجودُ والعدمُ والحركة والسكون.. إلخ، فكل صفةٍ لكل ممكنٍ هي من آثارِ إرادة الله تعالىٰ، أما الواجبات فلا تتعلَّق بها الإرادة، أي ليس من مقتضىٰ الإرادة ومعانيها أن تؤثِّرَ في الواجبات؛ لأنّ الواجبَ لو توقف علىٰ تعلُّقِ الإرادةِ لما كان واجباً بل جائزاً، وكذلك المستحيلاتُ لا تتعلَّقُ بها الإرادة، لأنها لو أمكن وجودُها بالإرادة لما كانت مستحيلةً بل جائزة، كما سبق في تعلُّق القدرة.

وإرادةُ الله تعالىٰ واحدةٌ وإن كانت آثارُها كثيرةً غيرَ متناهية، ودليلُ عموم تعلُّقِ الإرادةِ بالممكناتِ قولُ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢].

٣ ـ وأما علمُ الله تعالىٰ فيتعلّق بالواجبات والجائزات والمستحيلات، فالله تعالىٰ يعلمُها جميعاً علىٰ ما هيَ عليه، فإنه عز وجل يعلم جميعَ الممكنات ما كان منها وما يكون، ويعلم المستحيلَ وأنه مستحيلٌ، كاستحالة الشريك لله والولد والصاحبة له عز وجل، ويعلم الواجبَ وأنه واجبٌ، كوجوبِ وحدانيته تبارك وتعالىٰ وكلٍّ ما يجبُ له عز وجل.

ومن هذا يتبين أن علمَ الله تعالىٰ غيرُ متناهٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالىٰ عن نفسه عز وجل: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: ٧٣].

٤ ـ وأما كلامُ الله فيتعلَّق أيضاً بالواجب والجائز والمستحيل، فقد أخبرنا الله تعالىٰ عن بعض الواجبات فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وأخبرنا عن بعض الجائزاتِ فقال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: ٨]، وأخبرنا عن بعض المستحيلات فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

٥، ٦ ـ وأما سمعُ الله تعالىٰ وبصرُه فيتعلَّقان بكل موجود، وكذلك إدراكُه عز وجل إن قلنا بوجود هذه الصفة، فكلُّ موجودٍ يُحيط به السمعُ ويُحيط به البصرُ ويُحيط به الإدراك، سواءٌ كان الموجودُ واجباً أم جائزاً، لكنّ وجهَ تعلُّق السمعِ غيرُ وجهِ تعلُّقِ البصر، وهما غيرُ تعلُّقِ الإدراك.

والعلم والكلام والسمع والبصر والإدراك صفاتٌ متغايرةٌ وإن كانت تشترك في المتعلَّقات، لأن وجهَ تعلُّقِ كلٍّ منها يختلف عن وجهِ تعلُّقِ غيرِه.

والمعلوماتُ، والمتكلَّم به، والمسموعات، والمبصَرات، والمدرَكات: وإن تعددت لكنّ صفةَ العلم واحدةٌ وكذلك صفةُ الكلام وصفةُ السمع، وصفةُ البصر، وصفةُ الإدراك، فكلُّ صفةٍ من هذه الصفاتِ واحدةٌ وإن كانت متعلَّقاتُها متعددةً.

٧ ـ وأما صفةُ الحياة، فلا تتعلَّق بشيء كما تقدم؛ أي: أنها لا تقتضي أمراً زائداً علىٰ قيامِها بالذات.

بعدَ هذا نبين لك أنّ العلماءَ قالوا: «معرفةُ التعلُّقاتِ غيرُ واجبةٍ علىٰ المكلَّف لأنها من غوامض علم الكلام»، انظر «حاشيةَ الباجوري علىٰ جوهرة التوحيد» ص٤٨، وأنت ترىٰ أنّ معنىٰ التعلُّقِ دقيقٌ لا يدركه إلا الفَطِن، ولذا

لم يكلَّف به الناس، وإنما يذكرُه العلماءُ للرد علىٰ شُبَهٍ تُثار، فيكون طالبُ العلم عارفاً بالردِّ علىٰ الشُّبَهِ وأصحابِها، كقول الجاهل: هل يستطيع الله تعالىٰ أن يُخرجني من مُلْكِه؟ والجوابُ: هل يَتصوَّرُ العقلُ مكاناً غيرَ مملوكٍ للهِ تعالىٰ؟ والجوابُ: لا، فيُقال ما لا يتصوَّره العقلُ هو المستحيل، والمستحيلُ لا تتعلَّق به القدرة، وقد سبقَ الجوابُ في ص٦١.

أسماء الله تعالىٰ وصفاته قديمة:

٣٨ـ وعندَنا أسماؤُهُ العَظِيمة كذا صِفاتُ ذاتِهِ قَدِيمَة

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال رسولُ الله ﷺ: «إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مائةٌ غيرُ واحد، مَن حَفِظَها دخلَ الجنة، وهو وترٌ يحب الوتر» رواه البخاري ومسلم، وقد اعتنىٰ العلماءُ بجمع أسماءِ الله الحسنىٰ من القرآن الكريم والسنة المطهَّرة، وهذه الأسماءُ منها ما يدل علىٰ ذاتِ الله تعالىٰ، وهو اسمُ: (الله)، ومنها ما يدل علىٰ الذات مع ملاحظةِ صفةٍ من صفاتِ الله عز وجل، مثل: (العليم)، فهو يدل علىٰ الذات مع ملاحظة صفة العلم، و(القادر)، فهو يدل علىٰ الذات مع ملاحظة صفةِ القدرة، والمرادُ هنا بيانُ أن هذه الأسماءَ الحسنىٰ قديمةٌ والله تعالىٰ هو الذي سمّىٰ نفسَه بها كما دل علىٰ ذلك قولُ الرسول ﷺ في دعائه: «أسألك بكل اسمٍ هو لكَ سمَّيتَ به نفسَك أو أنزلته في كتابَك أو استأثرت به في علمِ الغَيبِ عندك..» الحديث، انظر «الأسماء والصفات» للإمام البيهقي ص٦، وقد علَّم الله تعالىٰ بعضَ هذه الأسماء لعباده بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهيَ أسماؤه تعالىٰ قبلَ أن يخلُقَ الخَلْق، فهو القادر قبلَ أن توجد الأشياءُ بقدرته، وهو السميعُ قبلَ أن توجد المسموعاتُ والموجودات،

فليس الخَلْقُ هم الذين سمَّوه تعالىٰ بها، بل هو عز وجل الذي سمَّىٰ نفسه بها في القِدَم.

وكذلك صفاتُ ذاته عز وجل قديمةٌ، فحياته وقدرتُه وإرادتُه وعلمُه وكلامُه وسمعُه وبصرُه عز وجل: كلُّها قديمةٌ، وقد سبقت الإشارة إلىٰ ذلك عندَ بيان هذه الصفات.

ومن هذا نعلم أن الله تعالىٰ ليس كمثله شيءٌ، فالإنسان يُولَد بلا اسم ثم يُسمِّيه الناس باسم، وقد يجعلون له لقباً كالعادل أو كنيةً كأبي فلان، ويُولد بلا سمعٍ ولا بصرٍ ولا علمٍ ولا كلام، ثم يمنحه اللهُ تعالىٰ ما شاء من هذه الصفات وغيرها، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، والله تعالىٰ ذاته قديمةٌ، وأسماؤه قديمةٌ، وصفاته قديمةٌ، فتبارك الله وتعالىٰ.

أسماء الله تعالىٰ وصفاته توقيفية:

٣٩ـ وٱخْتِيرَ أنّ أسمَاهُ تَوقِيفِيّةْ   كـذا الصفـاتُ فـٱحْفَـظِ السَّمْعِيّـةْ

الاسمُ في هذا المقام ما دلَّ علىٰ ذاتِ الله تعالىٰ، والصفةُ ما دلَّ علىٰ معنىً زائدٍ علىٰ الذات، ومعنىٰ التوقيف: الوقوفُ عندَ ما جاء به الشرعُ من الكتاب أو السنة، إذا تبين هذا فإنّ المختارَ عندَ أهل السنة والجماعة أن أسماءَ الله تعالىٰ توقيفية، فليس لنا أن نُطلِقَ علىٰ الله تعالىٰ اسماً لم يرد في الكتاب أو السنة، وليس لنا أن نَصِفَهُ تعالىٰ بوصفٍ لم يرد في الكتاب أو السنة، ولذا رأينا الخلافَ في جواز صفة «الإدراك»؛ وأنتَ ترىٰ المسلمين ـ ولله الحمد ـ لا يسمُّون الله تعالىٰ باسمٍ ولا يصفونه بوصفٍ إلا بدليل، فلنَقِفْ عندَ ما ورد به الدليل، وأسماءُ الله تعالىٰ الواردةُ في الكتاب والسنة

يجب حملُها علىٰ المعنىٰ اللائقِ بالله تعالىٰ، مثل «الصَّبُور»، فإنّ الصبرَ معناه: حبسُ النفس علىٰ المشاقّ، وهذا المعنىٰ مستحيلٌ علىٰ الله تعالىٰ، فيُحمَلُ الصبرُ في حقه تعالىٰ علىٰ معنىٰ أنه لا يُعجِّلُ بالعقوبة، و«الحليم» فإنّ الحلمَ هو: الصبرُ علىٰ الأذىٰ، وهذا المعنىٰ لا يليق بالله تعالىٰ، فيُحمَلُ علىٰ معنىٰ أنه الذي لا يعجِّلُ بالعقوبة علىٰ مَن عصاه، فهو بمعنىٰ الصَّبُور، وقد نبَّه إلىٰ هذا العلماءُ الذين شرحوا معاني أسماء الله الحسنىٰ كالإمام الغزالي في كتابه «المقصِد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ»، والإمام البيهقيّ في كتابه «الأسماء والصفات»، وغيرهما.

كيف نفهمُ النصوصَ المتشابهة؟

٤٠ـ وكلُّ نَصٍّ أَوهَمَ التشبِيها أوِّلْهُ أو فَوِّضْ وَرُمْ تَنزِيها

من صفاتِ الله تعالىٰ: المخالفةُ للحوادث، وقد سبق بيانُ هذه الصفة وأنّ الدليلَ عليها قولُ الله تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١]، والحوادثُ كلُّ ما سوىٰ الله تعالىٰ، ومن صفاتها أنّ لها صورةً وجسماً، وهي مؤلفةٌ من أجزاء، ولها زمانٌ خاص، ومكانٌ خاص.. إلخ، والله تعالىٰ لا يُشبِهُها في شيء من هذا ولا غيره.

لكننا نجد نصوصاً؛ أي: آياتٍ، وأحاديثَ نبوية، لو فهمناها علىٰ ظاهرها لاقتضت الشَّبَهَ بينَ الله تعالىٰ وبينَ الحوادث، وهذا مخالفٌ لقول الله تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، والقرآنُ يصدِّق بعضُه بعضاً ولا يُناقِضُ بعضُه بعضاً، ومن ذلك قولُ الله عز وجل: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠]، فقد يتبادر للذِّهن مِن الآية: أن اللهَ تعالىٰ في فوق، والملائكةَ في سُفْل، كما يكون المَلِكُ في أعلىٰ البناء والحاشيةُ والخَدَمُ في أسفله، وهذا

المعنىٰ مستحيلٌ علىٰ الله تعالىٰ، لأنه تشبيهٌ له بالحوادث، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، فقد يتبادر للذهن أن اللهَ تعالىٰ كان خارجَ ساحاتِ القيامة ثم جاء إليها كما يجيء المَلِكُ إلىٰ الاحتفال، وهذا المعنىٰ مستحيلٌ أيضاً لأنه تشبيهٌ بالحوادث، وكقولِ الرسول ﷺ: «ينزل الله عز وجل كلَّ ليلةٍ إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثُلُثُ الليل الآخِر فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأعطيَه، من يستغفرني فأغفرَ له»، رواه البخاري ومسلم، وقد يتبادرُ للذهن أنّ الله تعالىٰ في مكانٍ أعلىٰ من السماء الدنيا فينزل إليها، وهذا المعنىٰ مستحيلٌ علىٰ الله تعالىٰ، وقد اتفق علماءُ السلف والخلف من أهل السنة والجماعة علىٰ أن كل نصٍّ يُوهِمُ ظاهِرُهُ مشابهةً بينَ اللهِ تعالىٰ وشيءٍ من خلقه يجبُ تأويلُه؛ أي: اعتقادُ معنىً له لا يفيد المشابهة، لأنّ القرآنَ عربيُّ الألفاظِ والأساليب، والعربُ يُطلِقُون الكلامَ ويُريدون ظاهِرَه، وهذا هو الأصل، وقد يُريدون غيرَ المعنىٰ الظاهر المتبادر لسببٍ ما، وهذا ما يُسمّىٰ المجاز، وإذا لم يمكن حملُ الكلامِ علىٰ ظاهره يجبُ حملُه علىٰ غيرِ الظاهر وهذا هو التأويل، فالنصوصُ التي يفيد ظاهرُها التشبيهَ يجبُ تأويلُها حتىٰ لا يقع التناقضُ بينَها وبينَ قولِ الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ولعلماء السنة أسلوبان في التأويل:

الأول: مذهبُ علماء السلف، وهم الذين كانوا قبلَ نهاية القرن الثالث الهجري، أو قبلَ نهاية القرن الخامس الهجري؛ أي: الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة الأربعة وكبار علماء مذاهبهم، وهؤلاء يقولون: الظاهرُ من هذه الآيات غيرُ مرادٍ والله أعلمُ بمراده منها، فهم يفوّضون معناها إلىٰ الله تعالىٰ، ولذا سُمِّيَ مذهبُهم مذهبَ «التفويض»، أي أن المعنىٰ الحقيقيَّ لهذه الآياتِ لا يعلمه في نظرهم إلا الله.

الثاني: مذهبُ الخَلَف، وهم الذين جاؤوا بعدَ السلف، وهؤلاء أيضاً يقولون الظاهرُ غيرُ مراد، بل المرادُ كذا وكذا، فيعيِّنون للآيةِ معنىً لا يقتضي التشبيه. ومذهبهم يُسمّىٰ مذهبَ «التأويل».

فقولُ الله تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يقولُ السلف فيه: المرادُ بالفوقية هنا «فوقيةٌ» الله أعلم بها، أما نحن فلا نعلمها، والخَلَف يقولون: المرادُ بالفوقية هنا التعالي في العظمة، بدليلِ قولِ الله تعالىٰ فيما حكاه عن قومِ فرعونَ في كيدِهم للمؤمنين من بني إسرائيل: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ومعلومٌ أن الفراعنةَ لم يكونوا فوقَ الإسرائيلين في المكان بل في المعنىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طٰه: ٥]، يقول السلف: المرادُ بالاستواء «استواءٌ» لا نعلم حقيقتَه، ونفوِّضُ علمَه إلىٰ اللهِ تعالىٰ، ويقول الخَلَف: المرادُ بالاستواء الاستيلاءُ والمُلْك؛ أي: أنّ العرشَ فما دونَه مُلْكٌ لله طائعٌ له، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي توجهت إرادته إليها، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فُصِّلت: ١١]، فالسماء والأرض والعرش كلها ملكٌ لله طائعٌ له.

والسَّلَف والخَلَف أوّلوا الآيةَ بهذين التأويلين من أجل أن ينفوا ما يتبادر إلىٰ ذهن العوام من أن «استوىٰ» معناها قعد أو جلس، فهذا المعنىٰ مستحيلٌ علىٰ الله، لأنه تشبيهٌ لله تعالىٰ بخلقه.

والآياتُ التي لا يصح حملُها علىٰ ظاهرها تُسمّىٰ «المتشابهات»، وقد قال الله تعالىٰ لنبيه محمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا

بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧-٨]، فبيَّن الله تعالىٰ أن القرآنَ فيه محكَمٌ ومتشابه، والمحكَمُ هو الذي لا إشكالَ في حمله علىٰ ظاهره، وهو معظَمُ القرآن، وهو قواعدُ الدين، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وأما المتشابهُ فهو الذي لا يمكن حملُه علىٰ ظاهره، لأن ظاهرَه يتعارضُ مع الآياتِ المحكَمة.

وقد بيّن اللهُ تعالىٰ أنّ للناس من الآياتِ المتشابهةِ موقفين.

أما الذين في قلوبهم زيغٌ فإنهم يتّبعونها لإثارة الفتنة، واستنباط معاني توافق أهواءهم. وأما المؤمنون فيهتمون بالمحكَم أولاً، ولا يثيرون الشُبه حولَ المتشابه، ويسألون اللهَ تعالىٰ أن يثبّتهم ولا يُزيغ قلوبهم، لكن هل يستطيع العلماءُ الراسخون أن يعرفوا معنىً للمتشابه لا يتعارض مع المحكم؟ للعلماء في هذا قولان: فمنهم من قال: لا يمكن، لأنّ الله تعالىٰ قال عن المتشابه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فقد حصرت الآيةُ علمَه بالله تعالىٰ، وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ فجملةٌ مستأنفةٌ؛ أي: الراسخون مبتدأٌ وخبرُه ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وهذا مذهبُ كثيرٍ من السلف ومن تَبِعَهم من الخَلَف.

ومن العلماء من قال: الراسخون في العلم يعرفون معنىٰ المتشابه الموافِقِ للمحكَم، واحتجوا بقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ فرأوا أنّ كلمةَ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ معطوفةٌ علىٰ لفظ الجلالة؛ أي: يعلمون تأويلَه بما علّمَهم الله تعالىٰ، وهذا مذهبُ بعضِ السلف وكثيرٍ من الخَلَف، ولذا استنبطوا للمتشابه معانيَ توافق المحكم.

وخلاصةُ القول: أن السلفَ والخلفَ متفقون علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن المشابهة لخلقه، لكن السلفَ يرون التنزيهَ مع تفويضِ المعنىٰ المرادِ من الآياتِ (التي تُوهِمُ التشبيه) إلىٰ الله تعالىٰ، والخَلَفُ يرون أن التنزيهَ يقتضي حملَ الآيات التي توهم التشبيهَ علىٰ معنىً لا تشبيهَ فيه، ولنا أن نأخذَ بمذهب السلف، ولنا أن نأخذَ بمذهب الخلف، لكن قالوا: مذهبُ السلف أسلم، ومذهبُ الخلف أحكم، ووجهُ السلامة في مذهب السلف أنك إذا عَيَّنْتَ معنىً للآية ـ كما هو مذهب الخلف ـ قد تكون مخطئاً، لأنه معنىً غيرُ قطعي، وبهذا تعرِّضُ نفسَك للمسؤولية أمامَ الله تعالىٰ، ووجهُ الإحكام في مذهب الخلف أنه أقوىٰ في الردِّ علىٰ أصحاب الزيغ الذين يريدون إثارةَ الفتنة من البحث في المتشابه ليؤيدوا مذاهبهم.

ومن الجدير بالذكر أن النصوصَ المتشابهةَ ليست متشابهةً من كل وجه، بل لها معانٍ محكمةٌ لا خلافَ فيها، ومن أجلها ورد النص، فهي المقصودُ الأول من النص، مثلاً: قولُ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، هذه الآيةُ جاءت في موضوع بيعة الرضوان، وهي تبين أنَّ الذين بايعوا النبيَّ ﷺ في غزوة الحديبية هم في الحقيقة مبايعون لله تعالىٰ، وعندما وضعوا أيديهم في يد النبي ﷺ تأكيداً للبيعة هم في الواقع أكّدوا البيعةَ مع الله تعالىٰ، فليحرصوا علىٰ الوفاء، وهذا المعنىٰ لا خلافَ فيه، وهو المرادُ الأولُ من الآية، لكن ما المرادُ باليد في قوله تعالىٰ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؟ السلفُ يقولون: نحن نحرصُ علىٰ المعنىٰ الأول ولا نخوضُ في المرادِ باليد، ونفوِّضُ المعنىٰ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، والخلفُ يقولون: المرادُ باليد القدرة والهَيْمَنة، كما يُقال: فلانٌ وضعَ يدَه علىٰ الأرضِ الفُلانية. والكلُّ متفقون علىٰ أنَّ الله تعالىٰ ليست له يدٌ كأيدينا.

أما الذين يقولون: له يدٌ كأيدينا، أخذاً بالمعنىٰ اللغويّ لليد فهم المشبِّهة، وهم كفارٌ، لأنهم شبّهوا الله تعالىٰ بخلقه وخالفوا الآيةَ الواضحةَ المحكمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، والذين يقولون: له يدٌ تليق به تعالىٰ هم الحنابلة من أتباع الإمام أحمد بن حنبل، وهم يتفقون مع الجمهور في عدم التشبيه.

والذي يدقِّق النظرَ يجد أقوالَ غيرِ المشبِّهة متقاربةً، لأن اليدَ في اللغة هيَ يدُ الإنسان المعروفة، فإذا أُطلِقَتْ علىٰ غيرِها كان مجازاً، سواء قلنا بعدَ ذلك: الله أعلمُ بمراده، أو قلنا: المرادُ القهرُ والغلبة، أو قلنا: يدٌ تليق بجلاله.

والكلُّ يريدُ التنزيهَ، فلا داعيَ لإثارة الخلاف والعداوة بين المسلمين وهم يواجهون الملاحِدةَ والجاحدين، ويجبُ الاهتمام بالمعنىٰ الذي سِيقَ النصُّ من أجله، والعملُ بموجبه، فقولُ الرسول ﷺ: «ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلىٰ السماء الدنيا حينَ يبقىٰ ثلثُ الليل الأخير ويقول: مَن يدعوني فأستجيبَ له، مَن يسألني فأعطيَه، مَن يستغفرني فأغفرَ له» متفَّق عليه، المرادُ بالحديث الحثُّ علىٰ الاستيقاظِ في الثلث الأخير من الليل والاشتغالُ بالدعاء والاستغفار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، فالاشتغالُ بمعنىٰ النزول مع الغفلة عن قيام هذه الساعاتِ المباركةِ انحرافٌ عن التوجيه النبوي وطلبٌ للفتنة، وهكذا فليتفطن المؤمنُ لما يبعثه علىٰ العمل الصالح لا لما يفتح بابَ الجدل.

هذا وقد تولَّت كتبُ تفسير القرآن وكتبُ شرح الأحاديث توجيهَ النصوص المتشابهة فلتُراجَع عندَ الإشكال، والمهم ألا يقعَ المسلمُ في التشبيه، أي: تشبيهِ الله تعالىٰ بشيءٍ من خلقه، ولا في التعطيل، وهو نفيُ الصفاتِ عن الله تعالىٰ.

القرآنُ كلامُ الله غيرُ حادث:

٤١ـ ونَـزِّهِ القـرآنَ؛ أي: كـلامَـهْ عَـنِ الحُـدُوثِ وٱحْـذَرِ انتِقـامَـهْ
٤٢ـ فكـلُّ نَـصٍّ للحُـدُوثِ دَلاَّ احْمِلْ علىٰ اللَّفْظِ الـذي قَـد دَلا

تقدَّم في صفة الكلام أن الكلامَ يُطلَق علىٰ الألفاظ، ويُطلَق علىٰ المعنىٰ الذي دَلَّت عليه الألفاظ، وعلىٰ الكتابة والحروف التي تدل علىٰ الألفاظ، ومذهبُ أهل السنة والجماعة أن كلامَ اللهَ القديمَ هو المعنىٰ القائمُ بذاته عز وجل، وأما الألفاظُ والحروفُ فليست قديمةً، لأنها لغةُ العرب، والعربُ ولغتُهم من جملةِ الحوادث، وقلنا: إنّ هذا يُقالُ في مجال التعليم والردِّ علىٰ المعتزلة وغيرِهم من القائلين بخَلْق القرآن.

بناءً علىٰ ما تقدم فإن موقفَ أهل السنة من مسألة خلق القرآن كما يلي:

١ ـ عدمُ الخوض في هذه المسألة والاكتفاءُ بما اكتفىٰ به السلف، وهو القول بأنّ: (القرآنَ كلامُ الله تعالىٰ)، من غير تفصيلٍ بينَ المعنىٰ وغيرِه من الألفاظ والحروف.

٢ ـ إذا احتجَّ القائلون بخَلْق القرآن لمذهبهم بقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أو غيرِ هاتَين الآيتَين مما يدل ظاهرُهُ علىٰ حدوث القرآن وخَلْقه نقول لهم: لفظُ (القرآن) ولفظُ (كلام الله) يطلقان علىٰ المعنىٰ وعلىٰ اللفظ والحروف، أما المعنىٰ فقديمٌ، لأنه صفةٌ من صفات الله تعالىٰ، وهي قديمةٌ كما ذكرنا، وأما اللفظ الذي نسمعه فهو المنزَل، وهو الذي نقرأه ونكتبه ونُعرِبُه، وهو الذي سمّاه الله تعالىٰ: (ذكراً، ومُحدَثاً، وعربياً)، وهو مُنزَلٌ علىٰ النبيِّ محمّدٍ ﷺ ومتلوٌّ، ومرتَّبٌ، وفصيحٌ، وبليغٌ، ومعجزةٌ، ومشتملٌ علىٰ مقاطعَ ومبادىءَ وغيرِ ذلك مما يوصف به كلام

البشر الحادث، أي أننا نحمل ما دل من النصوص على حدوث القرآن نحمله على اللفظ لا على المعنى.

المستحيلُ في حقِّ الله تعالى:

٤٣- ويَستَحِيلُ ضِدُّ ذِي الصِّفاتِ   في حَقِّـهِ كـالكَـوْنِ فـي الجِهـاتِ

بيّنّا فيما مضى الصفاتِ الواجبةَ لله تعالى، والواجبُ: ما لا يتصوَّر العقلُ عدمَه، ولذا فإنّ ضدَّ هذه الصفاتِ مستحيلٌ في حق الله تعالى؛ أي: لا يتصور العقلُ وجودَه، وعلى سبيلِ الإيضاح نقول: يجبُ لله تعالى الوجود، ويستحيلُ عليهِ العدم، ويجبُ له القِدَم، ويستحيلُ عليه الحدوث، ويجب له البقاء، ويستحيلُ عليه الفناء، ويجبُ له مخالفةُ الحوادث، ويستحيلُ عليه مشابهتها، فلا يُوصَفُ تعالى بأنه فوقٌ أو تحتٌ أو يمينٌ أو شمالٌ أو أمامٌ أو خلفٌ، لأن هذه صفاتُ الحوادث، وهي أمورٌ نسبيةٌ للحوادث؛ أي: اعتباراتٌ وُجِدَت بوجود الحوادث، بدليل: أنّ السقفَ فوقٌ لمن تحتَه وتحتٌ لمن فوقَه، والجالسَ بينَك وبينَ آخرَ إن كان على يمينك فهو على شماله، وإن كان على شمالك فهو على يمينه، وما كان أمامك قد يكون خلفَ غيرِك، وهكذا، والله تعالى قبلَ الزمان والمكان، فلا يصحُّ أن يُوصَفَ بصفاتِ الحوادث.

الجائزُ في حقِّ اللهِ تعالى:

٤٤- وجـائـزٌ فـي حَقِّـهِ مـا أَمْكَنـا   إيجـاداً أَعْـدامـاً كـرِزْقِـهِ الغِنـى

الجائزُ: ما يمكن عقلًا وجودُه وعدمُه؛ أي: أنّ العقلَ يَتصوَّر وجودَه ويتصوَّر عدمَه، وكل ما جاز عقلًا فإنه يجوزُ على الله تعالى إيجاده وإعدامه،

وإن كان مستبعَداً عادةً، أو لم تجرِ به العادة، فمثلاً أن يكونَ فلانٌ غنياً أمرٌ جائز، فيجوزُ علىٰ الله تعالىٰ أن يجعلَه غنياً، وأن يكونَ فُلان عالماً أمرٌ جائز، فيجوز علىٰ الله تعالىٰ أن يجعله عالماً، وهكذا.

ويجوزُ عقلاً أن يمشيَ إنسانٌ علىٰ الماء بلا واسطة وإن لم تجرِ به العادة، فيجوز علىٰ الله تعالىٰ أن يُكرِمَ أحدَ عباده بذلك، وهو ما يُسمىٰ بالكرامة، وأن يطيرَ إنسانٌ في الهواء بلا واسطة جائزٌ عقلاً، وإن لم تجرِ به العادة، فيجوزُ علىٰ الله تعالىٰ أن يُكرِمَ عبداً من عباده بذلك.

ولكن الله تعالىٰ رحمةً منه بخلقه جعلَ للكون سُنَناً ثابتةً لكي تنتظم حياتهم، فشروقُ الشمس وغروبُها، وقوانينُ الحياة في الزراعة وغيرِها، وخواصُّ الأشياءِ من كائناتٍ حيةٍ وجامدة: ثابتةٌ بقدرةِ الله تعالىٰ، وقد يَخرِقُ هذه السنن في أحيانٍ نادرةٍ معجزةً للأنبياء أو كرامةً للأولياء أو استدراجاً للأشقياء، ليَشعرَ الناسُ بقدرة الله تعالىٰ، وليعلموا أن ثباتَ نظام الكون هو بقدرة الله عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وجديرٌ بالذكر أن المرادَ بسُنة الله في هذه الآية وأمثالها سنتُه تعالىٰ في إهلاك الكافرين والظالمين، لكن العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول العلماء.

خلقُ الأفعال:

٤٥ـ فخالِقٌ لعبدِهِ وما عَمِلْ   مُوفِّقٌ لمَنْ أرادَ أنْ يَصِلْ
٤٦ـ وخاذِلٌ لمَنْ أرادَ بُعْدَهُ   ومُنْجِزٌ لمَنْ أرادَ وَعْدَهُ

في كتب التوحيد خسمةُ مواضيعَ يرتبط بعضُها ببعض، حتىٰ أن غير المتخصِّص لا يفرِّق بينها ويؤدي ذلك إلىٰ اشكال في النتائج:

الموضوع الأول: علمُ الله تعالىٰ، وقد سبق أنه قديمٌ محيطٌ بكل شيء، فهو تعالىٰ يعلم الأشياء قبلَ وقوعها، ولا بد أن تقعَ موافِقةً لعلمه تعالىٰ، أو قُل: إنّ علمَه تعالىٰ مطابِقٌ لما سيقع.

الموضوع الثاني: خَلْقُ الأفعال، ومذهبُ أهل السنة أنّ الله تعالىٰ هو خالقُ الأفعال كما أنه هو خالقُ الأشياء، فلو وُضِعَت ورقةٌ في النار فاحترقت فإنّ خالقَ الاحتراقِ هو الله تعالىٰ، ونسبةُ الإحراق إلىٰ الإنسان أو إلىٰ النارِ مَجازية، بدليلِ أنّ إبراهيمَ عليه السلام أُلقِيَ في النار ولم يحترق، مع أن قومَه آثمونَ لإرادتهم إحراقَه.

الموضوع الثالث: مناطُ الجَزاء؛ أي: علىٰ أيِّ شيءٍ يحاسَبُ العبد؟ فإذا كان علمُ الله سابقاً، وهو خالقُ الأفعال؛ فما علاقة العبد بالأفعال ليحاسَبَ عليها؟ وسيأتي أنه يُحاسَبُ علىٰ اختياره للأفعال.

الموضوع الرابع: القضاء.

الموضوع الخامس: القدر.

وسيأتي الحديثُ عنهما قريباً إن شاءَ الله.

والحديثُ هنا عن خلق الأفعال، وعقيدةُ أهل السنة أن الله تعالىٰ خَلَقَ الذواتِ كلَّها، وهذا لا خلافَ فيه بين المؤمنين بالله، وهو خالقُ الأفعال أيضاً سواءٌ منها ما كان إرادياً أو اضطرارياً؛ أي: غيرَ إرادي، كحركة القلب والرئة والدم في الجسم، وكذا حركة المرتعش بسبب المرض أو البرد وغيرهما، ولا خلافَ أيضاً في أن الاضطراريَّ مخلوقٌ لله تعالىٰ، لكن قد يستشكل البعضُ أن تكونَ الأفعال الإراديةُ مِن خَلْقِ الله تعالىٰ، وذلك نظراً إلىٰ أمرين:

الأول: أننا في الحياة اليومية نرىٰ العطشانَ يشربُ فيروىٰ، فنقول: أرواه الماء، فننسب الرِّيَّ إلىٰ الماء، ونرىٰ الجائعَ يأكل الطعامَ فيشبع فنقول: أشبعه الطعام، ونرىٰ من يرمي ورقةً في النار فتحترق فنقول: أحرقَ فلانٌ الورقةَ، أو نقول: أحرقت النارُ الورقة، وهكذا. .

الثاني: أن الله تعالىٰ نسبَ الأفعالَ في القرآن الكريم إلىٰ الناس فقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٨٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: ٣٠، ١٠٧]، وقال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

والجوابُ علىٰ هذين الإشكالين ما يلي:

١ ـ إن وجودَ المسبَّب لا يتأخر عن وجود السبب، ولو كان الاحتراقُ بسبب ملاقاةِ النار للأجسام القابلة للاحتراق لوُجِدَ الاحتراقُ كلما وجدت الملاقاة، وكل مؤمنٍ يعتقد أنّ إبراهيمَ عليه السلامُ أُلقِيَ في النار فلم يحترق، وإسماعيلُ حُزَّت رقبتُه بالسكّين فلم تنقطع، فدلَّ هذا علىٰ أن الحارقَ الحقيقيَّ هو الله تعالىٰ، والقاطعَ الحقيقيَّ هو الله، لكن أجرىٰ الله العادةَ أن يقترنَ الإحراقُ بملاقاةِ النار، ويقترنَ القطعُ بالحزِّ بالسكين، وهكذا. . ، فنسبةُ الإحراقِ للنارِ والقطع للسكين من باب المجاز، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وكلُّ معجزةٍ وكرامةٍ خرقٌ للعادة، أي: تخلُّفٌ للمسبَّب عن السبب، أو وجودٌ للمسبَّب من غير وجود السببِ المعتاد، كنبع الماء من بين أصابع النبيِّ محمدٍ ﷺ، رواه البخاري ومسلم، ووجودِ الناقة من الصخرة بدعاءِ النبيِّ صالحٍ عليه السلام.

نعم جرت سنةُ الله في خلقه أن يخلقَ المسبَّبات عندَ وجودِ الأسباب وانتفاءِ الموانع، لكن هو الذي خلق الأسبابَ والمسبَّبات، ورتب المسبَّبات علىٰ الأسباب، وقد التبسَ هذا علىٰ بعض الناس فظنوا أن الأسبابَ هي التي أوجدت المسبَّبات، وهذا خطأٌ، بدليلِ أن الله تعالىٰ يجعل المسبَّبات تتخلَّف عن الأسباب كما سبق.

٢ ـ وأما نسبةُ الفعل إلىٰ الناس فذلك لأنهم اختاروا وجودَه وباشروا أسبابه وظهرَ منهم، فالذين اختاروا حرقَ إبراهيمَ عليه السلام آثمون وإن لم يحترق، وهذه مسألةُ الكسب، وهو مناطُ التكليف كما سيأتي قريباً إن شاء الله.

فتلخَّصَ من كل هذا أنّ اللهَ تعالىٰ هو الخالقُ الحقيقيُّ لكلِّ الذواتِ والأفعال، ونسبةُ ذلك إلىٰ غيره مجازيةٌ، كقول الله تعالىٰ عن عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]، فالخَلْقُ هو الإيجاد من العدم، وعيسىٰ عليه السلام ما أوجدَ من العدم، بل شكَّل الموجودَ بشكلٍ معين، والذي أقدره علىٰ ذلك هو الله عز وجل، فنسبَ تشكيلَ الصورة إلىٰ عيسىٰ عليه السلام، وليس له في ذلك إلا الاختيار.

والذي دعا أهلَ السنة إلىٰ هذا أنه لا يجوز الاعتقادُ بخالقٍ غيرِ الله، قال الله تعالىٰ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، والآياتُ في هذا المعنىٰ كثيرةٌ، وهيَ تَعُدُّ نسبةَ الخلق إلىٰ غيرِ الله شركاً.

وبناءً علىٰ هذا فالذي عمل الصالحاتِ عملها بتوفيقِ الله تعالىٰ، فهو الذي جعلَ له الأعضاءَ التي باشر بها الطاعةَ وجعل في نفسِهِ الرغبةَ في تلك

الطاعة، ثم تفضَّلَ عليه بالثواب والرِّضىٰ والمحبة ودخول الجنة، ولذا يقول أهل الجنة في الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

والذي عمل المنكراتِ ما عملها رغماً عن إرادة الله، لكنه اختارَ طريقَ المعصية وباشرَ الأسبابَ التي تؤدي إليها، واستعمل خواصَّ الأشياءِ التي جعلها الله لها، استعملها لتؤدي إلىٰ المنكر.

فالموفَّقُ والمخذُولُ كلاهُما في قبضةِ الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ أي: لمّا اختاروا الزيغَ خلقه الله فيهم.

مسألة إنجاز الوعد والوعيد:

وقد وعدَ الله الصالحين بالثواب والجنة وتوعَّد الكافرين والعصاةَ بالنار، وشواهدُ هذا كثيرةٌ في كتابِ الله وسنةِ نبيه محمدٍ ﷺ، واستقرَّ في نفوسِ المؤمنينَ أنّ الجنةَ للطائعين والنارَ للعصاة والكافرين، لكن العلماءَ أثاروا مسألتين شرعيتين (أي بناءً علىٰ القواعد الشرعية وليس العقلية) فقالوا:

١ ـ هل يمكن شرعاً أن لا يثيبَ الله تعالىٰ الطائعين؟ أي: أن لا يُنجزَ لهم ما وعدهم به؟ وقد اتفق العلماء علىٰ أن هذا غيرُ ممكن شرعاً لأنه يخالف مقتضىٰ الكرم الإلٰهي.

٢ ـ وقالوا أيضاً: هل يمكن شرعاً أن لا يعذِّبَ الله تعالىٰ العصاةَ والكافرين؟! أي: أن لا يُنجزَ ما توعدهم به من عقوبة؟ وقد اختلفوا في هذا، فقال الأشاعرة: إن هذا ممكنٌ شرعاً لأن العفوَ من شِيَمِ الكرام، وتركُ العقوبة لا ينافي الكرم، بل هو من مقتضاه.

وقال الماتريدية: هذا غير ممكن شرعاً، لأنه يترتب عليه أن الله تعالىٰ أخبرنا بشيءٍ ولم يقع، وهو عقوبةُ العصاة.

وإنما قلنا: (شرعاً) لأن المسألةَ شرعيةٌ وأدلتَها شرعيةٌ، وإلاّ فمن الناحية العقلية يجوز العفوُ عن جميع العصاة والكافرين، وأنتَ ترىٰ أنّ المسألةَ كلها من الأمور الفرضية، والذي في كتابِ الله وسنةِ نبيه ﷺ هو الوعدُ الحسن للطائع والوعيدُ الشديد للعاصي، فلنعمل الصالحات ونَدَع المعاصي وما لنا ولهذه الفرضياتِ التي قد تجرِّىءُ علىٰ المعصية، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾.

السعادة والشقاوة:

٤٧ـ فَوْزُ السعيدِ عندَهُ في الأزَلِ   كذا الشقيُّ ثُمَّ لم يَنْتَقِلَ

سبقَ أن علمَ الله تعالىٰ قديمٌ محيطٌ بالأشياء قبلَ وقوعها، ولا بد أن تقعَ كما عَلِمَها، ومن ذلك: أن الله تعالىٰ يعلمُ من الأزل السعيدَ والشقي، والمرادُ بالسعيد الذي يموتُ علىٰ الإيمان، والمرادُ بالشقي من يموت علىٰ الكفر، ولكن الله تعالىٰ لم يعاقبهما بموجب علمِه قبلَ وقوع المعلوم، بل أعطاهما الفرصةَ حتىٰ ظهرا للوجود وظهرَ الإيمانُ من السعيد حتىٰ مات عليه، وظهر الكفرُ من الشقي حتىٰ مات عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، فسبحانه ما أعدله.

ولو تتبعنا أحوال الناس لوجدنا أن المؤمنَ آمنَ لأسبابٍ وقناعاتٍ لديه، وهو لا يدري ماذا في علم الله، والكافر اعتقد العقيدةَ المكفِّرةَ لأسبابٍ وقناعاتٍ لديه، وهو لا يدري ماذا في علم الله أيضاً، وكذا الطائعُ والعاصي،

فليس لأحدٍ أن يحتجَّ بالقدر ليتنصَّلَ من المسؤولية، وحالُ الناس يُوافقُ علمَ الله القديم دون أن يطّلعوا عليه، فمن مات علىٰ الإيمان هو السعيد، وقد عَلِمَ اللهُ ذلك منذ الأزل، ومن مات علىٰ الكفر هو الشقي، وقد علم الله ذلك من الأزل، فالسعيدُ لم يتغير حالُه، والشقيُّ لم يتغير حالُه، بل بقيَ السعيدُ سعيداً والشقيُّ شقياً.

وبعضُ العلماء يرىٰ أن السعادةَ هي الإيمان في الوقت الحاضر، والشقاوة هي الكفر في الوقت الحاضر، ومعلومٌ أن الكافرَ قد يؤمن، والمؤمنَ قد يرتدُّ والعياذُ بالله، ولذا قالوا: قد ينقلب السعيدُ شقياً والشقيُّ سعيداً، وأنت ترىٰ أنه لا خلافَ في الحقيقة، بل هو خلافٌ لفظيٌّ راجعٌ إلىٰ اختلافهم في معنىٰ السعادة والشقاوة.

مَناطُ الجزاء:

٤٨ـ وعندَنا للعبدِ كَسْبٌ كُلِّفا ... ولم يكُن مُؤثِّراً فلتَعْرِفا

٤٩ـ فليسَ مجبُوراً ولا اختِياراً ... وليسَ كلاً يَفْعَلُ اختِيارا

٥٠ـ فإنْ يُثِبْنا فَبِمَحْضِ الفَضْلِ ... وإنْ يُعذِّبْ فَبِمَحْضِ العَدْلِ

هذا هو الموضوعُ الثالث من المواضيع الخمسةِ المترابطة التي ذكرتُها آنفاً، وهو (مناط الجزاء)، أي ما الذي يُحاسَبُ عليه المكلَّف فيثاب أو يستحق العقوبة؟ وليتضح الأمرُ لا بد أن نلاحظَ هنا ما جاء في السنة النبوية الشريفة مما يتعلق بالموضوع:

١ ـ فقد قال رسولُ الله ﷺ: «وُضِعَ عن أمتي الخطأ والنسيانُ وما استكرِهوا عليه»، رواه البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

٢ ـ وقال ﷺ: «رُفِعَ القلمُ عن ثلاثٍ: عن النائم حتىٰ يستيقظ، وعن المبتلىٰ (أي المجنون) حتىٰ يبرأ، وعن الصبيِّ حتىٰ يكبُر»، رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن عائشةَ رضيَ الله عنها.

ولذا يتفق الفقهاءُ علىٰ أنّ المخطىءَ والناسيَ والمُكرَهَ والنائمَ والمجنونَ والصغيرَ لا يأثمون في أفعالهم وإن خالفت الحكمَ الشرعي، كأن كذبوا أو شربوا مُسكِراً.. إلخ.

لكن ما هو الوصفُ المشتركُ بينهم؟ إنه عدمُ الاختيارِ الكامل.

إذن فالاختيارُ هو مَناطُ التكليف والسببُ في الثواب والعقاب، فإذا اختارَ المكلَّفُ العملَ الصالح كُتب له الأجر، وإن اختار العملَ المحرَّم كُتب عليه الإثم، ويشهدُ لهذا قولُ النبي ﷺ: «إذا التقىٰ المسلمانِ بسيفَيهما فقتل أحدُهما صاحبَه فالقاتلُ والمقتولُ في النار». قيل: يا رسولَ الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً علىٰ قتل صاحبه»، رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم. فقد سوّىٰ رسولُ الله ﷺ بين القاتل والمقتول في العقوبة لاستوائهما في الاختيار والعزم. ومثلُه قولُ النبيِّ ﷺ: «مَثَلُ هذه الأمة كمثل أربعة نفر: رجلٌ آتاه الله علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله يُنفقه في حقه، ورجلٌ آتاه الله علماً ولم يؤتِهِ مالاً، فهو يقول: لو كان لي مثلُ هذا عملت فيه مثلَ الذي يعمل»، قال رسولُ الله ﷺ: «فهما في الأجر سواء، ورجلٌ آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط في ماله ينفقه في غير حقه، ورجلٌ لم يؤته الله علماً ولا مالاً فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملتُ فيه مثلَ الذي يعمل» قال رسولُ الله ﷺ: «فهما في الوزر سواء»، رواه ابن ماجه (٤٢٢٨). فقد سوّىٰ النبي ﷺ بين الأول والثاني في الأجر لاستوائهما في اختيار الخير والعزم عليه، وبين الثالث والرابع لاستوائهما في اختيار الشر والعزم عليه.

فظهر من هذا أن العزمَ والاختيارَ هو الذي يحاسَبُ عليه العبد لأنه في الظاهر لا يملك غيره، فخَلْقُ الفعل لله تعالىٰ كما تقدم، وخواصُّ الأشياء من خَلْقِه تعالىٰ أيضاً، ولنضرب علىٰ ذلك مثلاً بفعلٍ اختياريٍ سهلٍ يقومُ به المكلَّف، وهو أن يحرق ورقةً، هذا العمل له عدةُ أجزاء، فالذي جعل النارَ محرِقةً للورق هو الله تعالىٰ، والذي جعل الورقَ قابلاً للاحتراقِ هو الله تعالىٰ، والذي خلق الورقَ والنارَ هو الله تعالىٰ، والذي علَّم الإنسانَ أن النارَ تحرق الورقَ هو الله تعالىٰ، والذي منح مُخَّ الإنسان قدرةً علىٰ إصدار أمرٍ للعضلات بواسطة الأعصاب هو الله تعالىٰ، والذي خلق المُخَّ والأعصابَ والعضلاتِ ومنحها للإنسان هو الله تعالىٰ، والذي خلق الأكسجين الذي يتم به الاحتراقُ هو الله تعالىٰ... إلىٰ آخرِ الجزئيات الكثيرة التي لا بد من توفرها لتتم عمليةُ الاحتراق وكلُّها من خلق الله تعالىٰ، فإذا تم الاحتراقُ فهو مِنْ خلق الله تعالىٰ، فماذا بقيَ للعبد بعدَ ذلك؟ بقيَ له الاختيارَ، والله هو الذي جعلَ العبدَ مختاراً: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وإذا نزعَ منه الاختيارَ أسقطَ عنه التكليفَ كما سبق.

إذن فاللهُ تعالىٰ أعطىٰ العبدَ الاختيار، ودلَّه علىٰ خواصِّ الأشياء، وسخَّرها له، فإذا اختارَ استعمالَ الخواصِّ للخير فله الأجر، وإذا اختارَ استعمالَ الخواصِّ للشر فعليه الوزر، سواءٌ وصلَ إلىٰ مقصوده في الحالين أم لا.

فإذا نظرنا إلىٰ اختيار العبد للفعل الاختياري ومباشرته لأسبابه وظهوره منه نسبناه إليه فنقول: أحرق، وقتل، وصلىٰ، وتصدَّق...، إلخ، وإذا نظرنا إلىٰ دوره الضئيل في الفعل الاختياري وأن الباقيَ اللازمَ لحدوث الفعل هو من خَلْقِ الله بلا رَيبٍ بل إنّ الذي أعطاه الاختيارَ هو الله: نسبنا الفعلَ إلى

الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال: ١٧]، وقال: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤]، وقال أيضاً: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

ودورُ الإنسان الضئيل في الفعل لا يُستهان به، فلولاه لما أنزلَ الله تعالىٰ الكتبَ ولا أرسلَ الرسلَ ولا كلَّفَ المكلَّفين، ولو كان الإنسانُ مجبوراً لا اختيارَ له كالنباتاتِ والحيواناتِ لما كلَّفه وشرَّفه وأعدَّ له الجنة.

لهذا لم يقل أهلُ السنة بقول الجبرية الذين قالوا: (الإنسانُ مجبورٌ علىٰ كل أفعاله، فهو كالريشة المعلَّقة في الهواء)، لأنه لو كان كذلك لما كلَّفه الله تعالىٰ بشيء، إذ كيف يطلب منه ما لا خيارَ له فيه ثم يعاقبه إن لم يفعل ويثيبه إن فعل؟! ولم يقل أهل السنة بمقالة المعتزلة ومن وافقهم، فقد قالوا: (إن الإنسانَ يخلق أفعالَه بقدرةٍ خلقها الله فيه).

لأننا جميعاً نعلم أن الإنسانَ لا يقدر أن يفعلَ كل ما يريد، ولما سبق من أن الله تعالىٰ هو الخالق لكل شيءٍ سواءٌ الذوات والأفعال، لكن جرت سنةُ الله في خلقه أن يخلقَ الأثرَ عندَ وجود المؤثِّر، فيخلقَ الرِّيَّ عندَ الشرب، والاحتراقَ عندَ ملاقاة النار، فظن البعضُ أن الماءَ أروىٰ والنارَ أحرقَت.

والخلاصة: أن الإنسان له أفعالٌ اختيارية، وأفعالٌ غير اختيارية، وله كسبٌ في أفعاله الاختيارية هو عبارة عن اختيارها، واختيارُ استعمالِ الأسبابِ المؤدية إليها، لكن هذا الاختيارَ لا يخلق الفعل، فالخالقُ هو الله تعالىٰ، وهيَ مسألةٌ دقيقة، والمهمُ أن لا نعتقدَ أن الإنسانَ مُجبَرٌ علىٰ أفعاله كما قال الجبرية، ولا أنه يخلق أفعالَه كما قال المعتزلة، لأنّ الأدلةَ الشرعيةَ تدل علىٰ نفيِ الجبر، ونفيِ الخَلْق عن غير الله تعالىٰ.

إذا تبيّن هذا للمؤمن عَلِمَ أن الله تعالىٰ إذا أثابَ علىٰ العمل الصالح فذلك فضلٌ منه، فهو الذي وفّق للعمل الصالح، وخلقه في الإنسان، ثم تفضّل فنسبَ العملَ الصالحَ إلىٰ من ظهر منه، كقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، فإثابته علىٰ العمل الصالح فضلٌ محضٌ من غير وجوبٍ عليه عز وجل.

وإذا عذَّب علىٰ العمل المحرَّم فذلك عدلٌ منه تعالىٰ، لأنه عز وجل لم يُجبر العبدَ عليه، بل العبدُ هو الذي اختارَ المعصيةَ وباشرَ أسبابَها.

ولا شك أن الله تعالىٰ قادرٌ علىٰ أن يجبر الناس علىٰ العمل الصالح وقادرٌ علىٰ إجبارهم علىٰ غير ذلك، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنعام:١٤٩]، ولكنّ هذا ينافي الاختيار، ولذا منحَ الإنسانَ الاختيار، ومكنّه من فعل الخير والشر ليحاسِبَه بعدَ ذلك علىٰ اختياره.

مسألةُ الصَّلاح والأصلح:

٥١ـ وقولُهم: إنّ الصَّلاحَ واجبُ ... عليـهِ: زُورٌ، مـا عَلَيـهِ واجِـبُ

٥٢ـ ألَـمْ يَـرَوا إيـلامَـهُ الأطْفـالا ... وشِبْهَهـا فحـاذِرِ المُحـالا

الدنيا يختلط فيها الخير والشر، وكل إنسان يشعر بذلك، لكن ما هو الخير وما هو الشر؟ هذا سؤالٌ يختلف الناسُ في جوابه، والذي يهمنا هنا أربعةُ أمور:

الأول: أن الخيرَ بالنسبة للإنسان الواحد هو ما فيه لذةٌ لا يترتب عليها ألمٌ في الحاضر ولا في المستقبل، والشرُّ ما فيه ألمٌ في الحاضر أو المستقبل، واللذةُ ما ترتاح إليه الحواسُّ أو العقل، والألم ما يُزعج العقلَ أو

أحدَ الحواس. ومثال ذلك: الطعامُ الحلالُ الطيّب خيرٌ إذا لم يُسرف فيه آكلُه، والطعام الخبيث شرٌّ، وكذلك الطعام الحرام.

الثاني: أنك لا تجد في الأمور الدنيوية خيراً من كل وجه بالمعنىٰ السابق، ولا شراً من كل وجه، بل يختلط هذا بذاك، والحكمُ للغالب، فما غلب فيه الخيرُ سُمي خيراً، وما غلب فيه الشرُ سُمي شراً، أما في الأمور الدينية فنجدُ الخيرَ المطلق، كمن رزقه الله تعالىٰ معرفتَهُ فأَنِسَ به وبِذِكْرِه، فتلك لذةٌ عاجلةٌ تترتب عليها لذةٌ آجلة، ولذا قال النبي ﷺ: «وجُعِلَت قُرةُ عيني في الصلاة»، رواه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما، وقال: «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكرَ الله وما والاه وعالماً ومتعلماً»، رواه ابن ماجه، وله روايات أخرىٰ.

الثالث: أن الإنسان لا يحيط علماً بكل منافع الأشياء والأحوال في الحاضر والمستقبل والظاهر والباطن، وكذا لا يحيط بكل مضار الأشياء، فوجوه الخير كثيرةٌ منها الحسي والمعنوي، وكذلك وجوه الشر، وما يكون خيراً باعتبار قد يكون شراً باعتبار آخر.

الرابع: أن ما يكون خيراً عند إنسانٍ قد يكون شراً عندَ غيره، والعكسُ صحيح.

هذه الأمورُ المتداخلة تجعل من الصعبِ علىٰ الإنسان أن يحكمَ علىٰ أمرٍ بأنه خيرٌ أو شرٌ إلا ما حكم الشرعُ عليه بأحدهما، قال الله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقصَّ الله علينا قصةَ سيدنا موسىٰ عليه السلام مع الخَضِر، وفيها أمورٌ ظاهرها شرٌّ

عاجِل، وباطنُها خيرٌ آجِل، من هنا وبفضل الله تعالىٰ فاز المؤمنون بحسن الظن بالله، فالمؤمنُ يرىٰ كل ما يجري عليه من الله خيراً سواءٌ عَلِمَ وجهَ خيريته أم لا، إلا ما حكمَ الشرعُ بأنه شر، لكن لا يجوز أن يصلَ الأمرُ إلىٰ درجة أن يُقال: إن الله يجبُ عليه أن يفعلَ ما فيه صلاحُ العبد أو الأصلحُ له ولو كان المقصودُ أن ما فعله الله هو الصلاحُ أو الأصلح، لأن هذا القولَ عليه مآخذ:

١ ـ إذا قيل: يجبُ علىٰ الله تعالىٰ الصلاحُ فمَن أوجبه؟ والله تعالىٰ يقول: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف: ٤٠]، فالله تعالىٰ يحكم فيُوجب ويحرِّم، ولا يوجبُ أحدٌ عليه.

٢ ـ هناك أمورٌ لا يبدو فيها وجهٌ للصلاح ولا للأصلح، كخَلْقِ الكافرِ الفقيرِ المريض، فهو معذَّبٌ في الدنيا والآخرة، وكذلك الأمراضُ التي يُبتَلىٰ بها الأطفال.

٣ ـ إذا وجدنا أمراً لا صلاحَ للعبد فيه فهل نقول إنّ الله تعالىٰ تركَ الواجب؟ وما معنىٰ تركِ الواجب وماذا يترتب عليه؟

لهذا لم يوافق أهل السنة المعتزلةَ في قولهم: إن فعلَ الأصلح واجبٌ علىٰ الله تعالىٰ للعِباد، مهما كان تأويلُ هذا القول لديهم، لأنها كلمةٌ نابيةٌ يترتب عليها ما لا يليقُ بالله عز وجل، ونحن نحسن الظنَّ بالله تعالىٰ ونقول: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ومن الطريف أن هذه المسألةَ كانت سببَ افتراقِ الشيخ أبي الحسن الأشعري ـ إمامِ الأشاعرة ـ عن شيخه أبي هاشم الجُبّائي المعتزلي، فإن أبا الحسن سأل الجُبّائيَّ في درسه وقال: ماذا تقول في ثلاثة إخوة مات أحدُهم كبيراً مطيعاً، والآخرُ كبيراً عاصياً، والثالثُ صغيراً، فقال الجبائي، الأولُ يُثاب بالجنة، والثاني يُعاقب بالنار، والثالث

لا يُثاب ولا يُعاقب، فقال له الأشعري: فإن قال الثالث: يا ربِّ لم أمَتَّني صغيراً وما أبقيتني فأطيعكَ فأدخلَ الجنة؛ ماذا يقول الرب؟ فقال الجبائي: يقول الرب إني أعلم أنكَ لو كبرتَ عصيتَ فتدخل النار، فكان الأصلحُ لك أن تموتَ صغيراً، فقال الأشعري: فإن قال الثاني: يا رب لِمَ لم تُمِتني صغيراً فلا أدخل النار؛ ماذا يقول الرب؟ فبُهِتَ الجبّائي، فترك الأشعريُّ مذهبه واشتغل هو وأتباعه بإبطال ما ذهبت إليه المعتزلة وإثبات ما وردت به السنة ومضىٰ عليه الجماعة، فلذلك سُمّوا بـ «أهل السنة والجماعة». انظر «حاشيةَ الباجوري علىٰ الجوهرة» ص٦٤.

الله خالقُ كل شيء:

٥٣- وجائزٌ عليهِ خَلْقُ الشّرِّ والخَيرِ كالإسلامْ وجَهْلِ الكُفْرِ

سبقَ بيانُ معنىٰ الخير والشر، ولا شك أن الإسلامَ خيرٌ والجهلَ والكفرَ شرٌّ، والإسلامُ عقيدةٌ وفعلٌ يظهر من العبد، وكذلك الجهل والكفر، وهنا سؤالان:

الأول: أن العبد لا يخلق أفعال نفسه كما تقدم بل يختارها، فهل الذي خلق الإيمان في العبد هو الله تعالىٰ؟ وهل الذي خلقَ فيه الجهلَ والكفرَ هو الله تعالىٰ؟

والجواب: نعم، إن الإنسانَ الذي اختار الإيمانَ خلق اللهُ فيه الإيمان ورَضِيَه له، والذي اختار الكفرَ والجهلَ خلقَ الله فيه الجهلَ والكفرَ ولم يرضَهُ له، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، فمِن الجائز في حق الله تعالىٰ خلقُ الخير والشر، وهو تعالىٰ يخلق ما يشاء.

والسؤال الثاني: أن إرادةَ الله تعالىٰ تخصِّصُ كل شيءٍ ببعض ما يجوزُ عليه، والإنسان يجوز عليه الإيمانُ والكفر، والعلمُ والجهل، فهل إرادةُ الله هي التي خصّصت المؤمنَ بالإيمان، والكافرَ بالكفر؟ والعالِمَ بالعلم، والجاهل بالجهل؟

والجواب: نعم، فإن المؤمنَ آمنَ بفضل الله وإرادته، والعالِمُ عَلِمَ بإرادة الله ورحمته، والكافر لم يكفر رغماً عن إرادة الله، والجاهل وهو الذي لا يعلم حقائق الأشياء، سواءٌ أكان لا يعلم شيئاً أو يعلم الأشياء مغلوطةً هذا أيضاً لو شاء الله لعلّمه، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال الله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف: ١٧].

وهذه المسألةُ يعبِّرون عنها بمسألة خلق الحَسَن والقبيح، والمرادُ بالحَسَن: ما لا يترتب عليه ذمٌّ وعقاب، والقبيح: ما يترتب عليه الذمُّ في العاجل والعقوبةُ في الآجل، ومذهبُ أهل السنة أنّ الحسنَ والقبيحَ من خلق الله تعالىٰ وبإرادته، وهو عز وجل يرضىٰ الحسنَ ولا يرضىٰ القبيح. والإنسانُ محاسَبٌ علىٰ اختياره، وهذا القولُ يبدو غريباً لكنه حقٌّ، لأننا إذا لم نقل به ترتّبَ علىٰ نفيه أنّ بعضَ الأفعال ليست من خلقِ الله، وبعضَها ليس بإرادة الله وهذا باطلٌ، فالله خالقُ كل شيء، ولا يكون في ملكه شيءٌ من غير إرادته، لكننا من باب التأدُّب مع الله تعالىٰ ننسب الخيرَ إليه، وننسب الشرَّ لأنفسنا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٨-٧٩]، فقد نصّت الآيةُ الأولىٰ علىٰ أن النعمة

والنقمةَ من عند الله تعالىٰ، ثم بينت الآيةُ الثانية أن النعمةَ فضلٌ من الله والنقمةَ بسبب ما كسبت النفس، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، فنسب النقمةَ إلىٰ النفس لتسببها وإن كان الفاعلُ هو الله تعالىٰ ليعلِّمنا الأدبَ معه تعالىٰ، لكن لا ننسىٰ أنّ الإنسانَ يحاسَبُ علىٰ اختياره، فقضية الكسبِ غيرُ قضيةِ خَلْقِ الأفعال كما تقدّم.

الإيمان بالقضاء والقدر:

٥٤- وواجبٌ إيمانُنا بالقَدَرِ وبالقَضَا كما أتىٰ في الخَبَرِ

الإيمانُ بالقضاء والقَدَر ركنٌ من أركان الإيمان، ففي حديث جبريل المشهور أنه سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «الإيمان أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر كلِّه خيره وشره»، رواه مسلمٌ.

والقدر معناه: إيجاد الله تعالىٰ الأشياءَ علىٰ قدرٍ مخصوصٍ وتقديرٍ معيَّن في ذواتها وأحوالها وفقَ ما سبقَ به العلم؛ أي: أن الله تعالىٰ عَلِمَ الأشياءَ ومقاديرها وأزمانها قبلَ إيجادها، ثم أوجدَ ما سبقَ في علمه أنه يُوجَد، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩]، فكل ما وُجِدَ أو يُوجد عَلِمَ الله تعالىٰ وجودَه قبلَ أن يُوجد، وعَلِمَ جميعَ صفاته ثم أوجدَه وِفقَ ما سبقَ في علمه، فالأشياء لم تُوجد اعتباطاً ومصادفةً بل وفقَ تقديرِ الله تعالىٰ الذي سبقَ في علمه.

والقضاء: في اللغة الحكمُ، والمرادُ به هنا: أن الله تعالىٰ أرادَ الأشياءَ في الأزل علىٰ النحو الذي برزت به للوجود، وهي كما ترىٰ في غاية الإحكام والإتقان.

والناسُ يعبِّرون بالقضاء والقدر عن معنىً واحدٍ هو: (إرادةُ الله إيجادَ الأشياء علىٰ وجهٍ مخصوصٍ ثم إيجادُها فعلاً وفق المراد). انظر: «العقائد الإسلامية» للشيخ عبد الرحمٰن حبنكة (٢: ٤١٥).

والموجوداتُ كثيرةٌ لا تُحصىٰ من ذواتٍ وصفاتٍ ومقادير، لكن ما يتعلق منها بالإنسان نوعان:

نوعٌ لا خِيارَ للإنسان فيه، كيوم ولادته ولونه وطوله والمرضِ الذي يصيبه بلا تسبُّبٍ منه، وهذه لا يحاسَبُ عليها.

ونوعٌ له فيه خِيار، فإنِ اختارَ الخيرَ فله الأجر، وإن اختارَ الشرَّ فعليه الوِزْر.

صحيحٌ أن اختيارَه سيكون موافقاً لما سبق به القدر والقضاء، لكن هذا راجعٌ إلىٰ دقةِ علم الله تعالىٰ وقَدَره وقضائه، وليس إلىٰ اطلاع العبدِ علىٰ القضاء والقدر، فالذي يتصدَّق لا يطلّع علىٰ القضاء والقدر ثم ينفِّذُ ما فيه، بل يجدُ في نفسه رغبةً في الصَّدَقة فيختار بذلَ المال فيكون له الأجر، وعكسُه من أراد المعصية، فالقاتلُ الظالم لا يطَّلع علىٰ القدر والقضاء ثم ينفِّذ، بل تتحركُ فيه رغبةُ الشر فيختار الإقدامَ علىٰ إزهاق النفس فيكونُ عليه الوزر.

ويضربُ العلماءُ علىٰ ذلك مثلاً ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، فيقولون: إن الشرطةَ لهم معرفةٌ بأحوال المجرمين، وفي بعض الأحيان يخمِّنون متىٰ وكيفَ سينفِّذُ المجرمُ جريمتَه، فإذا دوَّنوا ذلك ورصدوه فجاءت توقُّعاتهم صحيحةً وألقَوا القبضَ علىٰ المجرم متلبِّساً بالجرم فليس له أن يقول: أنتم عرفتم ذلك وهو مدوَّنٌ في أوراقكم فلماذا لم تمنعوني؟! أو لماذا تؤاخذونني علىٰ ما فعلت؟ لأنه فعل ذلك بناءً علىٰ رغبته وليس بناءً

علىٰ ما دَوَّنت الشرطة، وإذا كانت الشرطةُ تخطىء في التقدير لأن البشرَ عاجزٌ فإنّ علمَ الله تعالىٰ لا يخطىء لأنه مطّلعٌ علىٰ المستقبل كاطّلاعه علىٰ الحاضر والماضي، والأمور عندَه سواء، ولا اعتبارَ للزمن، وقد سبق بيانُ هذا عند علمِ الله تعالىٰ.

نعودُ الآنَ لنذكِّرَ بما سبق في شرح الأمور الخمسة، وهي: علمُ الله، وخَلْقُ الأفعال، والكسب، والقَدَر، والقضاء، لنبين كيف يجبُ فهمها بما يبعدنا عن نسبة الظلم إلىٰ الله عزوجل، ويبعدنا عن الظن بأن علمَ الله تعالىٰ لا يحيط بكل شيء أو أن في الكون خالقاً سواه تبارك وتعالىٰ، فنقول:

١ ـ إنّ علمَ الله تعالىٰ محيطٌ بالأشياء صغيرِها وكبيرِها منذ الأزل كما سبق. وقد كُتب ذلك في اللوح المحفوظ.

٢ ـ إن الله تعالىٰ خصَّص كلَّ شيءٍ منذ القدم بمواصفاته الخاصة كما سبق في بحث الإرادة، ثم أبرزَ ذلك للوجود في وقته المخصَّص له منذ الأزل وبالصفات التي سبق العلمُ بها، وهذا هو القضاء والقدر.

٣ ـ إنّ الإنسانَ تجري فيه ومنه أفعالٌ لا خيارَ له فيها كدَورة الدم، وحركةِ جهاز الهضم وجهاز التنفّس. وهذه لا يحاسَبُ عليها الإنسان.

٤ ـ إنّ الله تعالىٰ أطْلَعَ الإنسانَ علىٰ خواصِّ بعضِ الأشياء وأعطاهُ إمكانيةَ أن يختارَ بعضَ أفعاله الاختيارية، لكن الإنسان لا يخلقها، وفي دائرة ما يستطيع الإنسان اختياره أمره الله بأمورٍ ونهاه عن أمور، لكنه لم يُجبِره علىٰ فعلِها ولا علىٰ تركها.

٥ ـ إنّ الأفعالَ التي تصدر من جميع المخلوقات وتُنسب إليهم هي من خَلْقِ الله تعالىٰ وإن اختاروا بعضَها.

٦ ـ إن الله تعالىٰ لم يُطْلِع عبادَه علىٰ علمه ولا علىٰ قدره وقضائه.

بعد أن نستحضرَ هذا في الذهن نقول: إن الإنسانَ لا يُحاسَبُ علىٰ ما في علم الله قبلَ وقوعه، ولا علىٰ ما في القضاء والقدر قبلَ اختياره، ولا علىٰ الأفعال التي لا خيارَ له فيها، إنما يحاسَبُ علىٰ اختياره للأفعال وعزمه عليها سواءٌ وقعت أم لم تقع، فالقاتل ليس له أن يقول: هذا سبقَ في علم الله فلا تحاسبوني عليه، وليس له أن يقول: الله أعطاني القدرةَ البدنيةَ حتىٰ فعلتُ فلا تحاسبوني، ولا أن يقول: إن الله تعالىٰ خلقَ في البارودِ خاصيةَ الانفجار فلا تحاسبوني علىٰ إطلاق النار، ولا أن يقول: إن الله قدَّرَ لهذا المقتول عمراً وقد انتهىٰ فلا تحاسبوني. . . إلىٰ آخرِ هذا النوع من الكلام الذي يُراد به الإفلاتُ من العقوبة، ولو قُبِلَ مثلُ هذا الكلامِ من أحدٍ لفسدت الأرض، بل لا يوجد عاقلٌ يقبل به، خاصةً إذا وقع العدوانُ علىٰ ذلك العاقل.

وهنا أذكِّرُ بأمرين:

الأول: أن الإنسان يحتجُّ بعلم الله تعالىٰ والقضاء والقدر ليبرِّرَ أفعاله السيئة، ولا يذكر شيئاً من ذلك إذا فعلَ خيراً، لأنه لا يريد أن يَحرِمَ نفسَه شرفَ وثوابَ الأفعال الحسنة، لكنه يحتجُّ بالقدر ليُفلِتَ من تَبِعةِ الفعل القبيح.

الثاني: أن الله تعالىٰ كتب للإنسان رزقه وأجله وعمله، ونرىٰ الإنسان يجتهد في طلب الرزق ومعالجة المرض خوفاً من الموت، ولا بأسَ عليه في ذلك، ولا يعوِّل علىٰ موضوع القدر في تحديد الرزق والأجل، فإذا جاء دورُ العمل الصالح احتجَّ في تركه بالقضاء والقدر، واحتجَّ بهما إذا فعل السيئات. وهذا يدل علىٰ أنّ الإنسانَ يحتج بالقدر ليفلت من العقوبة واللوم.

أما حديث: «احتجَّ آدمُ وموسىٰ عليهما السلام فقال موسىٰ: أنتَ أبونا خَيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: يا موسىٰ اصطفاكَ الله بكلامِهِ وخَطَّ لكَ التوراة، أتلومني علىٰ أمرٍ قدَّره عليَّ قبلَ أن يخلقَني؟ قال: فحَجَّ آدمُ

موسىٰ»، فإنّ هذا الحديثَ صحيحٌ، رواه البخاري ومسلم، لكنّ آدمَ عليه السلام لما عاتبه ربه لم يحتج بالقدر بل قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقد غفرَ الله له لكن أنزله إلىٰ الأرض، ولما لامه موسىٰ عليه السلام احتجَّ بالقدر، لأن المؤاخذةَ بالذنب شيءٌ والتعنيفَ عليه شيءٌ آخر، والتائبُ لا يعنَّف كيلا ينفرَ من التوبة ويتمادىٰ فيما فعل، ولكل مقامٍ مقال. بعد هذا كلّه أذكّر بقول النبي ﷺ: «إذا ذُكِرَ القدر فأمسكوا»، رواه الطبراني في «الكبير»، انظر: «الجامع الصغير».

المؤمنونَ يرونَ اللهَ تعالىٰ في الآخِرة:

٥٥ـ ومنهُ أن يُنْظَرَ بالأبصارِ لكنْ بلا كَيفٍ ولا انْحِصارِ

٥٦ـ للمؤمنينَ إذْ بجائزْ عُلِّقَتْ هذا وللمُختارِ دُنْيا ثَبَتَتْ

من عقائد أهل السنة والجماعة أنّ الله تعالىٰ يجوز أن يراه المؤمنون في الآخرة، وأنّ رسولَ الله محمداً ﷺ رآه في الدنيا ليلةَ الإسراء والمعراج.

وخالفَ المعتزلة في ذلك كلّه، ومثلهم الشيعة الإمامية والإباضية، وفيما يلي حجةَ أهل السنة وحجةَ غيرهم:

احتجَّ أهلُ السنة بالقرآن والسنة، أما القرآن:

١ ـ فقولُ الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]؛ أي: وجوهُ المؤمنين يومَ القيامةِ مُشرِقةٌ تنظرُ إلىٰ ربها عز وجل، وهذه الآيةُ واضحةُ الدلالة علىٰ المراد.

٢ ـ قولُ الله تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ﴾[الأعراف: ١٤٣]،

ووجهُ الدلالة: أنّ الرؤيةَ لو كانت مستحيلةً لما طلبها موسىٰ عليه السلام، لأنّ الأنبياءَ لا يجهلون المستحيلَ علىٰ الله تعالىٰ، فدلَّ طلبُ موسىٰ عليه السلام لها علىٰ جوازها.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ دليلٌ آخرٌ فإنّ الله تعالىٰ قادرٌ علىٰ أن يستقرَّ الجبل، فلمّا عُلِّقَت رؤيةُ موسىٰ لربه تعالىٰ علىٰ أمرٍ جائز، وهو استقرار الجبل، دلَّ علىٰ أن الرؤيةَ جائزة.

٣ ـ قولُ الله تعالىٰ عن أهل الجنة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٥]، وقد فسّر رسولُ الله ﷺ المزيدَ بأنه «النظرُ إلىٰ وجه الله الكريم»، رواه مسلمٌ وغيره.

٤ ـ قولُ الله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

ووجهُ الدلالة: أنه تعالىٰ لما جعل الحجابَ عقاباً للكافرين دلَّ علىٰ أن المؤمنينَ غير محجوبين.

وأما السنة فاحتجوا بأحاديثَ صحيحةٍ منها:

١ ـ قولُ النبي ﷺ: «أما أنكم ستعرضون علىٰ ربكم عز وجل، فترونه كما ترون هذا القمر لا تَضَامُّون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغلَبوا علىٰ صلاةٍ قبلَ طلوع الشمس وقبلَ غروبها فافعلوا»، رواه البخاري ومسلم وغيرهما، ومعنىٰ تتضامّون: أي لا ينضم بعضُكم إلىٰ بعض من أجل ذلك.

٢ ـ حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أن الناسَ قالوا: يا رسولَ الله، هل نرىٰ ربنا يومَ القيامة؟ قال رسولُ الله ﷺ: «هل تُمارون في رؤية القمر ليلة البدر وليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه كذلك»، رواه مسلمٌ والترمذي وأبو داود.

٣ ـ قولُ الرسول ﷺ في تفسير قولِ الله تعالىٰ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٢]: «جنتان من فضةٍ آنيتُهما وما فيهما، وجنتان من ذهبٍ آنيتُها وما فيهما، وما بينَ القوم وبينَ أن ينظروا إلىٰ ربهم إلا رداءُ الكبرياء علىٰ وجهه في جنة عدن»، رواه البخاري ومسلمٌ والترمذي.

واحتجَّ أهلُ السنة أيضاً بأنّ هذا ـ أي إثبات الرؤية ـ مرويٌّ عن أبي بكر الصدّيق رضيَ الله عنه، وحذيفةَ بن اليمان، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله ابن عباس، وأبي موسىٰ الأشعري، وغيرهم رضيَ الله عنهم، ولم يَرِد عن أحدٍ من الصحابة نفيُها، ولو كانوا مختلفين لنُقل اختلافهم إلينا، فدل هذا علىٰ اتفاقهم علىٰ القول بـ (رؤية الله بالأبصار في الآخرة للمؤمنين)، انظر: «الاعتقاد» للبيهقي ص١٢٠. لكن هذه الرؤيةَ التي دلت عليها الآياتُ والأحاديثُ وإجماع الصحابة ليست كالرؤية في الدنيا، فإن رؤيةَ الناس لبعضهم ولغيرهم من المخلوقات في الدنيا تقتضي كيفيةً معينةً من قُربٍ وبعدٍ وجهةٍ ومواجهة.. إلخ، وكل هذا وغيرُه من شروط رؤية المخلوقات غيرُ واردٍ في حق الله تعالىٰ، لأنه تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، فنحنُ نُثبت ما أثبته الله تعالىٰ من الرؤية وننفي ما نفاه من المشابهة، ونفوِّضُ الأمرَ إلىٰ الله تعالىٰ عملًا بجميع الأدلة.

أما المعتزلة ومن وافقهم فنفوا إمكانَ رؤيةِ البشر لله تعالىٰ وقالوا: إن هذا مستحيل، واحتجّوا لمذهبهم بما يلي:

١ ـ قولُ الله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ووجهُ الدلالة أن الله تعالىٰ نفىٰ إمكانيةَ أن تُدركه الأبصار، ونفيُ الإدراكِ يقتضي نفيَ الرؤية، لأنّ إدراكَ الأبصار هو الرؤية، وأجاب أهلُ السنة بأن المنفيَ هو الإدراكُ بمعنىٰ الإحاطة، ونحن نقول: إنّ الرؤيةَ

هنا لا تقتضي الإحاطة، بل هيَ رؤيةٌ مخصوصةٌ لا إحاطةَ فيها جمعاً بين الأدلة، فإنّ الآياتِ والأحاديثَ في إثبات الرؤية واضحة.

٢ ـ قولُ الله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، و(لن) تقتضي النفيَ إلىٰ الأبد، فصار المعنىٰ: لن تراني في الدنيا ولا في الآخرة، وردَّ عليهم أهلُ السنة بأن (لن) لا تفيد التأبيد، بدليل قول الله تعالىٰ عن اليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥]، مع أن أهل النار ومنهم كفّار اليهود يتمنَّون في النار أن يموتوا، ولكنّ الله تعالىٰ لا يميتهم ليستمرَ عذابهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فأخبرَ تعالىٰ أنهم (لن يتمنوا الموت) وهو يعلم أنهم سوف يتمنونه في الآخرة، فدلَّ علىٰ أنّ (لن) لا تفيد التأبيد؛ أي: أن النفيَ بها لا يشمل الآخرة.

٣ ـ احتجَّ المعتزلةُ ومن وافقهم بحجةٍ عقلية، وهيَ: أن المرئيَّ إما أن يكونَ جوهراً أو جسماً أو عرضاً كالألوان، والله تعالىٰ ليس بجسمٍ ولا جوهرٍ ولا عَرَض، فيستحيلُ أن يُرىٰ، وأجابَ أهلُ السنة علىٰ هذا بأن القاعدةَ المذكورةَ هيَ في حق المخلوقات، وهي إما جواهر أو أجسام أو أعراض، أما في حق الله تعالىٰ فلا يَرِدُ هذا الكلام، لأن رؤيتَه ليست كرؤية المخلوقات، وأحوالُ الآخرة ليست كأحوال الدنيا. قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [قٓ: ٢٢]، فليس بصرُ المؤمنين في الآخرة كبصرهم في الدنيا، ولا الإبصارُ في الآخرة كالإبصارِ في الدنيا، وقياسُ الآخرة علىٰ الدنيا قياسٌ مع الفارق.

وأنت ترىٰ أنّ أهلَ السنة يحتجون بنصوص الكتاب والسنة واجماع الصحابة، والمعتزلةُ ومن وافقهم يحتجّون بقواعدَ عقليةٍ دنيوية، وأحوالُ الآخرة ليست كأحوال الدنيا، لذا يجبُ التسليمُ بما جاء في النصوص، وندعو الله تعالىٰ أن يُكرِمَنا بالنظرِ إلىٰ وجهه الكريم مع الذين أنعم عليهم ورَضِيَهم.

وأما رؤيةُ رسولِ الله محمدٍ ﷺ لله تبارك وتعالىٰ ليلةَ الإسراء والمعراج فقد اختلف فيها الصحابة، فأنكرتها السيدةُ عائشةُ رضيَ الله عنها، وأثبتها ابنُ عباس وبعضُ الصحابة رضيَ الله عنهم، والمختارُ ما ذهبَ إليه ابنُ عباس ومَن وافقه، لأنّ المثبِتَ مقدَّمٌ علىٰ النافي كما هي القاعدة.

وقد أنكرَ العلماءُ بشدةٍ علىٰ أشخاصٍ ادّعَوا رؤيةَ الله تعالىٰ في اليقظة ورمَوهم بالكفر، لأنّ ذلك لم يكن لغير نبينا محمدٍ ﷺ، واختُلِفَ فيه في حقّه عليه السلام كما تقدَّم آنفاً.

أما رؤيةُ الله تعالىٰ في المنام فقد قال العلماءُ بإمكانها ووقوعِها للأولياء، لكن من المهم أن نعلمَ أنّ هذه الرؤيا لا يترتَّبُ عليها حكمٌ شرعي، وكذلك رؤيا النبيِّ ﷺ، فلو قال إنسانٌ: (رأيتُ الله تعالىٰ في المنام وأمرني بكذا أو نهاني عن كذا)، لم يثبت بقوله هذا حكمٌ شرعيٌ من تحليل أو تحريم أو وجوب، وكذا لو قال: (رأيتُ رسولَ الله ﷺ فأمرني أو نهاني)، لأن الدِّين قد تم ولله الحمد، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣]، فلا مجالَ للزيادة ولا للنقص في الدِّين، ومصادرُ الأحكام ليس منها المناماتُ والأحلام.

* * *

النبــوّات

النبـوّات

هذا هو المبحث الثاني من مباحث علم التوحيد، والحديثُ فيه عن المسائل المتعلقة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفيه بيانُ ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقهم صلواتُ الله وسلامه عليهم.

النبيُّ شرعاً: هو الرجلُ الذي أوحىٰ الله تعالىٰ إليه بحكمٍ شرعيٍ سواءٌ أُمِرَ بتبليغه أم لا، فإذا أُمِرَ بتبليغه فهو نبيٌّ رسول، وبناءً علىٰ هذا نتصور نبياً ليس رسولاً بمعنىٰ أن يرسل الله تعالىٰ جبريل عليه السلام إلىٰ رجلٍ فيبلغه أحكاماً ليعمل بها، ولا يأمره أن يبلغها لغيره، لكن لا نتصور رسولاً ليس نبياً، لأنه بمجرد أن ينزلَ عليه الوحيُ بحكم شرعي يصير نبياً، وعندما يؤمر بالتبليغ يصير رسولاً، أي نبياً رسولاً، ولهذا تجد المسلمين يعبرون عن محمد ﷺ بالرسول، والنبي، فنقول: نبينا محمدٌ ﷺ، ونقول قال رسولُ الله ﷺ، والمقصودُ في العبارتين واحد، وهو الحبيب المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وقد كان فيما مضىٰ من الأمم أنبياء ليسوا رسلًا لكن لا نعرف أسماءهم معرفةً جازمة، لأنها لم تَرِد في القرآن الكريم ولا في السنة الصحيحة، والذين ذُكروا في القرآن الكريم كلهم رسلٌ وعددُهم خمسةٌ وعشرون رسولاً.

وعلماءُ التوحيد يخصّصون في كتبهم مبحثاً خاصاً بالنبوات لبيان ما يتعلق بهم من عقائد. قال مؤلِّف جوهرة التوحيد رحمه الله مبيناً بعضَ ما يجوز علىٰ الله تعالىٰ:

٥٧ـ ومنهُ إرسالُ جميعِ الرُّسْلِ　　فلا وُجُوبَ بلِ بِمَحْضِ الفَضْلِ
٥٨ـ لكنْ بِذا إيمانُنا قَدْ وَجَبا　　فَدَعْ هَوىٰ قَوْمٍ بهم قد لَعِبا

الرسولُ في اللغة هو: الذي يبعثه غيرُه ليبلِّغَ عنه رسالةً. والمقصودُ بالرسول هنا وفي اصطلاحِ علماء الإسلام: الرجلُ الذي يُنزِلُ الله تعالىٰ عليه جبريلَ فيوحي إليه أن يبلِّغَ عن الله تعالىٰ إلىٰ إخوانه البشر ما تتوقف عليه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وهذا فضلٌ من الله ونعمةٌ ومظهَرٌ من مظاهر رحمته تعالىٰ وعنايته بالناس، فنحن إذا لاحظنا:

١ ـ ما أعطىٰ الله للإنسان من سمعٍ وبصرٍ وحواسٍ وأجهزةٍ تسهِّلُ له حياته علىٰ الأرض؛

٢ ـ ما يسَّر له علىٰ هذه الأرض من مستلزمات الحياة وما سخَّر له من قُوىٰ الكون؛

٣ ـ ما أحاطَ الله به الإنسانَ من عنايته في كل شأنٍ من شؤون حياته بحيثُ لا يستطيع الإنسانُ إحصاء نِعَمِ الله تعالىٰ عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛

إذا لاحظنا كل هذا علمنا أنّ رحمةَ الله تعالىٰ لن تُهمل الإنسانَ في مجالاتٍ أخرىٰ مهمةٍ هي:

١ ـ بيانُ النظام الصحيح لتعامل الإنسان مع نفسه ومع إخوانه البشر بحيث يؤمِّن للإنسان السعادةَ علىٰ وجه الأرض، فإن الأنظمة التي وضعها البشرُ بعيداً عن هُدىٰ الله تعالىٰ فشلت في إسعاد الناس، وهي عُرضةٌ للتغيير دائماً.

٢ ـ تعريفُ الإنسان بما وراء المادة، لأن حواسَّ الإنسان محصورةٌ بحدود المادة، وهو بحاجةٍ إلىٰ من يُطلعه علىٰ ما وراء المادة ليكون تفكيره وسلوكه منسجمَين مع حقائقِ الكون الماديةِ وغير المادية.

٣ ـ معرفةُ الله تعالىٰ، فإن الناسَ ليسوا علىٰ درجةٍ واحدةٍ من الذكاء بحيثُ يستطيعون الاستدلالَ بالخَلْقِ علىٰ الخالق، وبالكونِ علىٰ المكوِّن، فلا بد من رُسُلٍ يرشدونهم إلىٰ معرفةِ الله تعالىٰ، فإن هذه المعرفةِ أهمُّ شيءٍ للإنسان، والجهلُ بها خسارةٌ لا تعوَّض، وعن هذا عبّر أحدُ العارفين بقوله: «إلٰهي، ماذا وجدَ من فقدَك، وماذا فقد مَن وجدك»، لأنّ كل العلومِ الأخرىٰ لا تملأ نفسَ الإنسان ولا تعطيهِ الطمأنينة، فروحُه من عالَمٍ آخرَ لا تملؤها الماديات.

٤ ـ تحريرُ الإنسان، لأنّ الطواغيتَ بأساليبهم المختلفةِ يضلِّلون البسطاءَ فيؤلِّهون غيرَ الله، ويستفيد الطواغيتُ من ذلك وما يتبعه من طقوسٍ وأنظمةٍ كما فعل فِرْعَون والنُّمْرُود وغيرهما، فلا بد من رسلٍ يكشفون زيفَ هذه العقائد ليحرِّروا الناسَ ويوجهوهم إلىٰ الله تعالىٰ.

لهذا ولغيره اقتضت رحمةُ الله أن يُرسِلَ للناس رُسُلًا منهم يكلِّمونهم بلغاتهم ويرشدونهم إلىٰ الصواب في كل ما يحتاجون إليه في أمر دينهم ودنياهم، وليس هذا واجباً علىٰ الله تعالىٰ كما يقول المعتزلة ومن وافقهم، ولا مستحيلًا عليه تعالىٰ كما قال البراهِمة ومن وافقهم، بل هو جائزٌ، إذ لا وجهَ للوجوب ولا للاستحالة، وكل ما ليس واجباً ولا مستحيلًا فهو جائز.

وقد أرسلَ الله تعالىٰ رسلًا مبشِّرين ومنذرين وهادين ومعلمين، فلله الحمدُ علىٰ ذلك، وصلاةُ الله وسلامه علىٰ جميع أنبيائه ورسله، ويجبُ علينا الإيمانُ بهم كما علَّمَنا الله تعالىٰ بقوله: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقد ذكر القرآنُ الكريم أسماءَ بعض الرسل، وبيّن أنّ الله تعالىٰ بعثَ غيرهم أيضاً، ولكن لم يذكر لنا أسماءهم، قال تعالىٰ: ﴿ مِنْهُم

مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر ٢٤]، لذا يجبُ علىٰ المسلم ما يلي:

١ ـ الإيمان بكل رسولٍ ذُكِرَ اسمُه في القرآن، وهم: آدم، ونوح، وإدريس، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، واليَسَع، وذو الكفل، وإلياس، ويونس، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشُعَيب، وموسىٰ، وهارون، وداود، وسليمان، وأيُّوب، وزكريا، ويحيىٰ، وعيسىٰ، ومحمد ﷺ وعلىٰ جميع إخوانه الأنبياء والمرسَلين.

٢ ـ الإيمان بأنّ الله تعالىٰ بعث رسلاً غيرَ من ذُكِر وإن كنا لا نعرفُ أسماءهم وبلدانهم وأمَمَهم. فنحنُ نؤمن برسلِ الله وأنبيائه مَن عَرَفْنا منهم ومَن لم نعرف.

الصفاتُ الواجبةُ للأنبياء والرسل:

٥٩ـ وواجبٌ في حَقِّهِم الامانةْ وصِـدْقُهُـم وضِـفْ لـه الفَطـانـةْ

٦٠ـ ومثـلُ ذا تبلِيغُهـم لِمـا أَتَـوا ويَستحِيـلُ ضِـدُّهـا كمـا رَوَوْا

يجبُ علىٰ المكلَّف أن يعرفَ الواجبَ والجائزَ والمستحيلَ في حق الأنبياء والرسل عليهم السلام كما تقدَّم ص٢٣، والصفاتُ الواجبةُ لهم هي:

١ ـ **الأمانة**؛ أي: العصمة، بمعنىٰ أن الله تعالىٰ حفظ ظواهرَهم وبواطنَهم في الصغر والكبر قبلَ النبوة وبعدَها من كل عملٍ منهيٍّ عنه ولو نهيَ كراهة، فلا يفعلون محرَّماً ولا مكروهاً ولا خلافَ الأولىٰ، فهم أُمَناء علىٰ شريعةِ الله تعالىٰ، ودليلُ هذا أنّ الله تعالىٰ أمرَ كل أمةٍ باتباع رسولهم الذي بُعِثَ إليهم في أقواله وأفعاله وأحواله (وقد بُعِث محمدٌ ﷺ إلىٰ الناس كافةً كما سيأتي)، فلو عمل أحدُ الرسل عملاً منهياً عنه

في شريعته لكان ذلك العملُ مأموراً به (اتباعاً للرسول) ومنهياً عنه (اتباعاً للنصِّ التشريعي)، وهذا مستحيل، إذ كيف يأمرُ الله بشيءٍ وينهىٰ عنه في نفسِ الوقت ونفسِ الظرف، والله لا يكلِّفُ عبادَه بالمستحيل، وقد قالَ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وما وردَ في القرآن والسنة مما يُفْهَم منه وقوعُ بعضِ الأنبياءِ في المعصية مؤوَّل، وقد ذكر علماءُ التفسير وجهَ التأويل، وبيّنه القاضي عياض رحمه الله في كتاب «الشفا»، أحسنَ الله إليهم جميعاً، فليراجع عندَ الإشكال.

وينبغي ملاحظة أن الشرائعَ تنزل علىٰ الأنبياء بعدَ النبوة، أما قبلها فقد لا يكون أحدهم مكلفاً بشريعة من قبله من الرسل، ومع ذلك يُحفظون مما سيُنهَون عنه فيما بعد، ومما هو منهيٌّ عنه في الشريعة التي كُلِّفوا العملَ بها.

ثم إن الصغيرَ لا يسمىٰ فعلُه معصيةً لأنه غير مكلف، ومع ذلك عصم الله تعالىٰ الأنبياء مما صورته صورةُ معصية، أي مما هو معصيةٌ في حق المكلفين.

٢ ـ الصدق: وهو مطابقة الخبر للواقع، وضده الكذب، ومعلومٌ أن الكذبَ معصيةٌ، والعصمةُ تقتضي عدمَ الكذب، فوجوبُ الصدق للأنبياء داخلٌ في العصمة، لكن العلماء يبرزون هذه الصفة لأهميتها في حق الأنبياء، فهم يبلِّغون عن الله تعالىٰ، فيجب اعتقاد أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله عز وجل، وفيما يخبرون عن غيره أيضاً، ودليلُ صدقهم قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، ولأن الله تعالىٰ أيّدهم بالمعجزات، والمعجزة تعني تصديقهم فيما يبلغون، والله تعالىٰ لا يؤيد الكاذب.

٣ ـ **الفطانة**: والمقصود بها الذكاء وقوة الملاحظة والحجة بحيث يستطيعون إقامةَ الحجة علىٰ صدق ما يدعُون إليه، ويستطيعون إبطال شبهةِ المخالفين لهم، وذلك لأنهم مبلِّغون عن الله تعالىٰ فلا بد أن يجعل فيهم من الذكاء وقوة الحجة ما يجعل تبليغهم حجةً علىٰ الناس، وهذا واقعُ جميع الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ [هود: ٣٢]، وقال عزَّ وجلَّ لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

٤ ـ **التبليغ**: الرسول يبلِّغ عن الله تعالىٰ كما سبق، فما أمره الله تعالىٰ بتبليغه لا بد أن يبلغه مهما كان موضوعه، وإلا يكون عاصياً، والمعصيةُ مستحيلةٌ عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

أما ما لا يُؤمر بتبليغه فقد لا يبلغه، خاصةً إذا كانت عقول الناس لا تحتمله كالأمور الغيبية.

هذه الشروط يقتضي العقلُ السليم وجودَها في الأنبياء ليكونوا حجةً علىٰ الناس، وهناك شروطٌ دلَّ عليها الشرع هي:

١ ـ **البشرية**: فرسل الله تعالىٰ إلىٰ البشر يجب أن يكونوا بشراً ليتمكن البشر من الأخذ عنهم واتباعهم في سلوكهم، وقد طلب الكفار رسلاً من الملائكة فردَّ الله عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩].

٢ ـ **الحرية**: فالرقيق لا يملك أمرَ نفسه فكيف يكون رسولاً يقود أمة؟ وكيف يكون له احترامٌ وهو يُباع ويشترىٰ؟

٣ ـ **الذكورة**: قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، والحكمةُ في ذلك أن الرسولَ يجبُ أن يختلطَ بالناس لإبلاغ الدعوة، والخلطة قد تعرض المرأةَ لسفاهة السفهاء، والرجلُ أقدر علىٰ إبلاغ الدعوة.

٤ ـ **كمال العقل والذكاء وقوة الرأي**: لأن هذا سلاحُ النبي والرسول، فلا بد أن يزوده الله تعالىٰ به ليبلغ دعوته، وقد كان الكفار يتّهمون الرسل بالجنون، ورد الله ذلك علىٰ الكفار في أكثر من موضع في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ [القلم: ٢].

٥ ـ **السلامة من كل ما ينفِّرُ الناسَ من مرضٍ وغيره**: لأن الله تعالىٰ يُقيم الحجةَ علىٰ الناس بما يسمعونه ويشاهدونه من الرسول والنبي، فكيف يستمعون إليه ويجتمعون به وفيه ما ينفِّرُ الطباعَ منه، ولهذا يجب ردُّ ما في قصص بني إسرائيل عن الأنبياء من أن بعضهم أُصيبَ بأمراض منفِّرة، نعم إن الأنبياء بشرٌ وقد يُصاب أحدهم بمرضٍ شديد، لكن ما كلُّ مرضٍ ينفِّر الناسَ من صاحبه.

المستحيل في حق الرسل والأنبياء:

الصفاتُ المستحيلة علىٰ الأنبياء عليهم السلام هي عكسُ الصفات الواجبة لهم، فيستحيلُ عليهم ما يلي:

١ ـ الخيانة: أي الوقوع في المخالفات الشرعية قبلَ النبوة وبعدها.

٢ ـ الكذب: وهو الإخبار بما يخالف الواقع.

٣ ـ البلاهة والغفلة وعدم الفطنة.

٤ ـ كتمان شيء مما أمروا بتبليغه.

٥ ـ الجنون قليله وكثيره.

٦ ـ السهو في الأخبار البلاغية وغيرها كالأقوال الدينية الإنشائية، أما النسيانُ في الأمور البلاغية فهو ممتنعٌ قبلَ التبليغ.

الجائز في حق الرُّسُل والأنبياء:

٦١ـ وجائزٌ في حَقِّهِم كالأكلِ وكالجِماعِ للنِّسا في الحِلِّ

الأنبياءُ والرسل بشرٌ، ولذا يجوز عليهم ما يجوز على البشر مما ليس محرماً ولا مكروهاً ولا مباحاً مُزْريا أو منفراً للطباع، وذلك كالأكل والشرب والجِماع الحلال والنوم والمرض غير المنفِّر، والإغماء، وقد طلب المشركون رسلاً لا يأكلون ولا يمشون في الأسواق ولا يتزوجون فردَّ الله عليهم طلبهم لأن الرسلَ بشر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وردَّ عليهم في مناسبة أخرىٰ فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

خلاصة القول في علم التوحيد:

٦٢ـ وجامعُ معنىٰ الذي تَقرَّرا شهادتا التوحيدِ فاْحذَرِ المِرا

ما تقدم من بيان الواجب والجائز والمستحيل في حق الله تعالىٰ وحق رسله عليهم الصلاة والسلام مستنبَطٌ من كلام الله تعالىٰ وكلام الرسول ﷺ ومما تقتضيه قواعدُ العقل السليم، وكل ما تقدم يجمعه قولنا: (أشهدُ أن لا

إلٰه إلا الله وأشهدُ أن محمداً رسول الله)، وذلك لأن الجملةَ الاولىٰ معناها: إثباتُ الألوهية لله تعالىٰ ونفيُها عما سواه، والألوهيةُ تقتضي وجوبَ الوجود، والقِدَمَ الذاتي، والبقاءَ الذاتي، وكل الصفاتِ التي تقدم ذكرُها في بيان الواجب لله تعالىٰ، ولأنها واجبةٌ فإنّ ضدَّها مستحيل علىٰ الله تعالىٰ، وما سوىٰ الواجبِ والمستحيلِ جائزٌ، وأما الشهادةُ الثانية فإن معناها إثباتُ الرسالة لسيدنا محمد ﷺ، وهذا يقتضي الإيمانَ بكل ما أخبَرَنا به عليه الصلاة والسلام، وقد أخبَرَنا عن صفات الله تعالىٰ، وعن الملائكة، والكتب المنزَلَة، وعن الرسل، واليوم الآخر، والقَدَر، وأخبرنا بصفات الرسل عليهم السلام، وما يجبُ وما يجوزُ وما يستحيلُ عليهم، وأخبرنا أنه رسولُ الله إلىٰ الناس كافّة، ولهذا فإن المسلمَ عندما ينطق بالشهادتين يجدِّدُ إيمانه بكل العقائد الإسلامية التي جاء بها رسولُ الله ﷺ.

❋ ❋ ❋

السمعيَّات

السمعيَّـات

العقائدُ التي تُذكر في هذا القسم يُستدَلُّ عليها بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، وماكان دليلُه قطعياً ـ أي آيةً لا تحتملُ إلا معنىً واحداً، أو حديثاً متواتراً لا يحتمل إلا معنىً واحداً ـ فالإيمان به واجبٌ، وتكذيبُه كفرٌ، وما كان دليله غيرَ قطعيٍ ـ أي آيةً تحتمل أكثرَ من معنىٰ، أو حديثاً متواتراً يحتمل أكثرَ من معنىً، أو حديثاً صحيحاً أو حسناً ـ فالإيمانُ به واجبٌ، وتكذيبه فسوقٌ إن لم يكن بسبب تأويلِ ظاهرِ الاحتمال.

النبوة فضلٌ من الله:

٦٣ـ ولـم تكُـنْ نُبُـوّةٌ مكتَسَبـةْ ... ولو رَقَىٰ في الخَيرِ أعلىٰ عَقَبةْ

٦٤ـ بل ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ لِمَنْ ... يَشـاءُ جَـلَّ اللهُ واهِـبُ المِنَـنْ

النبوةُ شرعاً: هي أن يوحيَ الله تعالىٰ إلىٰ رجلٍ بحكمٍ شرعيٍ تكليفيٍ سواءٌ أُمِرَ بتبليغه أم لا، وهذا فضلٌ من الله تعالىٰ يهبه لمن يشاء من عباده، قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقد خُتمت النبوة بسيدنا محمدٍ ﷺ.

وقد كان الأنبياء علىٰ مقدارٍ عظيمٍ من العبادة والتقوىٰ والصلاح، لأن الله تعالىٰ أرادهم قدوةً للخلق في الكمال البشري، ولذا عصمهم من الذنوب وأعدَّهم إعداداً خاصاً للمهمة التي كلَّفهم بها، قال الله تعالىٰ عن سيدنا موسىٰ عليه السلام: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩]، وقال تعالىٰ عن رسول الله محمد ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وقال: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا

فَـَاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحىٰ: ٦-٨]، وقال: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١]، فهم علىٰ درجةٍ عاليةٍ من العبادة، لأن الله أرادهم أنبياءَ لا أنهم صاروا أنبياء لأنهم علىٰ درجةٍ عاليةٍ من العبادة، فالنبوةُ فضلٌ من الله وليست ثمرةَ الاجتهاد في العبادة، ثم إن العبادةَ والخشيةَ علىٰ مقدار المعرفة بالله تعالىٰ، وهم أعرفُ الناس بالله تعالىٰ.

محمدٌ ﷺ أفضلُ الخلق:

٦٥ـ وأفضلُ الخَلْقِ علىٰ الإطلاقِ　　نبيُّنـــا فَمِـــلْ عَـــنِ الشِّقَـــاقِ

أفضلُ خَلْقِ الله محمدٌ ﷺ، فإنّ الله تعالىٰ قال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات: ١٣]، والرسل هم أتقىٰ خلق الله وهم فيما بينهم متفاضلون، قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وأفضلهم محمدٌ ﷺ؛ لأن الرسلَ كان أحدُهم يبعَث إلىٰ قومه خاصةً، وبُعث سيدنا محمدٌ ﷺ إلىٰ الناس كافة، الذين في زمنه والذين بعده إلىٰ قيام الساعة، وقد حفظ الله الكتابَ الذي أنزله عليه، وحفظ سنته أيضاً، فكأنه ظل حياً بين الناس يرشدهم إلىٰ طريق الحق، وأظهرَ الله دينه، وأقام دولته، وأعز أمته، وهذا لم يكن لغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقد صرَّح بذلك فقال: «أنا سيدُ ولد آدمَ يومَ القيامة، وأولُ من ينشق عنه القبر، وأولُ شافع، وأول مشفع»، رواه مسلمٌ وأبو داود، وأشارَ الله تعالىٰ إلىٰ أفضليته فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وخيرُ الأمم رسولُهم خيرُ الرسل.

أما قوله ﷺ: «لا تخيِّروني علىٰ موسىٰ ولا تفضِّلوا بين الأنبياء»، رواه البخاري ومسلم، فهو من باب التواضع والتأديب لأمته حتىٰ لا يتمادىٰ التفضيل إلىٰ نوعٍ من المس بكرامة الأنبياء، وذلك غيرُ جائز.

أفضلُ الخلق بعدَ محمدٍ ﷺ الأنبياء ثم الملائكة:

٦٦- والأنبيا يَلُونَهُ في الفَضْلِ   وبعدَهُمْ مَلائِكَةُ ذِي الفَضْلِ

٦٧- هذا وقومٌ فَصَّلُوا إذ فَضَّلُوا   وبعضُ كلٍ بعضَهُ قد يَفْضُلُ

لا خلافَ في أن نبينا محمداً ﷺ أفضلُ الخلق، ثم يأتي بعدَه أولو العزم، وهم: نوحٌ وإبراهيمُ وموسىٰ وعيسىٰ، ومعلومٌ أن محمداً ﷺ من أولي العزم أيضاً.

ثم يأتي بعدَ أولي العزم في الأفضلية بقيةُ الرسل، ثم بقيةُ الأنبياء غير الرسل، ثم الملائكة، وأفضلُ الملائكة الرسلُ منهم، وبعضُ الرسل أفضل من بعض، وبعضُ الملائكة أفضلُ من بعض، قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، هذا ما تدل عليه النصوص، ويكفي اعتقاد هذا بشكلٍ مجمَل.

وبعض العلماء فصَّل ورتَّب كالتالي فقال: أفضل الخلق محمدٌ ﷺ، ثم إبراهيمُ عليه السلام، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، ثم نوحٌ، ثم بقيةُ الرسل، ثم الأنبياء غير الرسل، ثم رسلُ الملائكة كجبريلَ وإسرافيلَ عليهم السلام جميعاً، ثم أولياءُ البشر غير الأنبياء كأبي بكرٍ وعمر، ثم عامة الملائكة، ثم عامةُ المسلمين.

وهذا البحثُ قال عنه تاج الدين السبكي: «ليس تفضيلُ البشر علىٰ المَلَك مما يجبُ اعتقادُه ويضرُّ الجهل به، ولو لقيَ المسلمُ اللهَ ساذجاً من المسألة بالكلية لم يكن عليه إثم. . .، والسلامةُ في السكوت عن هذه المسألة».

والملائكةُ أجسامٌ لا تراها أعينُ البشر ولا يحس بهم الناس، مخلوقون من نورٍ كما أخبر الرسول ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: «خُلِقت الملائكة

من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدمُ مما وُصف لكم»، رواه الإمام أحمد ومسلمٌ.

والإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان، وقد دل الكتاب والسنة علىٰ أنهم قادرون ـ بقدرة الله تعالىٰ ـ علىٰ التشكل بأشكالٍ مختلفة، وعلىٰ القيام بالأفعال الشاقة التي يعجز عنها البشر، وهم مشغولون بطاعة الله تعالىٰ دائماً، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ولهم وظائف كلفهم الله تعالىٰ بها، منها: حفظُ الناس من بعض الأخطار، وإحصاءُ أفعال الناس وأقوالهم، قال الله تعالىٰ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١٣]، أي بأمر الله، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

المعجزات:

٦٨ـ بالمُعجزاتِ أُيِّدُوا تكرُّماً   وعِصْمةُ الباري لكلٍ حُتِما

الإيمانُ بالرسل ركنٌ من أركان الدين، وعليه تتوقف النجاةُ عندَ الله تعالىٰ، لكن كيف يُعرَفُ الرسولُ الحق من غيره؟ فإن بعضَ الناس ادّعوا أنهم رسلٌ ولم يكونوا كذلك؟

الواقعُ أن أكثرَ الذين آمنوا بالرسل عنَد مبعثهم يرجع إيمانهم إلىٰ سببين:

١ ـ سيرةُ الرسول قبلَ بعثته، فإن الأنبياءَ كلَّهم كانت سيرتُهم حميدةً قبل الرسالة، لأنهم معصومون كما تقدم، فلما دعوا الناسَ إلىٰ الإيمان بهم استجابَ لهم العقلاءُ لما يعرفون من سيرتهم وأخلاقهم المستقيمة،

ولننظر إلىٰ سيرة نبينا محمدٍ ﷺ، فقد كان يُدعىٰ الصادقَ الأمين منذ الصغر، فلما دعا الناسَ إلىٰ الإيمان به قال بعضُهم: ما كان ليدع الكذبَ علىٰ الناس ويكذبَ علىٰ الله تعالىٰ، أي أن سيرته تدل علىٰ صدقه في دعوىٰ النبوة.

٢ ـ جوهرةُ الرسالة: فالمواضيعُ التي يدعو إليها الأنبياء هي عينُ الحق، فهم يدعون إلىٰ الإيمان بالله، وإلىٰ التمسك بمكارم الأخلاق، وليس في دعواهم نفعٌ شخصيٌ دنيويٌ لهم، والعاقلُ إذا فكَّر في هذا لا يسعه إلا الإيمانُ بهذه الدعوة.

لكن ما كل الناس علىٰ هذه الدرجة من الذكاء بحيثُ يعرفون صدقَ الأنبياء من سيرتهم وجوهرِ دعوتهم، ولذلك أيّدَ الله الأنبياءَ بالمعجزاتِ ليقيم الحجةَ علىٰ الخلق، ولا يُبقِيَ لهم عذراً، لأن ظهورَ المعجزة علىٰ يد النبي قائمٌ مقامَ قولِ الله تعالىٰ: «صدقَ عبدي فيما يُبلِّغُ عني»، فما هي المعجزةُ وما شروطها التي تميزها عن غيرها من الأعمال الغريبة التي يفعلها بعضُ الناس؟

المعجزة: أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالتحدي، مع عدم المعارضة، غيرُ واقعٍ في آخر الزمان.

ومعنىٰ (خارقٌ للعادة) أي: لم تَجْرِ به العادة، سواءٌ كان فعلًا أو تركاً، فالفعلُ: كنبع الماء من بين أصابع النبي محمدٍ ﷺ، والتركُ: كعدم احتراق إبراهيمَ عليه السلام عندما قُذف في النار.

ومعنىٰ (مقرونٌ بالتحدي): أن الذي ظهر علىٰ يده يدّعي النبوة، فإن كان لا يدّعيها وهو رجلٌ صالحٌ فالذي ظهر علىٰ يده من الخوارق يُسمىٰ

(كرامةً) كما سيأتي إن شاء الله، ومعنىٰ (عدم المعارضة): أن لا يستطيعَ غيرُه فعلَ مثلها بلا واسطة، فالإسراءُ من المسجد الحرام إلىٰ الأقصىٰ لم يكن بواسطةٍ مادية، ولذا فالطيران اليومَ من مكة إلىٰ القدس بالطائرة ليس معجزةً، لأنه بالواسطة المادية صار أمراً عادياً.

وزاد بعضُ العلماء: أن لا يكونَ واقعاً في آخر الزمان، فقُبَيل قيام الساعة يكثر خرق العوائد كالعجائب التي تظهر علىٰ يد الدجّال، وقد أخبر عنها النبي ﷺ.

وكما تكرَّم الله تعالىٰ علىٰ الأنبياء بالمعجزات وأيدهم بها تكرَّم عليهم بالعصمة من كل مخالفةٍ شرعيةٍ ومن كل ما يُنقِصُ مقامَهم سواءٌ قبلَ النبوة أو بعدها، لأنهم قدوةٌ للناس كما سبق، والملائكة أيضاً معصومون، وبذلك شهدَ الله تعالىٰ لهم فقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم ٦].

عمومُ بعثة نبينا محمدٍ ﷺ:

٦٩ـ وخُصَّ خَيرُ الخَلْقِ أنْ قد تَمَّما ... بِـهِ الجميـعَ ربُّنـا وعَمَّمـا

٧٠ـ بعثَتَـهُ، فشَـرْعُـهُ لا يُنْسَـخُ ... بغيـرِهِ حتـىٰ الـزمـانُ يُنسَـخُ

من خصائص نبينا محمدٍ ﷺ التي ميزه الله تعالىٰ بها علىٰ جميع الأنبياء أمران:

الأول: أنه خاتمُ الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فكل من ادعىٰ النبوةَ بعدَه كاذبٌ، والحكمةُ في ختم النبوة والرسالة به ـ والله أعلم ـ أنه

بُعِثَ بين يدَي الساعة، قال ﷺ: «بُعِثتُ أنا والساعة كهاتَين» أشار بالسَّبَّابة الوسطىٰ، رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وأما نزولُ عيسىٰ عليه السلام قبلَ القيامة فحقٌّ، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليُوشِكَنَّ أن ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً عدلاً فيكسِرَ الصليبَ ويقتلَ الخنزيرَ ويَضَعَ الجزية..» الحديثَ، رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

لكن من المعلوم أن عيسىٰ عليه السلام بُعث قبلَ محمدٍ ﷺ، وعندما ينزل لا يأتي بشريعةٍ جديدة؛ بل يعمل بشريعة الله تعالىٰ التي أنزلها علىٰ محمدٍ ﷺ.

الثاني: أنه أُرسل إلىٰ الناس كافة؛ بل وإلىٰ الجن والملائكة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال رسولُ الله ﷺ: «فُضِّلتُ علىٰ الأنبياء بسِتٍّ: أُعطيتُ جوامعَ الكَلِم، ونُصِرتُ بالرُّعب، وأُحِلَّت ليَ الغنائم، وجُعِلَت ليَ الأرضُ طَهُوراً ومسجداً، وأُرسِلْتُ إلىٰ الخَلْق كافةً، وخُتِمَ بي النبيون»، رواه مسلمٌ والترمذي.

فقد كان الناسُ في زمن الأنبياء السابقين متباعدين في أوطانهم، بِدائيين في حياتهم، فلو أُرسِلَ إليهم جميعاً رسولٌ واحدٌ لعَسُرَ عليه إبلاغُهم، وما يناسبُ بعضَهم من الشرائع قد لا يُناسبُ البعضَ الآخر، فلما تواصل البشرُ بالأسفار التجارية وغيرها وتقدموا مَدَنياً وتشابهت حاجاتهم أرسلَ الله تعالىٰ إليهم جميعاً محمداً ﷺ بشريعةٍ واحدةٍ تنظِّمُ حياتهم علىٰ أحسن وجه، ولها من الخصائص ما يجعلها صالحةً لكل زمانٍ ومكان.

وأما شمولُ رسالته للجن فقد نصَّ الله تعالىٰ عليه بقوله: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ إلىٰ آخر سورة الجن.

وكذلك قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وبما أن سيدَنا محمداً ﷺ خاتمُ الأنبياء فإنّ شريعته التي أنزلها الله عليه وتضمنها القرآنُ والسنةُ مستمرةٌ إلىٰ قيام الساعة لا تنسخها شريعةٌ أخرىٰ، ويجبُ علىٰ كل المكلَّفين العملُ بهـا، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران: ٨٥]، والمرادُ بالإسلام في الآيتين الدِّينُ المنزَّلُ علىٰ سيدنا محمدٍ ﷺ، وقال رسولُ الله ﷺ: «لن تزالَ هذه الأمةُ قائمةً علىٰ أمر الله تعالىٰ لا يضرُّهم من خالَفَهم حتىٰ يأتيَ أمرُ الله»، رواه البخاري ومسلم بلفظ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي قائمةً بأمر الله لا يضرُّهم من خَذَلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتيَ أمرُ الله وهم ظاهرون علىٰ الناس».

الشريعة الإسلامية ناسخةٌ لِمَا قبلَها من الشرائع:

٧١ـ ونَسْخُـهُ لشـرعِ غيـرِهِ وَقَـعْ ... حَتْمـاً أَذَلَّ اللهُ مَـنْ لـه مَنَـعْ

٧٢ـ ونَسْخُ بعضِ شرعِهِ لبعضِ ... أَجِـزْ ومـا فـي ذا لَـهُ مِـنْ غَـضِّ

الأحكامُ الشرعية كلُّها من عند الله تعالىٰ، فهو الحاكم؛ أي: الذي يفرض الفرائض، ويحرِّمُ المحرَّمات، ويسُنُّ السُّنَن، ويكره المكروهات، ويُبيح المباحات، ويشترطُ الشروط، ويضعُ الموانع. . ، إلىٰ آخرِ الأحكام التكليفية والوضعية المذكورة في علم أصول الفقه، والرسلُ عليهم الصلاة والسلام يبلِّغون هذه الأحكام، والمجتهدون يبينون أحكامَ الله تعالىٰ التي عرفوها بالأدلة الشرعية.

وقد اقتضت حكمةُ الله تعالىٰ أن يغيِّرَ بعضَ الأحكام بما يتناسب مع الوضع الجديد للبشر، فينزِّلَ علىٰ الرسول اللاحق أحكاماً مخالفةً لما أنزل علىٰ الرسول السابق، ويكون الواجبُ علىٰ الناس أن يعملوا بالحكم اللاحق، مثلاً: كان في شريعة آدمَ عليه السلام أنّ الأخَ يجوز له أن يتزوج بأخته ليتكاثر البشر، إذ لم يكن في الأرض إلا آدمُ وحواء وأبناؤهما وبناتهما، فلما كثر البشر حَرُمَ الزواجُ بالأخت لأنّ بنتَ العم تُغني عنها، وفي شريعة عيسىٰ عليه السلام أباحَ الله تعالىٰ لبني إسرائيل بعضَ ما حرَّمه عليهم من قبلُ عقوبةً لهم، قال الله تعالىٰ عن عيسىٰ عليه السلام: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وفي الشريعة الواحدة المنزَّلة علىٰ رسولٍ واحدٍ قد يقع النسخُ فيُنسَخُ حكمٌ سابقٌ بحكمٍ لاحق، وعندَها يجبُ العملُ باللاحق.

بعد أن اتضح معنىٰ النسخ نقول: إنّ الشريعةَ الإسلاميةَ ناسخةٌ لجميع الشرائع السابقة، بمعنىٰ:

١ ـ أنّ كلَّ ما خالفَ الشريعةَ الإسلاميةَ من الشرائع السابقةِ المنزَّلةِ علىٰ الرسل السابقين منسوخٌ لا يجوز العملُ به.

٢ ـ أنّ ما وافقَ الشريعةَ الإسلاميةَ من الشرائع السابقةِ يجبُ العملُ به لأنه أُنزل علىٰ سيدنا محمدٍ ﷺ، لا لأنه نزل في شريعةٍ سابقة.

٣ ـ من اعتقدَ غيرَ هذا فهو كافر، لأنّ اعتقادَه عندَئذٍ يخالفُ عمومَ رسالةِ محمدٍ ﷺ؛ والكافرُ ذليلٌ في الدنيا والآخرة.

وفي الشريعةِ الإسلاميةِ وقع النسخُ ويجبُ العملُ بالناسخ لا بالمنسوخ، فقد كان التوجُّهُ في الصلاة إلىٰ بيت المقدس ثم نُسِخَ بالتوجُّهِ إلىٰ الكعبة

المشرَّفة، فيجبُ التوجُّه إليها في الصلاة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وكانت زيارةُ القبور ممنوعةً ثم أُذِنَ بها بقول الرسول ﷺ: «كنتُ نَهَيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنّها تذكر الآخرة»، رواه مسلمٌ، وهذا الموضوع يذكره بتوسُّعٍ علماءُ أصول الفقه، وعلماءُ التفسير وعلماءُ الحديث.

من معجزات النبيِّ محمدٍ ﷺ:

٧٣ـ ومُعجِزاتُهُ كثيرةٌ غُرَرْ منها كلامُ اللهِ مُعجِزُ البَشَرْ

أيَّدَ الله تعالىٰ نبيَّه محمداً ﷺ بمعجزاتٍ كثيرة، وهي أمورٌ خارقةٌ للعادة ظهرت علىٰ يده ﷺ لتدل علىٰ صدق نبوته ولتزيدَ المؤمنين إيماناً، وقد كان الصحابةُ الكرام إذا رأوا معجزةً قالوا: ما زال الله يزيدنا بك إيماناً يا رسولَ الله.

وقد اعتنىٰ العلماءُ بهذه المعجزاتِ فرووها في كتب الحديث والسيرة، ومنهم من أفردها بالتأليف، ومن هذه المعجزات، انشقاقُ القمر بدعوته ﷺ، رواه البخاري، وحنينُ الجذع إليه عندما تركه وصعد المنبر وكان قبلَ ذلك يقف إلىٰ جانبه إذا خطب، رواه البخاري، ومنها نبعُ الماء من بين أصابعه حينَ وضع يدَه الشريفةَ في الماء القليل فكثر حتىٰ كفىٰ الجمعَ الكثيرَ من الصحابة، رواه البخاري، وغيرُ هذا كثيرٌ روته كتبُ الحديث، وهذه المعجزاتُ رآها الصحابةُ ونُقِلَت عنهم بالسند الصحيح الذي يقوم مقامَ المشاهدة، فالإيمانُ بها واجبٌ.

وأعظمُ معجزةٍ له ﷺ القرآنُ الكريم، فهو خارقٌ للعادة، ولا يزال باقياً إلىٰ قيام الساعة ولله الحمد، ووجهُ الإعجاز في القرآن: أن العادةَ جرت بأنّ

مَن يقولُ كلاماً فصيحاً يأتي غيرُه فيقول مثلَه أو أحسنَ منه، وهكذا يفعل الشعراءُ والأدباء، وتكون مهمةُ الثاني أهونَ من مهمة الأول لأنه يستفيد من إيجابياته ويتجنب السلبيات التي كشفَ عنها النُقّاد، ومثلُ هذا يُقال في مجال العلوم والاختراعات، فاللاحقُ دائماً يتفوّق علىٰ السابق، لكنّ هذه العادةَ مخروقةٌ بالنسبة للقرآن الكريم، فهو مؤلَّفٌ من كلماتٍ عربيةٍ يعرفها العربُ ويتداولونها، وقد تحدَّىٰ الله تعالىٰ العربَ وغيرَهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلم يقدروا، وتحدّاهم بعشرِ سُوَرٍ فلم يقدروا، وتحدّاهم أن يأتوا بمثل سورةٍ منه وإن كانت قصيرة، فعَجَزُوا أن يؤلِّفوا من الكلمات التي يعرفونها كلاماً فصيحاً مثلَ القرآن، وهذا هو الإعجاز اللغوي.

وهناك إعجازٌ آخرٌ هو الإعجاز الغَيْبي، فقد أخبر عن أمورٍ لا يعلمها إلا الله، منها أمورٌ مضت ومنها أمورٌ سوف تقع، وهذا يعني أنّ القرآنَ من عند الله. لقد أخبرَ أنّ من البشر قروناً لا يعلمهم إلا الله، وهذا ما كشفت عنه الحفرياتُ التي يقوم بها علماءُ الآثار، فقد اكتشفوا آثاراً لبشرٍ لم يَرِدْ لهم ذكرٌ في التاريخ، وهذا يدل علىٰ أن عمرَ البشر علىٰ وجه الأرض أكثرُ مما كان يقوله المؤرِّخون نقلاً عن علماء اليهود، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ ﴾ [إبراهيم: ٩].

وأخبر أن القرآنَ لن يستطيعَ أحدٌ أن يأتيَ بمثله، وهكذا كان، قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وأخبر أن الرومَ سيَغلبون الفرسَ في بضع سنين، وهكذا كان، قال تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ١-٤].

وهناك نوعٌ ثالثٌ من الإعجاز هو الإعجازُ التشريعي، فقد وضع القرآنُ الكريم قواعدَ تشريعيةً مبنيةً علىٰ حقائقَ إنسانيةٍ ما كانت تخطر علىٰ ذهن البشر وما عرفُوها إلا بعدَ قرونٍ من نزول القرآن، ولعلهم أخذوها عن المسلمين. منها: المساواةُ بين الناس أمام القانون بغَضِّ النظر عن ألوانهم وغناهم ومراكزهم الاجتماعية، ومنها: أنّ المسؤوليةَ عن الأقوال والأفعال مرتبطةٌ بالعقل والإدراك وهذا يدل علىٰ أنّ القرآنَ من عند الله تعالىٰ.

وهناك الإعجاز العلمي، ومعناه أن القرآنَ أشار إلىٰ حقائقَ علميةٍ لم يكن البشر يعرفونها يومَ نزل القرآن، ولو لم يكن القرآنُ من عند الله تعالىٰ لما ذُكِرَت فيه هذه الحقائق، منها قولُ الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦]، أي: اشتعلت بشدة، لكن كيف يشتعل الماء؟ جاء العلم الحديث ليكتشفَ أن الماءَ مؤلَّفٌ من أُكسجين وهَيْدرُوجين، وإذا فُكَّ الاتحادُ بينهما فهما قابلان للاشتعال!، ومنها قولُه تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨]؛ أي: بسرعةٍ واتزان، ولم يعرف البشر أن الأرضَ تدور بجبالها بسرعةٍ واتزان إلا في هذا العصر!

ووجوهُ الإعجاز كلُّها تدلُّ علىٰ أن القرآنَ كلامُ اللهِ العالِمِ بكل شيء، وليس كلامَ محمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فقد كان ﷺ أمياً لم يجلس إلىٰ عالم، ولم يكن علماءُ عصره يعرفون هذه المعلومات، وقد ألَّفَ العلماءُ في بيان إعجاز القرآن كتباً كثيرةً جديرٌ بالمسلم أن يطَّلعَ عليها، وكذا غيرُ المسلم ليعرفَ وجهَ الإعجاز فيُسلِم.

وجوبُ الإيمان بالإسراء والمعراج وبراءة السيدة عائشة:

٧٤ـ وأجزِمْ بمِعراجِ النبيْ كما رَوَوْا وَبــرِّأَنْ لعــائشَــةْ ممّــا رَمَــوْا

الإيمانُ هو التصديقُ بكل ما أنزلَ الله علىٰ نبيه محمدٍ ﷺ وبَلَغَنا بالتواتر، ومن ذلك الإسراءُ والمعراجُ وبراءةُ السيدة عائشةَ أم المؤمنين مما رماها به المنافقون.

أما الإسراء: فهو لغةً السيرُ ليلاً، والمرادُ به هنا: إسراء الله تعالىٰ بنبينا محمدٍ ﷺ ليلاً علىٰ البُراق بصحبةِ جبريلَ عليه السلام من مكةَ المكرمةِ إلىٰ القدس، قال الله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

وأما المعراج فهو لغةً: آلةُ العروج؛ أي: الصعود، والمرادُ به هنا: عروجُ النبيِّ محمدٍ ﷺ بصحبةِ جبريلَ عليه السلام من القدس بعدَ الإسراء إلىٰ سِدْرةِ المنتهىٰ فوقَ السمٰواتِ السبع إلىٰ حيثُ شاءَ الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٤]؛ أي: رأىٰ محمدٌ ﷺ جبريلَ عليه السلام علىٰ صورته الحقيقيةِ عندَ سدرة المنتهىٰ، وهي فوقَ السماء السابعة، وأجمعَ المسلمون علىٰ أن الصلاةَ فُرِضَت فوقَ السمٰواتِ السبعِ ليلةَ المعراج. وقد بيَّن النبيُّ ﷺ تفاصيلَ معجزتَي الإسراء والمعراج، ورُوي ذلك عنه بالأحاديث الصحيحة، ولذا يجبُ الاعتقادُ بهما وأنهما كانتا يقظةً بروحه وجسده ﷺ.

وقد كان بعضُ من يدَّعي المعرفةَ يشكِّكُ في هاتين المعجزتين، ويقول هما رؤيا رآها النبيُّ ﷺ، ويحتجُّ بأنّ الأجسامَ الكثيفةَ يستحيل عليها قطعُ المسافات البعيدة بسرعة، وها نحنُ اليومَ نرىٰ الطائراتِ والمركباتِ الفضائيةَ ونضحك من تلك القواعدِ التي وضعها أولئك المتفلسِفُون واعترضوا بها علىٰ قدرة الله تعالىٰ، فطوبىٰ لمن شرحَ الله صدرَه للإسلام واطمأنت نفسُه لما في كتابِ الله تعالىٰ وسنةِ نبيه محمدٍ ﷺ.

وأما براءةُ عائشةَ الصدِّيقةِ بنتِ الصِّديق مما رماها به المنافقون في غزوة بني المصطَلِق فخلاصةُ القصة: أن عائشةَ كانت مع النبيِّ ﷺ في غزوة بني المصطلق، فذهبت لقضاء حاجتها قبلَ انتشار ضوء النهار وابتعدت لذلك من عن منزل الجيش، فانقطع عِقْدُها فأخذت تبحثُ عنه، وفي حال غيابها جاء الذين يحملون هَودَجها فظنوها فيه فحملوه علىٰ البعير وساروا به، ولما رجعت إلىٰ موضع الجيش لم تجد أحداً، وكانت عادةُ النبي ﷺ أن يأمرَ رجلًا ليسيرَ خلفَ الجيش يتفقَّدُ المتخلِّفين عن الجيش ويلتقطُ ما سقطَ من متاع الجيش، فجلست عائشةُ رضيَ الله عنها في موضع الجيش تنتظر من يأتي من المسلمين ليحملها، فجاء صفوانُ بن المعطِّل رضيَ الله عنه وكان هو الذي يتعقب الجيش تلك المرة، فلما رآها أخذَ يسترجع؛ أي: يقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، فانتبهت فأناخَ لها البعيرَ فركبت، وسارَ بها حتىٰ لحق بالنبي ﷺ، فأخذ المنافقون ينشرون الإشاعاتِ السيئةَ حولَ الحادثة، ووقعت بلبلةٌ بين الناس بسبب ذلك، وأخذَ النبيُّ ﷺ يفكِّرُ ماذا يفعل بالذين أساؤوا إليه وإلىٰ أهل بيته، فأنزلَ الله تعالىٰ في سورة النور براءةَ السيدةِ عائشةَ مما اتهمها به المنافقون، وأنزلَ حدَّ القذف للذين يتّهمون المؤمنين والمؤمنات بالفاحشةِ وليس لديهم بينةٌ شرعية.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، والذي تولىٰ إشاعةَ السُّوء هو عبدُ الله بن أبيّ بن سَلُول كبيرُ المنافقين، فتبينت براءةُ السيدة عائشة، وأُقيم حَدُّ القذفِ علىٰ الذين خاضوا في ذلك، ولذا يجبُ اعتقادُ براءة السيدةِ عائشةَ مما اتهمها به المنافقون، ومن اعتقد خلافَ ذلك فهو كافر، لأنه يكذِّبُ صريحَ القرآنِ الكريم.

أفضلُ هذه الأمة بعدَ رسولِ الله ﷺ:

٧٥ـ وصحبُهُ خيرُ القُرُونِ فاستَمِعْ ... فتابعيْ فتابِعٌ لِمَنْ تَبِعْ
٧٦ـ وخَيرُهم مَنْ وَلِيَ الخِلافَةْ ... وأمرُهُم في الفَضْلِ كالخِلافَةْ
٧٧ـ يلِيهِمُ قومٌ كرامٌ بَرَرَةْ ... عِدّتُهُم سِتٌّ تمامُ العَشَرَةْ
٧٨ـ فأهلُ بَدْرٍ العَظِيمِ الشّانِ ... فأُحُدٌ فبَيعةُ الرِّضْوانِ
٧٩ـ والسابِقُونَ فَضْلُهُم نَصّاً عُرِفْ ... هذا وفي تعيينِهم قَدِ ٱخْتُلِفْ

لا شكَّ في أن الأمةَ الإسلاميةَ هي أفضلُ الأمم لقول الله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، والصحابةُ الكرامُ أفضلُ الأمة الإسلامية لقول النبيّ ﷺ: «خيرُ الناسِ قَرْني ثم الذين يَلونَهم ثم الذين يلونهم»، متفقٌ عليه.

والصحابيُّ هو: مَن لقيَ رسولَ الله ﷺ مسلماً وماتَ علىٰ ذلك؛ أي: اجتمعَ بالنبيِّ ﷺ حالَ حياته وماتَ بعدَ ذلك مسلماً، ولا يُشترَطُ طولُ الصحبةِ لنَيلِ هذا الشَّرَف، وهذا هو الصحابيُّ عندَ المحدِّثين، وكلُّ صحابيٍ عندَهم عَدْلٌ لا شكَّ في صحةِ ما يرويه عن رسول الله ﷺ، أما علماءُ أصولِ الفقه الذين اعتبروا قولَ الصحابة مصدراً من مصادر التشريع فهم يعنون بالصحابي في هذا المقام، مَن طالَتْ صحبته للنبيِّ ﷺ، وقد سبقَ بيانُ هذا في المقدمة ص١٦.

ويأتي في الأفضلية بعدَ الصحابة: التابعون، ثم تابعو التابعين، للحديث المتقدِّم: «خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، والتابعي هو: من لقيَ الصحابي، وقيل: لا يكفي مجرَّد اللقاء كما هو الحال في لقاء الصحابي مع النبي ﷺ، لأن لقاءَ النبي ﷺ له من الأثرِ ما ليس للقاء غيره.

ولا شكَّ أنّ الصحابةَ بعضُهم أفضلُ من بعضٍ بحسب طولِ الصحبة والأعمالِ التي قدَّموها في طاعة الله ورسوله وخدمة الإسلام، وأفضل الصحابة الخلفاءُ الراشدون الأربعة: أبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ رضيَ الله عنهم، وذلك لما ورد في فضلهم، فقد قال رسولُ الله ﷺ: «الخلافةُ في أمتي ثلاثون سنة، ثم مُلْكٌ بعدَ ذلك»، رواه الترمذي وابن حبان والإمام أحمد، وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاءِ الراشدين المهديين»، رواه الترمذي وأبو داود.

وقد أجمعت الأمةُ الإسلاميةُ علىٰ أن هؤلاء الأربعةَ رضيَ الله عنهم خلفاءُ راشدون، والخلافةُ شأنٌ عظيم، فهيَ النيابةُ عن النبيِّ ﷺ في رعايةِ مصالحِ المسلمين الدينية والدنيوية.

والخلفاءُ الأربعةُ متفاضِلُون حسب تولِّيهم الخلافة، لأنّ أهلَ الحل والعقد من الصحابة اختاروهم بهذا الترتيب، فقد اختاروا أبا بكرٍ مع وجود الثلاثة، واختاروا عمرَ مع وجود عثمانَ وعلي، واختاروا عثمانَ مع وجود عليّ، واختاروا علياً مع وجود غيره من الصحابة، ولذا كان الخارجُ علىٰ علي خارجاً علىٰ الإمام والخليفةِ الشرعي، ويلي الخلفاءَ الأربعةَ في الفضل بقيةُ العشرة المبشَّرين بالجنة، وهم: طلحةُ بن عُبَيد الله، والزبيرُ بن العوّام ابنُ صفيةَ عمّةِ رسول الله ﷺ، وعبدُ الرحمٰن بن عَوف، وسعدُ بن أبي وقّاص، وسعيدُ بن زيد، وأبو عبيدةَ عامرُ بن الجرّاح، وقد بشّر رسولُ الله ﷺ غيرَهم بالجنة، لكنّ هؤلاءِ والخلفاءَ الأربعةَ جاءت بشارتهم في حديثٍ واحد، ولذا إذا ذُكِرَ المبشَّرون بالجنة فالمرادُ هؤلاء العشرة؛ قال رسولُ الله ﷺ: «عشرةٌ في الجنة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمٰن بن عوف، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وأبو الأعور» أي: سعيدُ بن زيد، أخرجه الترمذي وأحمد وأبو داود وابن ماجه.

وبعدَ العشرة يأتي في الفضل أهلُ بدر؛ أي: الصحابةُ الذين حَضَروا معركةَ بدرٍ الكبرىٰ، وكانوا ثلاثمئةٍ وسبعةَ عشرَ رجلاً، فيومُ بدرٍ يومٌ عظيمٌ في تاريخ الإسلام، سمّاه الله تعالىٰ: يومَ الفرقان، وقال رسولُ الله ﷺ لعمر: «وما يدريكَ لعلَّ الله اطَّلَعَ إلىٰ أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة»، رواه البخاري، ويليهم في الفضل أهلُ أُحُد؛ أي: الصحابةُ الذين حضروا معركةَ أحد، وكانوا ألفاً، لكن رجعَ عبدُ الله بن أبيّ بن سَلُول بثلاثمئةٍ من المنافقين.

ويلي أهلَ أُحُدٍ في الفضل أهل بَيعةِ الرِّضوان الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ تحتَ الشجرة في غزوة الحديبية، وكانوا ألفاً وخمسمئة، وفيهم نزلَ قولُ الله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، ونصَّ القرآنُ الكريم أيضاً علىٰ فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، لكن: مَن هم السابقون الأولون؟

اختلفَ العلماءُ في تعيينهم، فقيل: أهلُ بيعة الرضوان، وقيل: أهلُ بدر، وقيل: هم الصحابة، لأنهم سبقوا غيرَهم من الأمة إلىٰ الإسلام، ومن المعلوم أنّ بعضَ الصحابة كان سابقاً في الإسلام لغيره، وبعضَهم كان سابقاً في الهجرة، والأنصارُ منهم من كان سابقاً لغيره في نُصرة النبيّ ﷺ، وكلُّ خيرٍ فقد سبق له قومٌ وتبعهم غيرهم، فرضيَ الله عنهم أجمعين، والفضلُ للسابق.

ومن الجدير بالذكر أن الأفضليةَ المذكورةَ لأهل بدرٍ ثم لأهل أُحُدٍ ثم لأهلِ بَيعة الرضوان هي أفضليةُ الجملة علىٰ الجملة لا أفضليةُ الأفراد علىٰ الأفراد، فلا يُقال: فلانٌ من أهلِ بدرٍ أفضلُ من فلانٍ من أهل أُحُدٍ لأنّ الأول بدريٌّ والثانيَ أُحُديّ، إذ ربما يكونُ للمتأخِّر فضلٌ بسبب زيادةٍ في علمٍ أو عبادةٍ أو جهاد، وليس الغرضُ تفضيلَ شخصٍ علىٰ شخصٍ بل التنويهُ بفضل من نوَّه الله تعالىٰ بفضله، ومن الملاحَظِ أنّ بعضَ الصحابةِ الكرامِ شاركَ في كل مراتبِ الفضل، فأبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ هم خلفاءُ راشدون، ومن العشرة المبشَّرين بالجنة، ومن أهل بدرٍ وأُحُدٍ وبيعةِ الرِّضوان، ومن السابقين الأولين، فإنّ عثمانَ رضيَ الله عنه بدريٌّ وإن لم يحضر بدراً، لأنه تأخَّر عنها بأمرِ النبيِّ ﷺ، ولذا قسمَ له من غنيمةِ بدر.

القولُ في اختلاف الصَّحابة:

٨٠ـ وأَوِّلِ التشاجُرَ الذي وَرَدْ إنْ خُضْتَ فيه واجْتَنِبْ داءَ الحَسَدْ

الصحابةُ الكرامُ فضلُهم لا يُنكَر، وحَسْبُهم قولُ الله تعالىٰ فيهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد وردت أحاديثُ شريفةٌ في فضلهم جملةً وآحاداً، أما الخلافُ والاقتتالُ الذي وقعَ بينهم فالأسلمُ للدِّين عدمُ الخوض فيه، ويكفي أن نحبهم جميعاً ونقتدِيَ بأعمالهم الطيبة الجليلة ونقولَ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، ونقولَ ما قاله ذلك العالم الفاضل عندما سئل عن الفتنة التي وقعت بين الصحابة: «تلك دماءٌ طهَّرَ اللهُ منها سيوفَنا، أفلا نطهِّرُ منها ألسنَتَنا»، وإذا اضطُرَّ المسلمُ للبحثِ في هذا الموضوع للتعليم أو الرد علىٰ المتعصِّبين فيجبُ أن يتحقق أولاً من صحة ما

نُسِبَ إلىٰ الصحابة، فإن الرواياتِ الضعيفةَ لا يُلتَفَت إليها، وما يثبُتُ بالسند الصحيح يجبُ حملُه علىٰ محمَلٍ حسن، وقد تولّىٰ العلماءُ في مؤلَّفاتهم الدفاعَ عن الصحابةِ الكرام، مثل كتاب: «العواصم من القواصم» لابن العربي، وذلك لأنّ النبيَّ ﷺ حَذَّر من الطعنِ في الصحابة فقال: «اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتّخِذُوهم غَرَضاً من بعدي، من آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذىٰ الله، ومن آذىٰ الله يُوشِكُ أن يأخُذَه»، رواه الترمذي، وقال ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فلو أنّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»، أخرجه البخاري ومسلم.

ثم إنّ الطعنَ فيهم طعنٌ غيرُ مباشرٍ بمعلِّمِهم ومربيهم ﷺ، لأن تصويرَهم بصورة الذين يتقاتلون علىٰ الدنيا وينسَون الدِّينَ يعني أنّ النبيَّ ﷺ لم يستطع أن يؤثِّرَ فيهم، والمعلِّمُ القويُّ يؤثِّرُ في تلاميذه، ومهما قيل عن بعض أشخاصٍ من الصحابة فإن الصحابةَ هم الذين نشروا الدِّين الإسلاميَّ وفتحوا الفتوحات، حتىٰ وصلت الفتوحاتُ في زمنهم إلىٰ الصين شرقاً وإلىٰ المحيطِ الأطلسيِّ غرباً، ولولاهم لبقيت شعوبٌ كثيرةٌ في ظُلُماتِ الوَثَنية، وماذا فعل الذين ينتقدونهم؟! لقد أضاعوا دينَهم وأعراضَهم وأوطانهم وأنفسَهم وصاروا مطايا للكافر المستعمر وهم يشعرون أو لا يشعرون، وقد أحسنَ المرحومُ الشيخ محمد يوسُف الكاندهْلَويّ عندما جمعَ قصصَ حياتهم التي تبين فضائلَ أعمالهم وخدماتِهم الجليلة لهذا الدين في كتابه «حياة الصحابة»، ليكونَ منهاجَ حياة المؤمن الصادق.

ثم إن الإقبالَ علىٰ النفس وتهذيبَها من الأخلاق الذميمة كالحسد والحقد والرياء والعُجْب.. أَولىٰ من الخوض في أعراض الصحابة، لأنّ تطهيرَ النفس من الأخلاق الذميمة تتوقف عليه النجاةُ في الآخرة، والخوضُ

في أعراض الصحابة قد يوقع في عداوتهم، وقد قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «من عادىٰ لي ولياً فقد آذنتُهُ بالحرب»، رواه البخاري، وإذا لم يكن الصحابةُ أولياءَ الله فليسَ لله وليٌّ، وقال رسولُ الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنّ أحدَكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذَهَباً ما أدرك مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»، رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم، وقال رسولُ الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، من سبَّ أصحابي فعليه لعنةُ الله»، رواه الخطيبُ عن جابر، والدارقطني عن أبي هريرة، انظر «الصواعق المحرقة» ص٥ .

حكمُ تقليدِ الأئمة:

٨١ـ ومـالِـكٌ وسـائِـرُ الأئِمّـةْ كـذا أبـو القـاسِـمْ هُـداةُ الأُمّـةْ

٨٢ـ فـواجِـبٌ تقليـدُ حَبْـرٍ مِنْهُـمُ كـذا حَكَـىٰ القَـومُ بِلَفْـظٍ يُفْهَـمُ

العملُ بالشريعة الإسلامية واجبٌ علىٰ كل مكلَّف، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال رسولُ الله ﷺ: «لا يؤمن أحدُكم حتىٰ يكونَ هواهُ تَبَعاً لما جئتُ به»، انظر «الأربعين النووية» الحديث ٤٢ . والأحكامُ الشرعيةُ تشمل كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في حياة الإنسان، فلكل صغيرةٍ وكبيرةٍ حكمٌ، والأحكامُ تؤخَذُ من كتابِ الله وسنةِ رسولِ الله وإجماع المجتهدين والقياس، ومن مصادرَ أخرىٰ اختلفت فيها أنظارُ العلماء.

والإحاطةُ بتفسير القرآن، ومعرفةُ الصحيح من غيره في السنة، والوقوفُ علىٰ المُجمَعِ عليه من المسائل، ومعرفةُ طرقِ القياس، ومدىٰ حجية بقية المصادر: ليس بالأمرِ اليسيرِ علىٰ غيرِ المتخصِّص، والمتخصِّصون متفاوتون

في ذلك، وقد برزَ من بينهم علماءُ كبارٌ أجمعَ أهلُ السنة علىٰ فضلهم، وارتضىٰ العلماءُ أقوالَهم ومناهجَهم، وهم: الإمامُ مالكُ بن أنس، والإمام أبو حنيفةَ النعمانُ بن ثابت، والإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، والإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل، وهناك أئمةٌ غيرُهم مثل الثوري وابن عُيينة والأوزاعي، لكن مذاهِبَهم لم تُنقل إلينا بالطريقة العلمية التي نُقلت بها مذاهب الأئمة الأربعة، ولم تنقَّح كما نُقِّحَت المذاهبُ الأربعة.

لذا وجبَ علىٰ غير المجتهد أن يقلِّدَ أحدَ المذاهب الأربعة ويعملَ بها في أمور العبادات والمعاملات وغيرها، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فأهلُ الاستنباط هم المرجعُ بعدَ رسول الله ﷺ، بل في كل علمٍ من العلوم يوجد متخصِّصٌ متبحِّرٌ وغير متخصص، ولا بد أن يرجع غيرُ المتخصص إلىٰ المتخصص فيما أشكلَ عليه.

ومن أئمة المسلمين في علم التوحيد أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتُرِيدي، وفي علم التصوف أبو القاسم الجُنَيد بن محمد، والتصوُّف كما عرّفه الشعراني: (العملُ بالعلم)، والصوفيةُ هم علماء التربية في الإسلام، يعلِّمون الناسَ بطريقةٍ عملية كيف يعملون بعلوم الشريعة وكيف يعبدون الله كأنهم يرونه، وكيف يتخلَّون عن الأخلاق الذميمة ويتحلَّون بالأخلاق الحميدة، وعمدتُهم كتابُ الله وسنةُ نبيه ﷺ وأخلاقُ السلف الصالح، وما نُسِبَ إلىٰ التصوف مما يخالف الشريعةَ فليس من التصوف ولا من الإسلام.

ومن أئمة المسلمين في الحديث: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم من علماء الحديث. فكل العلومُ

الإسلامية لا بد من الرجوع إلىٰ الأئمة المختصّين فيها، فقد نُقلت علومُهم ونُقّحت مذاهبُهم وأُضِيفَ إليها ومُهِّدَ السبيلُ أمام طلاّب العلم، ليظل الإسلامُ حياً قادراً علىٰ حل مشاكل الناس في كل عصر، أما الذي يُعرِضُ عن كل هذه العلوم والجهود بدعوىٰ الاجتهاد والاكتفاء بالكتاب والسنة فقد ضيَّعَ الكثير، وهل وصلَ إلينا الكتابُ والسنةُ إلا عن طريق هؤلاء الأئمة وتلاميذهم وأساتذتهم؟!

القولُ في الأولياء وكراماتهم:

٨٣ـ وأَثْبِتَـنْ لـلأَوْلِيـا الكَـرامَـةْ ومَـنْ نَفـاهـا فـانْبِـذَنْ كَـلامَـهْ

الوليُّ في اللغة: ضدُّ العدو، وأولياءُ الله هم أنصارُ دينه وأعداءُ الكافرين به، والولايةُ نوعان: ولايةٌ عامة، وولايةٌ خاصة، أما الولايةُ العامة فهيَ لكل مؤمن، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وأما الولايةُ الخاصة: فهي للعارفِ بالله تعالىٰ وبصفاته حسبَ الإمكان، المواظبِ علىٰ الطاعاتِ المجتنِبِ للمعاصي، المعرِضِ عن الانهماكِ في اللذات والشهواتِ المباحة، فالوليُّ مَن تولّىٰ اللهُ سبحانه وتعالىٰ أمرَه فلم يَكِلْهُ إلىٰ نفسه ولا إلىٰ غيره لحظةً، والولي هو من تولىٰ عبادةَ الله تعالىٰ وطاعتَه، فعبادتُه تجري علىٰ التوالي من غير أن يتخلّلها عِصيان، فإن بدرت منه هفوةٌ أتبعها بالتوبة، إذ العصمةُ للأنبياء، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، ولا شك في أنّ المسلمين يتفاوتون في التقوىٰ والصلاحِ والالتزامِ بالشريعة الإسلامية، فالأولياءُ هم السابقون لغيرهم في هذا المجال، والله أعلمُ بالسرائر.

وأما الكرامة فهي في اللغة: ما يُكرَمُ به الضيفُ وغيره، والمرادُ بها هنا: أمرٌ خارقٌ للعادة يُظهِرُه الله تعالىٰ علىٰ يد وليٍّ من أوليائه، وقد عرّفها العلماءُ بأنها: أمرٌ خارقٌ للعادة، غيرُ مقرونٍ بدعوىٰ النبوة، ولا هو مقدمةٌ لها، يُظهِرُه الله تعالىٰ علىٰ يد عبدٍ ظاهرِ الصلاح، ملتزمٍ لمتابعة نبيٍّ كُلِّفَ بشريعته، مصحوبٍ بصحيحِ الاعتقاد والعملِ الصالح، عَلِمَ بها أو لم يعلم. فالخوارقُ للعادات أنواع:

١ ـ إن ظهرت علىٰ يد نبيٍ فهي: «معجزةٌ» كما تقدم.

٢ ـ وإن ظهرت علىٰ يد من سيكون نبياً فهي: «إرهاصٌ»، كحادثةَ شَقِّ صدر النبي ﷺ وهو رضيعٌ في بني سعد، رواه مسلم، وتسليم الحجارة عليه قبلَ النبوة، رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي.

٣ ـ وإن ظهرت علىٰ يدِ عبدٍ ظاهرِ الصلاح فهي: «كرامةٌ».

٤ ـ وإن ظهرت علىٰ يد أحدِ عوامِّ المسلمين فهي: «مَعُونةٌ».

٥ ـ وإن ظهرت علىٰ يدِ كاذبٍ في دعوىٰ النبوة مكذِّبةً له فهيَ: «إهانةٌ»، كما روي أن مسيلمةَ بصق في بئر ليفورَ ماؤها فغار الماء.

٦ ـ وإذا ظهرت علىٰ يدِ فاسقٍ أو كافرٍ فهي: «استدراج»، كالذي يشاهَدُ من بعض الكفّار والفسّاق والزنادقة.

والكرامةُ ثابتةٌ بالقرآن والسنة، أما القرآنُ فما أخبر الله عنه من قصة مريم والرزق الذي كان يأتيها في غير وقته، وولادتِها عيسىٰ عليه السلام من غير زوج، وقولِه تعالىٰ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]، وهذا مما لم تجرِ به العادة، فالمرأةُ لا تستطيع هَزَّ جذع النخلة، والرُّطَب لا يسقط بهز الجذع.

وكذلك قصةُ أصحاب الكهف، فقد لبثوا سنينَ بلا طعام ولا شراب، وقصة آصِف الذي عنده علمٌ من الكتاب، فقد أحضرَ عرشَ بَلْقِيس من سَبَأٍ إلىٰ فلسطين قبلَ أن يرتد طرفُ سليمان عليه السلام إليه.

وأما السنة فقد ثبت فيها عدةُ كراماتٍ للصحابة، منها: ما رواه البخاري في قصة استشهاد خُبَيبٍ رضيَ الله عنه وأنه كان لديه عِنَبٌ وهو أسيرٌ في مكةَ موثَقٌ بالحديد وما في مكةَ يومَها عِنَبٌ ولا ثَمَر، ومنها: ما رواه البخاري أيضاً أن أُسَيدَ بنَ حُضَيرٍ ورجلاً آخرَ من الأنصار كانا عندَ رسول الله ﷺ يتحدّثان في حاجةٍ لهما في ليلةٍ شديدةِ الظلام، فلما خرجا أضاءت عصا أحدِهما لهما، فلما افترقا أضاءت عصا الآخر، وغيرُ هذا كثيرٌ في كتب السنة الصحيحة.

وبعدَ ثبوتِ الكرامةِ بالكتاب والسنة لا يُلتفت إلىٰ قول من نفاها كائناً من كان، فقد أنكرها بعضُ المعتزلة بحججٍ عقلية، منها: أن الوليَّ لو أُعطِيَ كرامةً خارقةً للعادة لالتبس أمرُه بالنبي، وهذه الحجةُ باطلة، لأن الوليَّ لا يدّعي النبوة، ولا حجةَ بعد كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ومن المناسب أن نذكِّرَ هنا بأمور:

١ ـ لا يُشتَرَطُ في كل وليّ أن تظهرَ علىٰ يده كرامةٌ، فقد يكون ولياً ولم تُخرَق له العادة.

٢ ـ ظهورُ الأمر الخارق للعادة علىٰ يد إنسانٍ لا يعني أنه ولي، بل لا بد من ملاحظة العمل، فقد سبق أن العادةَ قد تُخرَق لكافر.

٣ ـ قال العلماء: الاستقامةُ عينُ الكرامة، أي إذا صان الله العبدَ عن المعاصي فقد أكرمه وصانه عن مخالطة القاذورات المعنوية، وإذا وفّقه إلىٰ الالتزام بالشريعة فقد أكرمه بالسلوك الأمثل والأنفع في الدنيا والآخرة.

٤ ـ جرت عادةُ الأولياء أن يُخفُوا كراماتهم ولا يتبجّجوا بها، وقد يظهرونها لحكمةٍ شرعية.

٥ ـ مهما كانت الكرامةُ فإن صاحبَها لا يحلِّلُ حراماً ولا يحرِّم حلالاً، فالميزانُ هو الشريعة الإسلامية، والشريعةُ حجةٌ علىٰ كل الناس، وليس فعلُ أحدٍ أو قولُهُ حجةً علىٰ الشريعة إلا رسولَ الله ﷺ، فإن قولَه وفعلَه وإقراره حجةٌ كما هو معلوم.

الدعاءُ ينفع بإذنِ الله:

٨٤ـ وعندَنا أنّ الدعاءَ يَنفَعُ   كما مِنَ القُرانِ وَعْداً يُسمَعُ

الدعاءُ هو: طلبُ الأدنىٰ من الأعلىٰ، والمرادُ بالدعاء هنا هو: طلبُ العِباد مِنَ الله تعالىٰ. وقد أمرنا الله عز وجل بالدعاء ووعدَ بالإجابة، فقال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، كما ذكر لنا القرآنُ الكريمُ أن الأنبياءَ وغيرَهم دعوا الله فاستجابَ لهم، وقد جعل الله تعالىٰ استجابةَ الدعاء دليلاً علىٰ ألوهيته ووحدانيته فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وكان رسولُ الله ﷺ يدعو ويعلِّمُ أصحابه الدعاء، وقد استُجيبَ له ﷺ في مواطنَ كثيرة، وعدَّ العلماءُ من الأدلة علىٰ وجود الله أنّ الناسَ يتوجَّهون إليه بالدعاء عندَ الضيق واليأس من المخلوقات، وهذا كله يدل علىٰ أن الدعاءَ ينفع الأحياءَ والأمواتَ ويضرُّهم.

وقد خالفَ في هذا المعتزلةُ فقالوا: الدعاءُ لا يضر ولا ينفع، لأنّ ما قدّره الله تعالىٰ كائنٌ لا محالة، وأما قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

فالمرادُ (اعبدوني)، لأن العبادةَ تُسمىٰ دعاءً، وهذه حجةٌ باطلة، لأنها تخالف صريحَ الكتاب والسنة والإجماع، وأما احتجاجُهم بالقَدَر فيقال في جوابه: إن الدعاءَ كالدواء والغذاء والشراب، وقد جعلها الله تعالىٰ سبباً للحياة، والمسبِّبُ هو الله تعالىٰ، فإذا قدَّر الله تعالىٰ لعبدٍ أن يعيشَ ألهمه أن يأكلَ ويشربَ ويتداوىٰ، وجعل ذلك نافعاً له، وقد يصرفه عن ذلك كلِّه أو يجعله غيرَ نافعٍ له لكي ينفُذَ قدرُ الله تعالىٰ فيه، ولو ترك إنسانٌ الطعامَ والشرابَ عمداً حتىٰ ماتَ ماتَ عاصياً، وهكذا يُقال في الدعاء، إذا أراد الله بعبده أمراً ألهمه الدعاءَ واستجابَ له، فالدعاءُ من قَدَر الله عز وجل، وقد يصرفه عن الدعاء أو لا يعطيه ما سأل، وليس هذا مناقضاً لقوله تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾، لأنّ الاستجابةَ تتوقف علىٰ مشيئةِ الله تعالىٰ، قال عز وجل: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام: ٤١]، لأنّ الأمورَ لو توقفت علىٰ الدعاء فقط لكان أمرُ العباد مفوَّضاً إليهم، وهذا يفسدهم، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٢٧]، ثم إنّ رغباتِ العباد تتعارض، فهذا يدعو بشفاء فلان وهذا يدعو بموته، وإجابةُ الأمرين معاً مستحيلٌ.

والخلاصة: أنّ الدعاءَ كالدواء قد يؤثِّر وقد لا يؤثر، كل ذلك معلَّقٌ بمشيئة الله تعالىٰ ولا يعارض القدر، لكنْ هنا أمورٌ تدل عليها النصوص الشرعية:

الأول: أن الدعاءَ عبادةٌ يُثابُ عليها العبد وإن لم يحصل له ما طلب، قال ﷺ: «الدعاءُ مُخُّ العبادة»، رواه الترمذي، وفي حديث آخر: «الدعاءُ هو العبادة»، رواه الإمام أحمد ومسلم.

الثاني: أن الدعاءَ المستجابَ ـ غالباً ـ ما توفرت فيه الصفاتُ التالية:

أ - أن يكونَ طعامُ الداعي حلالاً، فقد ذكر رسولُ الله ﷺ: «الرجلُ يُطيلُ السفرَ أشعثَ أغبرَ يَمُدُّ يديه إلىٰ السماء: يا رب يا رب، ومطعمُه حرامٌ، ومشربُه حرامٌ، وغُذِّيَ بالحرام، فأنّىٰ يُستجابُ له»، رواه مسلمٌ.

ب - أن يكونَ الداعي مطيعاً لله تعالىٰ، فقد قال الله عز وجل: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

جـ - أن لا يدعوَ بإثمٍ ولا قطيعةِ رَحِم، ولا بمستحيل.

د - ألا يستعجلَ فيقول: «دعوتُ ولم يُستَجَب لي»، قال رسولُ الله ﷺ: «يُستجابُ لأحدكم ما لم يَعْجَل، يقول: قد دعوتُ فلم يُستَجَبْ لي»، رواه البخاري ومسلمٌ.

الثالث: أن الاستجابةَ أنواع:

أ - قد يُعطىٰ عينَ ما طلب.

ب - قد يُعطىٰ خيراً مما سأل.

جـ - قد يُدفَع عنه من السُّوء مثلُ ما طلب أو أكثر أو يخفَّف عنه البلاء.

د - قد يُدَّخَرُ له أجرُ الدعاء وثوابه إلىٰ الآخرة.

الرابع: أن الدعاءَ له آدابٌ تنبغي مراعاتها، منها:

أ - تحرِّي الأوقات الفاضلة كوقت السجود ووقت الأذان وعندَ السحر وعندَ قتال الكفّار.

ب - أن يُقدِّمَ علىٰ الدعاء الوضوءَ والصلاةَ كما في دعاء الحاجة.

جـ - استقبالُ القِبلة ورفعُ اليدين وتقديمُ الاستغفار والتوبة.

د - أن يبدأ بالحمدِ لله والصلاةِ علىٰ رسول الله ﷺ والسؤالِ بأسماء الله الحسنىٰ، وأن يختمَ بالصلاة علىٰ رسول الله ﷺ، ويجعلَ الصلاةَ عليه ﷺ في وسط الدعاء أيضاً.

الخامس: أن دعاءَ المظلوم مستجابٌ ولو لم تتوفَّر فيه هذه الشروط، بل ولو كان كافراً، قال رسولُ الله ﷺ: «اتق دعوةَ المظلوم فإنه ليس بينَها وبينَ اللهِ حجابٌ» رواه الشيخان، وفي روايةٍ للإمام أحمد: «دعوةُ المظلوم مستجابةٌ وإن كان فاجراً، ففُجُورُه علىٰ نفسه». وقد يستجيبُ اللهُ للعبد مهما كان حالُه وإن لم تتوفَّر الشروطُ والآداب، خاصةً إذا توفَّرَ الإخلاصُ وحضورُ القلب، فإنّ فضلَ الله واسع.

الملائكة الموكَّلُون بالإنسان:

٨٥ـ بِكُلِّ عَبْدٍ حافِظُونَ وُكِّلُوا ... وكاتِبُونَ خِيَرَةْ لَنْ يُهْمِلُوا

٨٦ـ مِنْ أمرِهِ شَيئاً فَعَلْ ولو ذَهِلْ ... حتىٰ الأَنِينَ في المَرَضْ كما نُقِلْ

٨٧ـ فحاسِبِ النفسَ وقَلِّلْ الامَلاَ ... فرُبَّ مَنْ جَدَّ لأمرٍ وَصَلا

قال الله تعالىٰ: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]؛ أي: بأمرِ الله، وقال علماءُ التفسير: معنىٰ الآية أن الله تبارك وتعالىٰ وكَّلَ بكل إنسانٍ ملائكةً يحفظونه من أمامه ومن خلفه؛ أي: من كل جوانبه أينما ذهب، وهم مكلَّفون بهذا بأمرٍ من الله تعالىٰ، ويؤيِّدُ هذا التفسيرَ قولُ الرسول ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاةِ الفجر وصلاةِ العصر، ثم يعرُجُ الذينَ باتُوا فيكم فيسألهم الله، والله أعلمُ بهم: كيفَ تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلُّون وأتيناهم وهم يصلّون»، رواه الشيخان والنسائي.

وهذا يدل علىٰ عنايةِ الله تعالىٰ ببني آدمَ فضلاً منه وكرماً، فإذا أرادَ الله تعالىٰ به أمراً فلا رادَّ لقدره، وعلىٰ العبد أن يشعرَ بهذا الإكرام ويشكرَ الله تعالىٰ عليه.

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ١٧-١٨]؛ أي: مراقبٌ حاضر، وقال عز وجل: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩-١٢]، وهذه الآياتُ تدل علىٰ أن كل إنسانٍ عن يمينه ملَكٌ وعن شماله مَلَكٌ يكتبان ما يصدرُ منه من أقوال، وأفعال، واعتقادات، ونيات، فلا يهملون شيئاً صدرَ منه ولو صدرَ بلا قصد، حتىٰ الأنين الذي يصدر من المريض، والتأوُّه، والضحك، وقال العلماء: إن صاحبَ اليمين يكتبُ الحسناتِ وصاحبَ الشمال يكتب السيئات.

وملائكة الحفظ والكتابة لا يفارقون العبدَ إلا في أحوالٍ يستحيون من حضورها، هي الغائط والجَنابة والغُسْل، أما حديث: «لا تدخل الملائكةُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة»، رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وحديث: «لا تدخلُ الملائكةُ بيتاً فيه جَرَسٌ» رواه أبو داود، فالمرادُ ملائكةُ الرحمة.

وقد بحثَ العلماءُ في كيفية الكتابة، لكنّ تفويضَ أمرِها إلىٰ الله تعالىٰ أحسن، فقد رأينا في هذا العصر مخترعاتٍ لم تكن من قبلُ، تُسجِّلُ الصورةَ والصوت.. إلخ، فتُحصي علىٰ الإنسان كلماتِه، وحركاتِه، والأصواتَ التي تصدرُ منه، بحيثُ لم يعد إحصاءُ هذه الأمور عجيباً، وسبحانَ من علّم الإنسانَ ما لم يعلم.

وإذا كان العبدُ قد علّمه الله تعالىٰ هذا التسجيلَ فإنّ ما عندَ الله لا يعلمه إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يسٓ: ٦٥]، والأولىٰ من التفكير في كيفية الكتابة أن يفكّرَ الإنسانُ فيما يصدرُ منه

حتىٰ لا تصدرَ عنه معصيةٌ يُواجَهُ بها يومَ القيامة، قال تعالىٰ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، فليُحاسِبْ نفسَه علىٰ أعماله، فإن رأىٰ حسنةً حمد الله، وإن وجدَ غيرَ ذلك استغفرَ وتاب.

ومما يَبعث علىٰ محاسبةِ النفس قِصَرُ الأمل والشعورُ بأن الدنيا دارُ ممرٍ وليست بدار مقرّ، قال رسولُ الله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل»، رواه البخاري، وهذا لا يعني تركَ العمل الدنيوي، بل يعني أن يكون العملُ الدنيوي بنيةٍ صالحةٍ تنفع في الآخرة، كنية إعفافِ النفس عن حاجة الناس، وكفاية العِيال، ونفعِ المسلمين مع أداء حقِّ الله، وهكذا كان الصحابةُ الكرام، قال الله تعالىٰ: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٧]، فهم يتّجِرُون ويبيعون ولا يغفلون عن حق الله وذكرِ الآخرة.

الموتُ حقٌّ:

٨٨ـ وواجـبٌ إيمـانُنـا بـالمَـوْتِ ... ويَقْبِـضُ الـرُّوحَ رَسُـولُ المَـوْتِ

قال الله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١-٢]، وهذه الآياتُ تدل علىٰ أن كل نفسٍ حيةٍ لا بد أن تموت، وأن الموتَ حالةٌ يخلقها الله تعالىٰ في الأحياء بتقديرٍ يعلمه الله وفقَ الأجل الذي كتبه الله تعالىٰ، فلا خلودَ في الدنيا لنفسٍ من الأنفُس، ولا عشوائيةَ في

الموت، بل هو بتقدير العزيز العليم، وبهذا تختلفُ عقيدةُ المسلمين في الموت عن عقيدة غيرهم، فكل إنسانٍ يعلم أن الأحياءَ يموتون، لكن الناسَ يختلفون في النظر إلىٰ الموت، وعقيدتُنا فيه أنه بأمرِ الله تعالىٰ وإرادتِهِ وتقديره، فإذا أرادَ إماتةَ حيٍّ أمرَ مَلَكَ الموتِ بقبض روحه، وخلقَ فيه الموت.

وفي هذا الموضوع قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، فنسبَ التَّوَفِّيَ إليه عز وجل، وقال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١]، فنسبه إلىٰ مَلَكِ الموت، وقال تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]، فنسبَ التوفِّيَ للملائكة، وقد جمعَ العلماءُ بين الآياتِ الثلاثِ بأنَّ المميتَ الحقيقيَّ هو الله تعالىٰ، ولذا نسبَ التوفِّيَ إليه حقيقةً، والموكَّلُ بذلك مَلَكُ الموت، وقد اشتُهِرَ أن اسمَه عزرائيل وإن لم يَرِد في ذلك آيةٌ ولا حديث، ولعله مما تناقله الناسُ عن بني إسرائيل، ويساعدُه في ذلك ملائكةٌ كثيرون، ولذا نُسِبَ التوفِّي إليه لأنه كبيرُهم، ونُسِبَ إليهم لأنهم يقومون بمعالجة الأرواح لإخراجها من الأجساد.

وتختلف كيفيةُ قبض روحِ المؤمن عن كيفية قبض روحِ الكافر، فروحُ المؤمن تُقبَضُ بيُسرٍ وسهولة، وروحُ الكافر بشدّةٍ وعُنْف، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٦]،

ومع هذا فقد كان رسولُ الله ﷺ وهو في النزاع يقول: «اللهم أعنِّي علىٰ غَمَراتِ الموت وسَكَراتِ الموت»، رواه الترمذي وغيره.

العمرُ لا يزيدُ ولا ينقُص:

٨٩ـ ومَيِّتٌ بعُمْرِهِ مَنْ يُقتَلُ وغيرُ هذا باطِلٌ لا يُقْبَلُ

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله تعالىٰ ذِكْرُه وكَّلَ بالرَّحِمِ مَلَكاً فيقول: يا ربِّ، عَلَقة، يا ربِّ، مُضْغَة، فإذا أرادَ اللهُ خَلْقَه قال: ربِّ ذكرٌ أم أنثىٰ؟ شقيٌّ أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب ذلك في بطن أمه»، رواه البخاري. وهذا يدل علىٰ أن لكل إنسانٍ أجَلًا لا يتقدم ولا يتأخر، وعمراً لا يزيد ولا ينقص، وهنا يأتي سؤالان:

١ ـ إذا كان العمرُ محدَّداً، فلماذا يأثم ويُعاقَبُ القاتل؟

٢ ـ إذا كان العمرُ محدَّداً فما معنىٰ ما ورد من أن صلةَ الرحم تزيدُ في العمر؟

والجوابُ علىٰ السؤال الأول يحتاج إلىٰ أن نذكِّرَ بمسألة الكسب، فقد سبقَ أن العبدَ يحاسَبُ علىٰ اختياره وليس علىٰ القضاء والقدر، وسبقَ أنّ الله تعالىٰ يعلمُ الأشياءَ قبلَ وقوعِها ولا بد أن تقع كما عَلِمَها، وهو تعالىٰ خالِقُ جميع أفعالِ العباد، وهنا يُقال: إنّ القاتلَ لم يَطَّلع علىٰ الأجَل الذي كتبه الله تعالىٰ للمقتول، ولم يقتله لأنه عَلِمَ انتهاءَ أجلِه، فالآجالُ لا يعلمُها إلا الله تعالىٰ، بل اختارَ قتلَه لحاجةٍ في نفسه سواءٌ كانت مشروعةً كالقتل قِصاصاً، أو غيرَ مشروعةٍ كالقتل للاستيلاء علىٰ ماله، وهذا مَناطُ التكليف والحساب، ولذا قال ﷺ: «إذا التقىٰ المسلمانِ بسَيفَيهِما فالقاتلُ والمقتولُ في النار»،

قالوا يا رسولَ الله: هذا القاتلُ فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً علىٰ قتلِ صاحبه»، رواه البخاري ومسلم. إذن فالعمرُ محدَّدٌ والقاتلُ ظلماً آثمٌ لاختياره القتل.

وأما السؤالُ الثاني فهو إشارةٌ إلىٰ حديث: «مَن أحبَّ أن يُبسَطَ له في رزقه وأن يُنْسَأَ له في أثره فليَصِلْ رَحِمَه»، متفقٌ عليه، وهذا أيضاً يُجابُ عنه بمثل الجواب عن فائدة الدعاء، فنقول: إنّ صلةَ الرَّحِمِ سببٌ لطول العمر، كما أن الطعامَ والشرابَ والدواءَ أسبابٌ لاستمرار الحياة، والله تعالىٰ خالقُ السبب والمسبَّب، فإذا أرادَ استمرارَ حياةِ عبدٍ من عباده ألهمَهُ أن يأكلَ ويشربَ ويتداوىٰ، وإذا أراد أن يُطِيلَ عمرَ عبدٍ أكثرَ من أقرانه ألهمه أن يَصِلَ رحمه، والمقصودُ بالحديث الحثُّ علىٰ صلةِ الأرحام، وقال العلماء: قد يكونُ معنىٰ زيادةِ العمر البركةَ فيه بحيثُ يعمَلُ فيه أعمالاً نافعةً في الدنيا والآخرة أكثر ممن عاشوا نفسَ المدة.

هل تفنىٰ الرُّوحُ وعَجْبُ الذَّنَب؟

٩٠- وفي فَنا النفْسِ لَدَىٰ النَّفْخِ ٱخْتُلِفْ ... وٱستَظْهَرَ السُّبْكِيْ بقَاها اللَّذْ عُرِفْ

٩١- عَجْبُ الذَّنَبْ كالرُّوحِ لكِنْ صَحَّحا ... المُـــزَنِـــيُّ للبِــلاَ ووَضَّحــا

٩٢- و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ قد خَصَّصوا ... عمـومَـهُ فـٱطْلُـبْ لما قَـدْ لَخَّصُـوا

قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٦-٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

هذه الآياتُ الكريمةُ تُفِيد أن البقاءَ لله تعالىٰ، وما سواهُ قابلٌ للهَلاك، ولا بدَّ أن يهلك، لأن بقاءَ الله تعالىٰ لذاته غيرُ متوقِّفٍ علىٰ شيءٍ آخر، وبقاءُ غيره متوقِّفٌ علىٰ إرادةِ الله عز وجل، وقد أراد الفناءَ لكل المخلوقات لحكمةٍ يعلمها، ثم يبعثهم مرةً أخرىٰ كما يريد عز وجل، لكن وردت أدلةٌ علىٰ بقاء الروح وبقاء عَجْبِ الذَّنَب من الإنسان، فهل نأخذُ بعمومِ الآياتِ أم بالأدلةِ الخاصةِ بالرُّوح وعَجْبِ الذنب؟

أما الروحُ فقد اتفقَ العلماءُ علىٰ أنّها تبقىٰ بعدَ مفارقةِ الجَسَد، وروحُ المؤمن تكون منعَّمةً، وروحُ الكافر معذَّبةً، لكن عند النفخة الأولىٰ هل تفنىٰ؟ قال بعضُ العلماء: نعم، تفنىٰ لعموم قوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾، والروحُ شيءٌ فلا بدَّ أن تهلك، وقال بعضُهم: بل تبقىٰ وهي مستثناةٌ من الهلاك بمشيئة الله تعالىٰ، لأن بقاءها بعدَ مفارقة الجسد معروفٌ، فهي تُسأل في القبر، وتُنعَّم أو تعذَّب، ولا دليلَ علىٰ الفَناء بعدَ ذلك.

وأما عَجْبُ الذَّنَب فهو عظمٌ صغيرٌ في آخر العمود الفقري للإنسان في العُصْعُص، وقد قال فيه رسولُ الله ﷺ: «ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلىٰ إلا عَظْماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَب، منه خَلْقُ الخَلْقِ يومَ القيامة»، رواه البخاري ومسلم. وعندَ مسلمٍ بلفظ: «كلُّ ابنِ آدمَ يأكله الترابُ إلا عَجْبَ الذَّنَب، منه خُلِقَ ومنه يُركَّب»، وفي حديثٍ آخر: «إنّ في الإنسان عَظْماً لا تأكله الأرضُ أبداً»، رواه مسلمٌ، ولأجل هذه الأحاديث قال بعضُ العلماء إنّ عَجْبَ الذَّنَب لا يفنىٰ، وهو مستثنىً من الآية، وقال بعضُهم: بل يفنىٰ نظراً لظاهر قول الله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾، ومن القائلين بفناء عَجْبِ الذَّنَب الإمامُ المُزَنِيُّ، وهو من أشهر تلاميذ الإمام الشافعيِّ رحمهما الله تعالىٰ.

وهاتان المسألتان الخلافيتان سببُ الخلافِ فيهما التعارضُ الظاهرُ بين الأدلة، ولو قلنا لا تعارضَ لم يكن قولنا بعيداً، لأنّ الآياتِ تدل علىٰ هلاكِ وفناءِ ما سوىٰ الله تعالىٰ، وإذا مات الإنسانُ وفني جسمُه فقد هلك وإن بقيت روحُه وعَجْبُ ذَنَبِه، وبهذا يزول التعارض، مع أن العلماءَ قالوا: إن قولَ الله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ عامٌّ مخصَّصٌ بما دلت عليه الأدلة الشرعية وهو بقاء العرش، والكرسي، والجنة، والحُور العِيْن، وعَجْب الذنب، والأرواح، وأجسام الأنبياء، والشهداء، واللوح، والقلم. ومن العلماء مَن قال: لا تخصيصَ، لأنّ معنىٰ: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ أي: كل شيءٍ قابلٌ للهلاك إلا وجهه.

نؤمنُ بالرُّوح ولا نبحثُ في حقيقتها:

٩٣ـ ولا نَخُضْ في الرُّوحِ إذ ما وَرَدا ... نـصٌّ عـن الشـارعِ لَكِـنْ وُجِـدا

٩٤ـ لِمَالِكٍ هِيْ صُورةٌ كالجَسَدِ ... فحَسْبُـكَ النـصُّ بهـذا السَّنَـدِ

٩٥ـ والعَقْلُ كالرُّوحِ ولَكِنْ قَرَّرُوا ... فيـهِ خِـلافـاً فـانْظُـرَنْ مـا فَسَّـرُوا

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، والذين سألوا عن الروح هم اليهود، وكان الجوابُ أنها من أمر الله؛ أي: الذي لم يُطلِع عليه الخَلْق، ومعلومٌ أن السائلَ عن أيِّ موضوعٍ لا يمكن أن يفهمَ الجوابَ إلا إذا كان لديه مقدارٌ مناسبٌ من العلم بما ينبني عليه الجواب، فالطفلُ إذا سأل عالمَ الإلكترونيات: كيف يلتقط الراديو الصوتَ والتلفازُ الصورةَ لا يجيبه بالأسلوب العلمي الذي يخاطِبُ به المختصِّين بهذا العلم، لأنه لا يوجد لدىٰ الطفل مقدارٌ من العلم بهذا الموضوع يبني عليه الجواب، فيقول له العالم: إذا كبرتَ سوف تعرفُ

إن شاء الله. وهكذا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لم يُجِبِ الله تعالىٰ السائلين عن الروح، لأنها من عالمٍ آخرَ ليس للناس علمٌ به، فلا يُدركون الجوابَ لو أجابهم، ولذا صرفهم عن الجواب عن حقيقة الروح إلىٰ بيان أنها من أمر الله الذي لم يطَّلِعوا عليه، لأن ما يعلمه الإنسان قليلٌ جداً بالنسبة إلىٰ علم الله تعالىٰ، فمخلوقاتُ الله تعالىٰ لا يحيط بها علماً إلا الله عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولهذا لم يَخُض العلماءُ في حقيقة الروح، بل نَهَوا عن ذلك، لأنه لم يَرِد في هذا الموضوع شيءٌ في الكتاب ولا في السنة، لكن بحثَ بعضُهم في آثارها، فإن الحياةَ من آثار الروح، والحسُّ والحركةُ من آثار الحياة، والمحبةُ والكراهيةُ من آثار الروح، قال رسولُ الله ﷺ: «الأرواح جنودٌ مجندةٌ، فما تعارَفَ منها ائتلف، وما تَناكَرَ منها اختلف»، رواه البخاري ومسلمٌ.

ويجبُ الاعتقادُ بوجود الروح، لأن القرآنَ الكريمَ أخبر عنها وكذلك السنة الصحيحة، ونفوِّضُ علمَ حقيقتِها إلىٰ الله عز وجل، وقد تكلَّمَ بعضُ العلماء في وصفِها، فقال الإمام النوويّ: وأصحُّ ما قِيل فيها ما قاله إمامُ الحرمَين: إنها جسمٌ لطيفٌ شفّافٌ حيٌّ بذاته، مشتبكٌ بالأجسامِ الكثيفةِ اشتباكَ الماء بالعُود الأخضر، واحتجوا لذلك بأن الشرعَ وصفَها بالعروج والهبوط والتردُّدِ في البَرْزَخ، قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ أرواحَ الشهداءِ في طَيرِ خُضْرٍ تَعْلَقُ مِن ثمرِ الجنة»، رواه الترمذي. ونُقل هذا القولُ عن أصحاب مذهبِ الإمام مالك بن أنس رضيَ الله عنه، وهذا يعني جوازَ البحث في أمر الروح، وإن كان الأَولىٰ عدمَه، لأنّ ما وراءَ المادة لا يمكن معرفةُ الصواب فيه من الخطأ إلا بدليلٍ من الكتاب أو السنة، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وما قيل في الروح يُقال في العقل، فالعقلُ لغةً المنع، ومنه عِقالُ البعير الذي يمنعه من السير، وسُمِّيت الخاصيّةُ الكريمةُ التي ميَّزَ اللهُ بها الإنسانَ عن الحيوان (عقلًا) لأنها تمنع صاحبَها من العدول عن سواء السبيل، فالحيوانُ يسترسل مع شهواته وغرائزه، والإنسان يقدِرُ علىٰ منع نفسه من ذلك إذا كانت تخالفُ عقيدتَه أو النظامَ الذي يلتزم به، أو تجلِبُ له ضرراً عاجلًا أو آجلًا، لكن ما هي حقيقة العقل؟ لم يرد في ذلك نصٌّ فلا نخوضُ في حقيقة العقل، وقد وصفَ العلماءُ آثاره فقالوا: (هو غريزةٌ يَتَهَيّأُ بها لدَرْكِ العلومِ النظرية، وكأنه نورٌ يقذفُه اللهُ في القلب)، وقد ذكر الإمامُ الغزالي في «الإحياء» أنّ أربعَ كلماتٍ تَرِدُ في اصطلاح الشرع بمعنىً واحدٍ وتَرِدُ أحياناً بمعانٍ مختلفة، وهي: الروح والعقل والنفس والقلب، فالروحُ تُطلق ويُراد بها: جسمٌ لطيفٌ ينتشرُ من القلبِ إلىٰ سائر البدن، والعقلُ يُطلق ويُراد به العلمُ بحقائق الأمور، والنفسُ تُطلق ويُراد بها المعنىٰ الجامعُ لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، والقلبُ يُطلق ويُراد به الجسمُ الصنوبري الذي يدفع الدم إلىٰ أنحاء الجسم، وتُطلَقُ الكلماتُ الأربع ويُراد بها تلك الخاصيةُ التي جعلها الله في الإنسان وميّزه بها عن سائر الجمادات والنباتات والحيوانات، وهذه الملاحظةُ من الإمام الغزاليِّ مهمةٌ جداً تَحُلُّ بعضَ الإشكالات في تفسير النصوص الشرعية. (الإحياء ج٣: ص٣ بتصرف).

السؤالُ في القبر حقٌّ، وكذا النعيمُ والعذابُ فيه والبعثُ والحشرُ يومَ القيامة:

٩٦ـ سُـؤالُنـا ثـمّ عـذابُ القبـرِ نعيمُـهُ واجِـبْ كبَعْـثِ الحَشْـرِ

من الأمور الغيبية التي يجبُ الإيمانُ بها: سؤالُ منكرٍ ونكيرٍ للناس في قبورهم بعدَ الدفن، ونعيمُ المؤمنين في قبورهم، وعذابُ الكافرين

والعاصين في قبورهم، والبعثُ بعد الموت، والحشرُ بعدَ البعث. فقد روىٰ البخاري ومسلمٌ عن أنس رضيَ الله عنه أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن العبدَ إذا وُضع في قبره وتولّىٰ عنه أصحابه، وإنه لَيَسمعُ قَرْعَ نِعالهم، أتاهُ ملكانِ فيُقعِدانِه فيقولان: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ لمحمدٍ ﷺ، فأما المؤمنُ فيقول: أشهدُ أنه عبدُ الله ورسولُه، فيُقال له: انظر إلىٰ مقعدِكَ من النار قد أبدلكَ الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً، وأما المنافقُ والكافرُ فيُقال له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقولُ ما يقولُ الناس، فيقال له: لا دَرَيتَ ولا تَلَيت، ويُضرَبُ بمطارِقَ من حديدٍ ضربةً فَيَصِيحُ صيحةً يسمعُها من يليه غيرُ الثَّقَلَين»، وقد روىٰ الترمذيُّ عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا قُبِرَ الميتُ أتاهُ ملكانِ أسودانِ أزرقانِ يُقال لأحدهما: المنكَر، وللآخَر: النكير»، وفي هذا الموضوع أحاديثُ متعددة، وهذان الملكانِ شَفِيقانِ رَفِيقانِ بالمسلم، وشديدانِ علىٰ الكافر والمنافق.

وأما نعيمُ القبر فيدل عليه:

١ ـ قولُ الله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩]، ووجهُ الدلالة: أن الآيةَ وردت في حالِ الإنسانِ عندَ الاحتضار، وقد ذَكَرَت أن المُحتضِرَ المقرَّبَ عندَ الله يشعر بالراحة عند الموت ويُقَدَّمُ له الرَّيحان ثم يكون مصيرُه إلىٰ الجنة.

٢ ـ وقد قالَ الله تعالىٰ عن الشهداء: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وهذا قبلَ يومِ القيامة، وهي الفترة التي تُسمّىٰ فترةَ البَرْزَخ، وغالبُ الناس فيها يكونون في القبور.

٣ ـ ما وردَ في عذابِ الكافرِ في القبر يدل علىٰ أن المسلمَ يكون منعَّماً في قبره.

٤ ـ روىٰ الترمذي والطبراني عن أبي سعيدٍ الخُدْري أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «القبرُ رَوضةٌ مِنْ رياض الجنة أو حُفرةٌ من حُفَر النار»، وهو حديثٌ ضعيفٌ لكن له ما يؤيدُه.

وأما عذابُ القبر فيدل عليه:

١ ـ قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، فالآيةُ تدل علىٰ أن عذابَ الكافرين يبدأ من وقت الاحتضار.

٢ ـ قولُ الله تعالىٰ عن قوم نوحٍ عليه السلام: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، والفاءُ تدل علىٰ الترتيب والتعقيب؛ أي: أُدخِلُوا النارَ بعدَ غَرَقهم.

٣ ـ قولُه تعالىٰ عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فدلت الآيةُ علىٰ أنهم يُعرَضون علىٰ النار قبلَ يوم القيامة؛ أي: في فترة البرزخ والتي يكون فيها الأمواتُ غالباً في القبور.

٤ ـ ما رواه البخاري ومسلمٌ عن ابن عباسٍ رضيَ الله عنهما قال: مرَّ النبيُّ ﷺ بقبرَين فقال: «إنهما ليُعذَّبان، وما يعذَّبان في كبير، ألا إنه كبيرٌ، أمّا أحدُهما فكان لا يَستنزهُ من بولِه، وأما الآخرُ فكان يمشي بالنميمة»، ثم أخذَ جريدةً رَطْبةً فشقَّها نصفَين، ثم غَرَزَ في كل قبرٍ واحدةً وقال: «لعلَّه أن يخفَّفَ عنهما ما لم تيبسا»، انظر: البخاري (٢١٥) ومسلم (٢٩٢).

٥ ـ كان رسولُ الله ﷺ يستعيذُ بالله بعدَ التشهّد في الصلاة من عذاب القبر ويعلِّمُه للناس، فكان يقول: «اللهم إني أعوذُ بكَ من عذابِ جهنم،

وعذابِ القبر، وفتنة المحيىٰ والممات، وفتنةِ المسيحِ الدَّجّال»، رواه البخاري (١٣٠٩) ومسلمٌ (٢٨٦٩). وقد ألَّفَ البيهقيُّ رحمه الله كتاباً في إثباتِ عذاب القبر جمعَ فيه الأدلةَ علىٰ ذلك.

وأما البعثُ فأدلته كثيرةٌ من القرآن والسنة، منها قولُ الله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[التغابن: ٧].

والبعثُ معناه: إحياءُ الأموات وخروجُهم من قبورهم، وهذا يكونُ يومَ القيامة، ولذا يُسمّىٰ يومُ القيامة يومَ البعث.

وأما الحشر: فأدلته أيضاً كثيرةٌ في القرآن والسنة، منها قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٧]، ومعنىٰ الحشر: جمعُ الناس بعدَ أن يقوموا من قبورهم ليحاسَبُوا علىٰ ما عَمِلُوا في الدنيا، وتُحشَرُ الحيواناتُ أيضاً لِيَقْتَصَّ بعضُها من بعض، ثم تكونُ تراباً بأمرِ الله عز وجل، قال رسولُ الله ﷺ: «لتُؤَدُّنَ الحقوقَ إلىٰ أهلها يومَ القيامة حتىٰ يُقادَ للشاةِ الجَلْحاء من الشاةِ القَرْناء تَنْطَحُها»، رواه مسلمٌ. والجَلْحاءُ هيَ التي لا قُرونَ لها، والقَرْناءُ: ذاتُ القرون.

وهنا أمورٌ لا بد من بيانها:

الأول: أن الفترةَ الممتدةَ من موت الإنسانِ إلىٰ يوم القيامة تُسمّىٰ فترةَ البَرْزَخ، والبرزخُ في اللغة: الحاجزُ بين الشيئين، فالفترةُ الفاصلةُ بينَ الموتِ والبعثِ يومَ القيامة، تسمىٰ البرزخ، وقد ذكرها الله تعالىٰ في القرآن الكريم فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وبما أنّ غالبَ الناس يكونون في هذه الفترة في القبور تُسمىٰ أيضاً فترة

القبر، فيقال: نعيمُ القبر، وعذابُ القبر، وسؤالُ القبر، فالذي يراه مَن في القبر يراهُ غيرُه من الأموات الذين لم يُقبَروا كمَن أُحرِقَ أو أكلَتْهُ السِّباع.

الثاني: أن نعيمَ القبرِ وعذابَه والسؤالَ فيه من عالم الغَيْب وليس من عالم الشهادة؛ أي: العالَمُ الذي لا نُحِسُّ به، ولذا لا تُرىٰ آثارُ النعيم أو العذابِ علىٰ الميت، وقد قال الإمامُ الغزالي رحمه الله ما معناه: إنّ أدنىٰ درجات الإيمان بنعيم القبر وعذابه أن تعتقدَ أنه كالذي يراه النائم، فالنائمُ قد يكونُ مسروراً أو متألماً خائفاً ولا يظهرُ ذلك علىٰ بدنه، مع أن الفرحَ والألمَ موجودٌ في حقه، وهكذا الميت... وأعلىٰ درجاتِ الإيمان به أن تعتقدَ أنه حقٌّ وموجودٌ وتفوِّضَ كيفيتَه إلىٰ الله تعالىٰ. انظر «الإحياء».

وإذا وردَ ذكرُ الشيء في الكتاب أو السنة الصحيحة فما علينا إلا التصديقُ والتسليم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]، والعاقلُ يشتغل بما ينفعه في ذلك الموقف، والبطَّال يقيسُ الأمورَ بهَواهُ ثم لا ينفعُه ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

الثالث: أن الجوابَ في القبر جوابُ عملٍ وعقيدةٍ وليس جوابَ علمٍ بلا عملٍ ولا عقيدة، فالمؤمنُ يُجيب علىٰ أسئلةِ الملائكة جواباً صحيحاً وإن كان في الدنيا أمياً لا يقرأ ولا يكتب، والكافرُ والمنافقُ لا يستطيع الإجابة ولو كان عالماً في الدنيا، ولذا يَسألُ المؤلِّفُ رحمه الله التثبيتَ عندَ السؤال مع علمه الغزير فيقول:

هــذا وأَرْجُــو اللهَ أن يَمْنَحَنــا ... عنــدَ السُّــؤالِ مُطْلَقــاً حُجَّتَنــا

وكلّنا يدعو بدعائه، والله يستجيبُ بفضله، قال الله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

الرابع: أن الميِّتَ في قبره يسمع، بدليلِ حديثِ البخاري السابق: «وإنه لَيسمَعُ قَرْعَ نِعالهم»، وحديثِ قتلىٰ بَدْرٍ من المشركين عندَما خاطبهم النبيُّ ﷺ وهم في القليب، فقال عمرُ رضيَ الله عنه: يا رسولَ الله، ما تكلِّمُ مِن أجسادٍ لا أرواحَ فيها؟ فقالَ ﷺ: «ما أنتم بأسْمَعَ منهم، ولكن لا يُجِيبون»، رواه البخاري (١٣٠٤).

الخامس: وردَ أنّ الأنبياءَ والشهداءَ وبعضَ الصالحين لا يُسألون في قبورهم، قال رسولُ الله ﷺ عن الشهيد: «كفىٰ بِبارِقةِ السُّيوفِ علىٰ رأسه فتنةً»، رواه النَّسائي.

الله تعالىٰ يبعثُ الأجسادَ بعدَ عدمِها:

٩٧ـ وقُلْ يُعادُ الجِسمُ بالتَّحْقِيقِ ... عن عَدَمٍ وقيلَ عن تَفْريقِ

٩٨ـ محْضَيْنِ لَكِنْ ذا الخِلافُ خُصّا ... بالأنْبِيا ومَنْ عَليهِم نُصّا

تقدم أن الله تعالىٰ يبعثُ الأمواتَ من قبورهم، لكنّ هذا البعثَ هل يكونُ بعدَ انعدام الجسم نهائياً أم بعدَ تفرُّقِ أجزائه؟ ولإيضاحِ هذه النقطة أذكِّر بأنّ العالَمَ كلَّه كان معدوماً ثم أوجده الله تعالىٰ بقدرته، ومن جُملة ما أوجده الله تعالىٰ الأرضُ، ومنها خَلْقُ الإنسان، أما آدمُ فقد بيَّنَ الله تعالىٰ كيف خَلَقَه من تراب، وأما أبناؤه فمعلومٌ أنّ جسمَ الإنسان ينمو بالغذاء، والغذاءُ من نباتٍ أو حيوان، والحيوانُ يتغذّىٰ بالنبات، والنباتُ يتغذّىٰ من عناصر التراب، فكلُّ إنسانٍ وحيوانٍ مكوَّنٌ حقيقةً بقدرةِ الله تعالىٰ من التراب، وعندما يموتُ الإنسانُ أو الحيوانُ يعود تراباً ولو بعدَ حين، وقد استبعد الكفارُ أن يُبعثوا بعدَ أن يصيروا تراباً، قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [قَ: ٢-٣]، وقد ردَّ الله

عليهم بأنّ الذي خلقهم من العدم قادرٌ علىٰ إعادتهم بعدَ تفرُّق أجزائهم، لكنْ هل يَصِلُ فَناءُ جسم الإنسان إلىٰ درجة أن يعودَ إلىٰ ذرّاتٍ كالتي بُنِيَ منها، أم يزيدُ الأمرُ علىٰ ذلك بحيثُ تتلاشىٰ الذرات وتُعدَم كما كانت قبلَ أن تُخْلَق؟! بهذا قال بعضُ العلماء وبذلك قال بعضُهم، والله قادرٌ علىٰ هذا وذاك، وقولُه تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، يصدُقُ علىٰ هذا وذاك، لأنّ من تحلَّلَ إلىٰ ذراتٍ فقد هلك، وقولُه تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، يصدُقُ علىٰ الأمرَين أيضاً، وتحديدُ أحدِ المعنيَين يحتاجُ إلىٰ دليلٍ سمعي، ولا يوجدُ دليلٌ خاصٌّ يرجِّحُ أحدَهما، ولذا فإنّ تفويضَ الأمرِ إلىٰ الله تعالىٰ أولىٰ، والعلماءُ يرجِّحُون انعدامَ ذرّاتِ الجسم، ثم يعيدُها الله تعالىٰ من العدم كما بدأها من العدم.

هذا ولا خلافَ بين الفريقين في أن أجسادَ الأنبياء لا تَبْلىٰ، فقد قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله حَرَّمَ علىٰ الأرضِ أن تَأكُلَ أجسادَ الأنبياء»، رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرُهما، انظر «كشف الخفاء» (١: ١٦٧). وكذلك أجسادُ الشهداءِ (والشهيدُ كل من قُتِلَ علىٰ الحق)، والمؤذِّنين احتساباً، والعلماءِ العاملين، وحَمَلةِ القرآنِ الملازمين لتلاوته، العاملين بما فيه، المعظِّمين له.

وهنا يَسألُ بعضُ الناس: لماذا نجد أجسادَ بعضِ الشهداء قد تحلّلت؟ والجوابُ أن الشهادةَ أمرٌ لا يعلم حقيقتَهُ إلا الله، فنحن نحكُمُ علىٰ كل مَن قُتِلَ في معركةٍ ضدَّ الكفار أنه شهيد، والله أعلمُ بنيته وعمله، ثم إنّ الشهادةَ درجاتٌ بعضُها أفضلُ من بعض، لأن المؤمنين يتفاوتون في الإيمان، فقد تقدَّمَ أن الإيمانَ يزيدُ وينقص.

والخلاصة: أن الأمرَ توقيفيٌّ، فمَن ورد نصٌّ بأن الأرضَ لا تأكلُ جسدَه اعتقدنا ذلك وفوَّضنا أمرَ الآحادِ إلىٰ الله تعالىٰ.

هل تُعاد الأعراضُ والأزمانُ يومَ القيامة؟

والإيمانُ بالحساب واجبٌ:

٩٩ـ وفي إعادةِ العَرَضْ قَولانِ   ورُجِّحَتْ إعادةُ الأعيانِ

١٠٠ـوفي الزَّمَنْ قَولانِ والحِسابُ   حَقٌّ وما في حَقٍّ ٱرتِيابُ

يقسم العلماءُ الموجوداتِ إلىٰ أجسامٍ وأعراض، فالجسمُ ذاتُ الشيء، والعَرَضُ صفته، فإذا قلنا: شجرةٌ خضراءُ كبيرةٌ طويلةٌ عريضةٌ يحرِّكُها الهواء، فالشجرةُ: ذاتٌ، وكونُها خضراءَ: عَرَضٌ، لأنّ لونَها يتغير إذا يبست، وكذلك كونُها كبيرةً، لأنها كانت صغيرةً، وكذلك كونُها طويلةً وعريضةً ومتحرِّكةً، لأن كل هذه الصفاتِ قابلةٌ للتغير، وهكذا يُقال في الإنسان، فيُقال: زَيدٌ شجاعٌ أبيضٌ طويلٌ يجاهدُ في سبيلِ الله، فزَيدٌ ذاتٌ وبقية الصفاتِ أعراضٌ.

وقد اتفق علماءُ المسلمين علىٰ أنّ الأجسامَ تُعادُ يومَ القيامة بأمر الله تعالىٰ، لكنْ: هل تُعادُ الأعراض؟ اختلفَ العلماءُ في هذا، فقال بعضُهم: نعم تُعاد، فيُعاد كل جسمٍ بأعراضه التي يطولُ بقاؤها والتي كانت له في الدنيا، كالطول واللون، أما الأعراضُ التي لا يطولُ بقاؤها كالحركات من صلاةٍ وجهادٍ وغيرِهما فتعودُ صورتُها مجسَّمةً.

وقال بعضُ العلماء: إن الأعراضَ لا تُعاد، لأن الأجسامَ ستعود بأعراضٍ جديدة، إذ الجسمُ لا ينفك عن الأعراض، فإذا عادت الأعراض التي كانت في الدنيا كيف تجتمع مع الأعراضِ الجديدةِ التي وُجدت في الآخرة؟

ثم إنّ الشيءَ الواحدَ يكونُ له أعراضٌ مختلفةٌ في الدنيا، فكيف تجتمع هذه الأعراض؟ فالإنسان يكونُ صغيراً ثم يكبر، فكيف يجتمع الصغرُ والكبر؟

والراجحُ أنّ الأعراضَ التي كانت في الدنيا تعودُ يومَ القيامة بذاتِها مع عَودةِ الأجسام؛ أي: يعودُ الجسمُ بأعراضه التي كانت له في الدنيا، ولذا يتعارَفُ الناسُ في الآخرة، فلا يُقال: كيف تجتمعُ الأعراضُ القديمةُ مع الأعراض الجديدة.

ويبدو لي أن سببَ هذا الخلافِ هو نظرُ العلماء إلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، والأعراضُ من خَلْقِ الله، لكنْ: إذا قلنا بإعادتها كيف نَتصوَّرُ هذه الإعادة؟ ولذا قالَ الإمامُ الباجُوري رحمه الله: «والتفويضُ في مثلِ هذه المواطِنِ أحسنُ»، «حاشيةُ الباجوري علىٰ الجوهرة» ص١٠٢.

واليومَ بعدَ أن رأينا التسجيلَ السينمائيَّ والتلفزيونيَّ الملوَّن لم نَعُدْ نستغربُ أن تعودَ الأعراضُ بلا ذات، فالإنسانُ اليومَ يلقي محاضرةً ثم يجلس ينظر إلىٰ صورته بألوانها وحركاتها وكل صفاتها ويسمع صوتَ نفسه ونبراته من غير أن تكونَ قائمةً بذاته، ويحاسِبُ نفسَه علىٰ ما فيها من أخطاء، ويُسَرُّ لما فيها من حسنات، وقدرةُ الله لا حدودَ لها، وهيَ تفوقُ هذا حتماً، وقد اقتربَ علماؤنا من هذا الذي نراه اليومَ عندما قالوا: إن الأفعالَ تُعاد لها صورةٌ مجسَّمة، فالإيمانُ بظاهرِ الآياتِ والتفويضُ إلىٰ الله تعالىٰ في الكيفيات أَولىٰ.

والزمنُ من خَلْقِ الله تعالىٰ، فهل يُعاد يومَ القيامة؟ الجوابُ علىٰ هذا يحتاج إلىٰ بيانِ معنىٰ الزمن، وقد قيل في تعريفه: هو دَورةُ الفَلَك، فالنهارُ هو من طلوع الفجر إلىٰ غروبِ الشمس، والليلُ من الغروب إلىٰ الفجر، واليومُ من غروب الشمس إلىٰ غروبها مرة أخرىٰ. . ، وهكذا يُقالُ في الأسبوع والشهر والسنة والقَرْن، لكن لولا حركةُ الأرض والشمس والقمر

والنجم لما عرفنا كيف نقيسُ الزمن. ولذا عرَّفوا الزمنَ أيضاً بأنه متجدِّدٌ معلومٌ يقدَّرُ به متجدِّدٌ غيرُ معلوم، وقالوا في تعريفه: مقارنةُ متجدِّدٍ مَوهُوم لمتجدِّدٍ معلوم إزالةً للإبهام، فعندَما تقول: آتيكَ عندَ طلوعِ الشمس، تريدُ أن تحدِّدَ لحظةً في الزمن بحَدَثٍ في الكون يحدثُ في تلك اللحظة.

بعدَ بيان معنىٰ الزمن نقول: الراجحُ إعادةُ أزمنةِ الأجسام التي مرَّت عليها في الدنيا تَبَعاً لإعادة الأجسام. والقولُ الثاني: أن الزمنَ لا يعود، لأنّ إعادته تقتضي اجتماعَ الماضي والحاضر والمستقبلِ في وقتٍ واحد، وهذا مستحيلٌ.

وأجابَ أصحابُ القول الأول بأنّ الإعادةَ تكون بالتدريج، فلا يجتمعُ الماضي مع الحاضر.

وهذا البحث كما ترىٰ ليس فيه دليلٌ من كتابٍ ولا سنة، فتفويضُ أمره إلىٰ الله تعالىٰ أحسن.

الإيمانُ بالحساب واجبٌ:

وإعادةُ الأجسامِ والأعراضِ هو من أجلِ الحساب، فإنّ الله تباركَ وتعالىٰ بيَّنَ في آياتٍ عديدةٍ من القرآن الكريم أنه سيُحاسِبُ الناسَ علىٰ أعمالهم، وكذلك الجنّ، وأكّد هذا رسولُ الله ﷺ في عدة أحاديث، وهو مما أجمعَ عليه المسلمون، فالإيمانُ به ركنٌ من أركان الإيمان، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، وقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، وقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ»، متفقٌ عليه، وقال

عليه الصلاة والسلام: «يدخلُ الجنةَ من أمتي سبعونَ ألفاً بغيرِ حساب، هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ ولا يَتَطَيَّرون، وعلىٰ ربهم يتوكَّلُون»، رواه البخاري.

والمرادُ بالحساب: أن اللهَ عزَّ وجل يُوقِفُ العبادَ قبلَ انصرافهم من المحشَرِ علىٰ أعمالهم وأقوالهم واعتقاداتهم، وهذا الحسابُ منه اليسيرُ والعسير، والسرُّ والجَهْر، والتوبيخ، والفضلُ والعَدْل، والمناقشةُ المفصَّلة، والعَرْضُ السريع، وأذكرُ هنا صورتين للحساب وردَ بهما حديثانِ صحيحان:

الأول: عن ابن عمرَ رضيَ الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ الله تعالىٰ يُدْني المؤمنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَهُ وسِتْرَهَ من الناس، ويقرِّرُهُ بذنوبه فيقول: أتعرِفُ ذنبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم أيْ رَبِّ، حتىٰ إذا قرَّره بذنوبه ورأىٰ في نفسه أنه قد هَلَكَ قال: فإنّي سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفِرُها لكَ اليوم. ثم يُعطىٰ كتابَ حسناته بيمينه، وأما الكافرُ والمنافقُ فيقولُ الأشهاد: هؤلاء الذين كَذَبوا علىٰ ربهم، ألا لعنةُ الله علىٰ الظالمين» رواه البخاري ومسلم، انظر «الجامع الصغير» (١ : ٢٥٥).

الثاني: عن أنسٍ رضيَ الله عنه قال: كنا عندَ النبيِّ ﷺ فضحكَ حتىٰ بَدَت نواجِذُه، قال: «أتدرُون ممَّ أضحك؟»، قلنا: لا يا رسولَ الله، قال: «من مخاطبةِ العبدِ لربِّه، يقولُ: يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظلم؟ فيقول: بلىٰ، فيقول: إني لا أُجيزُ عليَّ إلا شاهداً مني، فيقول: كفىٰ بنفسِكَ اليومَ عليكَ شهيداً وبالكرام الكاتبينَ شهوداً، فيُختَمُ علىٰ فِيه، ويُقال لأركانه: انطِقي، فَتنطِقُ بأعماله، ثم يُخلَّىٰ بينَه وبينَ الكلامِ فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحْقاً فعنكُنَّ كنتُ أناضِل»، رواه الإمام أحمد ومسلم.

أمّا كيفَ يكونُ حسابُ الخلائق علىٰ كثرتهم فذلك أمرٌ نفوِّضه إلىٰ الله، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وقال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، فاليومُ طويلٌ واللهُ سريعُ الحساب، وندعو الله تعالىٰ أن يُدخِلَنا الجنةَ بغير حسابٍ بفضله وكرمه، فقد قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الحسابَ هَلَك»، فقالت عائشةُ رضيَ الله عنها: يا رسولَ الله، إنّ اللهَ عز وجل يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق: ٧-٨]، قال: «ذلك العَرْض»، رواه البخاري.

مضاعفة الحسناتِ دونَ السيئات:

١٠١ـ فالسيئاتُ عِنْدَهُ بالمِثْلِ والحَسَناتُ ضُوعِفَتْ بالفَضْلِ

السيئةُ: ما يُذَمُّ فاعلُه شرعاً، وسُمّيت سيئةً لأنّ صاحبَها يُساء بها عند المقابلة عليها، والحسنة: ما يُحمَدُ فاعلُه شرعاً، وسُميت حسنةً لأن صاحبَها يَحسُنُ وجهه عند رؤيتها، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

والآياتُ والأحاديثُ بهذا المعنىٰ كثيرةٌ، وهي تفيد أن من عملَ سيئة تُسجَّلُ عليه كما هي كبيرةً كانت أو صغيرة، ويُعاقَبُ عليها بحسبها إلا أن يعفوَ الله عنه، وكل ذنبٍ قابلٌ للعفو إلا الشرك، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وأما الحسنة فتُسجَّلُ لصاحبها مضاعَفةً عشرةَ أضعافٍ علىٰ الأقل، أي كأنه عمل عشرَ حسناتٍ مثلها، وقد تُضاعَفُ سبعمئةِ ضعفٍ أو أكثر بحسب مشيئة الله عز وجل.

ومن هَمَّ بحسنةٍ ولم يعملها كُتبت له حسنةً واحدة؛ أي: كأنه عملها مرةً واحدة، ومن هَمَّ بسيئةٍ ثم تركها خوفاً من الله تعالىٰ أو حياءً منه عز وجل كُتبت له حسنةً واحدة، قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله تعالىٰ كتبَ الحسناتِ والسيئاتِ ثم بيَّن ذلك، فمن هَمَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله تعالىٰ عندَه حسنةً كاملة، فإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله عندَه عشرَ حسناتٍ إلىٰ سبعمئةِ ضِعْفٍ إلىٰ أضعافٍ كثيرة، وإن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله تعالىٰ عنده حسنةً كاملة، فإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله تعالىٰ سيئةً واحدةً، ولا يهلك علىٰ الله إلا هالك»، متفقٌ عليه.

أما إن تركَ المعصيةَ لعدم قدرته عليها وهو مصمِّمٌ عليها فإنها تُكتب عليه سيئةً لحديث: «إذا التقىٰ المسلمانِ بسيفَيهما فقَتل أحدُهما صاحبَه فالقاتلُ والمقتولُ في النار»، قيلَ: يا رسولَ الله، هذا القاتلُ فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً علىٰ قَتلِ صاحبِه»، رواه البخاري ومسلمٌ وغيرهما.

وهذا فضلٌ من الله تعالىٰ أن يضاعفَ الحسناتِ ولا يضاعفَ السيئات، والعاقلُ يَعُدُّ سيئاته ويخافُ منها ولا يغترُّ بحسناته، ويسألُ اللهَ تعالىٰ أن يقبلها، فالاعتمادُ علىٰ فضله تعالىٰ.

الكبائرُ والصغائرُ ومكفِّراتُ الذنوب:

١٠٢- وبٱجتِنابِ للكَبائِرْ تُغْفَرُ   صَغائِرٌ، وجا الوُضُو يُكَفِّرُ

الذنبُ كل فعلٍ عُصِيَ الله تعالىٰ به، ويُسمىٰ معصيةً، وخطيئةً، وسَيِّئةً، وجريمةً، وتنقسم الذنوبُ إلىٰ صغائرَ وكبائرَ كما سيأتي، ودليلُ هذا التقسيم قولُ الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، لكن ما هي الكبائر وما هي الصغائر؟ للعلماء في هذا أقوالٌ، منها:

(١) أن الكبيرةَ ما تحقق فيها وصفٌ من الأوصاف التالية:

أ ـ ما جاء النصُّ علىٰ أنه كبيرة، كعقوق الوالدين، فقد قال رسولُ الله ﷺ: «الكبائرُ: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفس، واليمينُ الغَمُوس»، رواه البخاري. وهناك أحاديثُ أخرىٰ نَصَّت علىٰ غير هذه الذنوب وعَدَّتْها من الكبائر.

ب ـ ما جعلَ الله عليه حدّاً، كالسرقة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

جـ ـ ما توعَّدَ اللهُ تعالىٰ عليه بعذابٍ في الآخرة، كأكل مال اليتيم بغير حق، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

د ـ ما لُعِنَ فاعلُه كالرِّبا، قال رسولُ الله ﷺ: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبا ومُوكِلَهُ وشاهِدَهُ وكاتِبَه»، متفقٌ عليه.

هـ ـ ما توعَّدَ اللهُ صاحبَه بالغَضَب، كالفرار من وجه العدو في المعركة مع الكفّار، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

و ـ ما وُصِفَ فاعلُه بالفسق نصّاً؛ أي: في القرآن أو السنة، مثل قَذْفِ المحصنات، والحكمِ بغير ما أنزل الله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ

ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

(٢) أن الكبائرَ كلُّ ما وردَ الشرعُ بتحريمه، وعلىٰ هذا الأساس صنف ابنُ حجر الهيتمي كتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر»، وهو كتابٌ قيِّمٌ مرتَّبٌ علىٰ أبواب الفقه.

(٣) أن الكبائرَ أمرٌ نسبيٌّ، فقطعُ يدِ إنسانٍ ظلماً كبيرةٌ بالنسبة إلىٰ ضربه علىٰ وجهه، وصغيرةٌ بالنسبة إلىٰ قتله بغير حق، وهذا ما ذكره الإمامُ الغزاليُّ في «الإحياء» في باب التوبة من الجزء الرابع.

(٤) أن كلَّ ذنبٍ كبيرةٌ إذا نظرنا إلىٰ أنه معصيةٌ لله جل جلاله، وهذا مذهبُ السادة الصوفية، ولذا قالوا: «لا تنظر إلىٰ صِغَرِ المعصية وانظر إلىٰ من عَصَيت»، وإيضاحُ هذا: أنّ من رمىٰ حَجَراً فأصابَ إنساناً فالأمرُ هَيِّنٌ إن كان المصابُ من عامة الناس، وهو أمرٌ خطيرٌ إن أصابَ ذا جاهٍ أو سلطان، مع أن الفعلَ واحدٌ، ويشهدُ لهذا القولِ الحديثُ الذي رواه البخاري: «إنّ العبدَ ليتكلَّم بالكلمة من رضوانِ الله لا يُلقِي لها بالاً يرفعُهُ الله بها دَرَجاتٍ، وإنّ العبدَ ليتكلَّم بالكلمةِ مِن سَخَطِ الله لا يُلقِي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم». وبمثل هذا القول قال الخوارج، لكنهم غَلُوا فبنوا عليه كفرَ صاحبِ الكبيرة.

(٥) وقال بعضُ العلماء: الكبيرةُ كل معصيةٍ تُشعِر بقلةِ اكتراثِ مرتكبِها بالدِّين وتدل علىٰ رِقّة الديانة.

وهذه الأقوال كلُّها صحيحةٌ إذا لاحظنا وجهةَ نظر أصحابها، وكلُّها ترجعُ إلىٰ المعنىٰ الخامس، والمؤمنُ بلقاء الله يجبُ أن يحتاطَ لنفسه من كل

الذنوب، فإن زلَّتْ قدمه تاب واستغفر، وعلىٰ هذا لا يمكن الجزمُ بأن هذا الذنبَ من الصغائر، وما رُوي عن بعض الصحابة في تفسير اللَّمَمِ لعله يريد أن هذه الذنوبَ صغيرةٌ بالنسبة لما هو أكبر من جنسها، ولا يعني ذلك الاستهانةَ بها ولا الجرأةَ عليها.

لكن القولَ الأولَ هو الذي اعتمده الفقهاءُ والمحدِّثون، فقد اشترطَ الفقهاءُ العدالةَ في الشهادة وغيرِها، واشترطَ المحدِّثون العدالةَ في قبول الرواية، ومن شروطِ العدالةِ عدمُ ارتكابِ الكبائر، والقولُ الأولُ جعلَ للكبائر ضوابطَ كيلا تدخُلَ فيها كل الذنوب فلا تُقبل شهادةُ أحدٍ ولا روايته، لأن العصمةَ للأنبياء، وكيلا يكونَ مقياسُ العدالة مضطرباً باختلافِ الأمزجةِ والأغراض.

ومهما يكن تعريفُ الكبيرة فإن من المتفقِ عليه أن اجتنابَ الكبائر يكفِّر الصغائر، وكذلك فعلُ الطاعات والقُرُبات كالوضوء والصلاة والصوم والحج والجهاد، ودليلُ هذا قولُ الله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقولُ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقولُ الرسول ﷺ: «مَن توضأ نحوَ وضوئي هذا ثم صلىٰ ركعتَين لا يُحدِّثُ فيهما نفسَه غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه»، رواه البخاري (١٥٨)، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلىٰ الجمعةِ ورمضان إلىٰ رمضان مكفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَت الكبائر»، رواه مسلمٌ. وقد استدلَّ العلماءُ بقوله: «إذا اجتُنِبَت الكبائر» علىٰ أن الأعمالَ الصالحةَ تكفِّرُ الصغائر، أما الكبائرُ فلا بدَّ لها من التوبة.

وتكفيرُ الذنوب معلَّقٌ بمشيئةِ الله تعالىٰ، قال عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦].

وقد جعلَ اللهُ اجتنابَ الكبائر وعملَ الصالحاتِ والتوبةَ أسباباً للمغفرة، وهو عز وجل يفعل ما يشاء ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

ثم إن الذي يُكَفَّر بالتوبة وعملِ الصالحات هو حقوقُ الله تعالىٰ، أما حقوقُ العباد فلا بدَّ من أدائها أو مسامحةِ أصحابها وإلا اقتَصُّوا من حسناتِ مَن لهم عليه حقٌّ يومَ القيامة، فإن لم يكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتهم فطُرِحَت عليه.

والتوبةُ واجبةٌ علىٰ كل مسلمٍ كما سيأتي.

وجوبُ الإيمان باليومِ الآخِرِ:

١٠٣ـ واليومُ الاخِرْ ثُمَّ هَوْلُ المَوْقِفِ ... حَقٌّ فَخَفِّفْ يا رَحِيمُ واْسْعِفِ

الإيمانُ باليوم الآخر ركنٌ من أركان الإيمان دلَّ عليه القرآنُ الكريم والسنةُ النبوية، ولذا فإنّ الإيمانَ به واجبٌ، والمرادُ باليومِ الآخر يومُ القيامة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، واليومُ الذي يُنفَخ فيه في الصُّور النفخةُ الأولىٰ هو من أيام الدنيا، إذ يكونُ الناسُ في أعمالهم العادية يبيعون ويشترون ويأكلون ويشربون، والرعاةُ يَسقُون مواشِيهم وأنعامَهم كما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة، وبهذه النفخةِ تنتهي أيامُ الدنيا ويبدأ اليومُ الآخر، أما النفخةُ الثانيةُ فهيَ في اليوم الآخر، وبها يقومُ الناسُ من قبورهم، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦]، ويمتد ذلك اليومُ إلىٰ ما لا نهاية، أو إلىٰ أن يدخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ، وما بعدَ ذلك له اسمٌ آخَر، فاليومُ الذي بعدَ أيامِ الدنيا يُسمّىٰ اليومَ الآخِر، لأنه آخِرُ أيام

الدنيا؛ أي: الذي تنتهي عندَه أيامُ الدنيا التي تُحسَبُ بطلوع الشمس وغروبها، إذ لا شمسَ ولا قمرَ في اليوم الآخِر، قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١-٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، فهو ليس من أيام الدنيا بل أولُ أزمانِ الآخرة، وقد ذكرَ الله تعالىٰ هذا اليومَ كثيراً في القرآن ووصفَ ما فيه من شدةٍ وأهوال، منها قولُ الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، وقولُه تعالىٰ في سورة المزَّمِّل: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، ولولا أنّ الله تعالىٰ يُلقِي السكينةَ علىٰ قلبِ المؤمنِ لانصدَعَ قلبهُ قبلَ أن يرىٰ ذلك اليوم، لأن وعدَ الله حقٌّ، والمؤمنُ يُؤمن به كما يؤمن بما يراه، وليس لنا إلا التضرُّعُ إلىٰ الله عز وجل ليجعلنا آمنين في ذلك اليوم وفي كل يوم، فقد وعدَ اللهُ المؤمنين بالأمنِ في يوم القيامة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقد وصفَ النبيُّ ﷺ ذلك اليومَ في أحاديثَ كثيرة، ولأجل هذه الآياتِ والأحاديثِ لا يسكُنُ قلبُ المؤمن ولا يهدأ رَوعُهُ حتىٰ يدخلَ الجنةَ بفضلِ الله وعفوِه وكرمِه.

وقد وردَ أنّ هذا اليومَ يشدَّدُ علىٰ الكافرين فيرونه طويلاً كأنه خمسون ألفَ سنة، ويكونُ متوسِّطاً علىٰ فَسَقةِ المؤمنين، ويخفَّفُ علىٰ الصالحين حتىٰ يكونَ كصلاةِ ركعتين. وقد ألّفَ بعضُ العلماء كتباً في ذكر الآخرة

وما يتعلَّق بها، مثل كتاب «التذكرة» للإمام القرطبي، و«مختَصَرِه» للإمام الشعراني.

هذا وقد سمّىٰ الله تعالىٰ اليومَ الآخِرَ بعدّة أسماء بحسب ما يحدث فيه، فهو يومُ القيامة، لأن الناسَ يقومون فيه من قبورهم؛ ويومُ البعث، لأنهم يُبعثون بعد الموت؛ ويومُ الحَشْر، لأنهم يُجمَعون في مكانٍ واحد؛ ويومُ الدِّين، لأن الناس يحاسَبون علىٰ أعمالهم ويُجزَون بها. وهناك أسماء أخرىٰ يُراجَعُ فيها كتاب «العقائد الإسلامية» للشيخ عبد الرحمٰن حَبَنَّكة (٢: ٣٢٦).

وكما يجبُ الإيمانُ بيوم القيامة يجبُ الإيمانُ بعلاماتِ اقترابها التي ذُكرت في الكتابِ والسنة، فقد ذكرَ القرآنُ الكريمُ من علاماتها: خروجَ يأجُوج ومأجُوج، وخروجَ الدابة، والله أعلمُ بحالها، وذكرَ النبيُّ ﷺ علاماتٍ أخرىٰ، كظهور المهدِيّ، وخروجِ الدَّجال، ونزولِ عيسىٰ ابن مريم، وغيرُ هذا كثيرٌ اعتنىٰ العلماءُ بجمعها والتعليقِ عليها وشرحِها، كما ذكرها علماءُ الحديث في كتبهم في باب الفِتَنِ وعلامات الساعة.

وعلاماتُ الساعة نوعان: صُغرىٰ، وهي التي تكون بعيدةً عن قيام الساعة نسبياً، مثل: أن ترىٰ الحفاةَ العراةَ العالةَ رِعاءَ الشاءِ يتطاولون في البنيان، وكثرة الجهلِ بالدين، وكثرة القتل.

والنوع الثاني: العلاماتُ الكبرىٰ، وهي التي تكون بين يدي الساعة؛ أي: قريبةً منها جداً، والذي تدل عليه الأحاديثُ الشريفةُ أن أولَ العلامات الكبرىٰ ظهورُ المهدي، ثم الدجّال، ثم نزولُ عيسىٰ ابن مريم، ثم خروجُ يأجُوج ومأجُوج، وخروجُ الدابة، وطلوعُ الشمس من مغربها، أما وقتُ قيام الساعة فلا يعلمه الا الله، قال تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾

[الأعراف: ١٨٧]، وهذه الآيةُ تدل علىٰ كذبِ كل التخرُّصاتِ حولَ وقت قيام الساعة مهما كان مصدرُها.

أخذُ الصُّحُفِ يومَ القيامة بالأيمان والشمائل:

١٠٤ـ وواجبٌ أخذُ العِبادِ الصُّحُفا كمـا مِـنَ القُـرآنِ نَصّـاً عُـرِفـا

من مشاهد يوم القيامة التي أخبر الله تعالىٰ عنها في القرآن الكريم إعطاءُ المكلَّفين كتباً تتضمن أعمالَهم التي عملوها في الدنيا والتي كتبها الملائكة الموكَّلون بهم في الدنيا، فأما المؤمنُ فيُؤتىٰ كتابَه مِن أمامه بيمينه، وأما الكافرُ فيُعطىٰ كتابَه من ورائه بشماله، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٦]، وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق ٧-١٤]، أي: كان يعتقدُ أنه لن يُبعث بعدَ الموت ولن يرجعَ إلىٰ ربه، ولذا كان مسروراً بما أُوتي في الدنيا من أهلٍ ومال، ولم يكن يخافُ من لقاء الله، بينما المؤمنُ بلقاءِ الله يخافُ من ذلك اليوم فيعملُ الصالحاتِ ويجتنبُ المنكرات، قال الله تعالىٰ عن المؤمنين: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦-٢٨]، ومعنىٰ مشفقين: أي خائفين.

ويجبُ الإيمانُ بأخذ العِبادِ للصُّحف علىٰ النحو الذي ذكره الله تعالىٰ، ولا داعيَ للدخول في تفصيل كيفيةِ الصُّحُف من غير دليل، وقد علَّمَ اللهُ

الناسَ اليومَ أن يُخزِّنوا المعلوماتِ في أقراصِ الكمبيوتر، وهي خفيفةٌ صغيرةٌ تحتوي علىٰ ملايين الكلمات التي تساوي عشراتِ المجلدات، عدا عن أشرطة تسجيل الصوتِ والصورة، والله أعلمُ بكيفية الصحف التي ستُعطىٰ للمكلَّفين يومَ القيامة، والمؤمنُ يهتم بما في الصحف لا بشكلها وكيفيتها، قال تعالىٰ: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

الإيمان بالميزان:

١٠٥ـ ومثلُ هذا الوَزْنُ والمِيزانُ فتُـــوزَنُ الكُتْـــبِ أوِ الأعيـــانُ

ومن مشاهدِ يوم القيامةِ التي أخبر عنها الكتابُ والسنةُ: وزنُ الأعمال يومَ القيامة بميزان، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦-١١]، وقال عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

وقال رسولُ الله ﷺ: «كلمتانِ خفيفتانِ علىٰ اللسان، ثقيلتانِ في الميزان، حبيبتانِ إلىٰ الرحمٰن: سبحانَ الله وبحمدِه، سبحانَ اللهِ العظيم»، متفقٌ عليه.

لهذا يجبُ الإيمانُ بوزن الأعمالِ الصالحةِ والسيئة، ويجبُ الإيمانُ بوجود ميزانٍ يومَ القيامة تُوزَن به الأعمال، لكن كيف يكون الوزن؟ قيل: تُوضَعُ صُحُفُ الأعمالِ الصالحةِ في كِفّة، وتُوضَعُ صُحُفُ الأعمال السيئة في

الكِفّةِ الأخرىٰ، فأيهما رَجَحَتْ فهيَ الغالبة، وقيل: تُجسَّمُ بصُوَرٍ حِسّية، ثم تُوضَع صورُ الحسناتِ في كِفّة، وصُورُ السيئاتِ في الكِفّة الأخرىٰ.

وتفويضُ هذا إلىٰ الله تعالىٰ أحسن، فنُؤمِنُ بالوزن والميزان، ونفوِّضُ أمرهما إلىٰ الله تعالىٰ، فإنّ الوزنَ لغةً: معرفةُ كميةٍ بمقارنتها بكميةٍ أخرىٰ معروفة، بطريقةٍ خاصة، كمعرفة الأوزان والمقادير والمسافات، وقد عَلَّمَ اللهُ تعالىٰ الناسَ طرقاً يقيسون بها الحرارةَ والبرودةَ والسرعةَ والضغطَ وشدةَ الضوء والتيارَ الكهربائي، وكل هذه أساليبٌ جديدةٌ في الوزن لم تكن معروفةً، فلنفوِّض إلىٰ الله تعالىٰ كيفيةَ الموازنة بين الحسنات والسيئات، وندعو الله تعالىٰ أن يُثقِّلَ موازيننا ويُكثِّرَ فيها الأعمالَ الصالحة.

وبهذا الوزنِ تُقامُ الحجّةُ علىٰ العِباد، ويُعرف السعيدُ من الشقيّ.

الإيمان بالصراط:

١٠٦ـ كذا الصِّراطُ فالعِبادُ مُخْتَلِفْ مُـــرُورُهُــم فســالــمٌ ومُتْلِــفْ

الصِّراطُ في اللغة: الطريقُ الواضح، ومثله السِّراط والزِّراط، لأن السائرَ فيه يُشبه اللقمةَ التي تمر في المَرِيء، فكما أنّ المريءَ يَزْرُطُ اللقمةَ فكذلك الطريق يَزْرُطُ؛ أي: يبتلع المارَّ فيه.

والمرادُ بالصراط في مشاهد الآخرة الجسرُ الممدودُ علىٰ مَتْنِ جهنم، يمرُّ عليه الأولون والآخرون من المكلَّفين ليصِلُوا إلىٰ الجنة، فمن اجتازَهُ دخلَ الجنة، ومن وقعَ عنه وقعَ في النار، لأن جهنمَ بينَ مكانِ الحشر والجنة، وقد وردَ وصفُهُ في الحديثِ النبوي الشريف بأنه أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف، ومذهبُ أهل السنةِ الإيمانُ بظاهر ما ورد في الكتاب والسنة مع تفويضِ علمِ حقيقته إلىٰ الله تعالىٰ.

وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلىٰ الصراط في قول الله تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١-٧٢]، والمرادُ بالورود، والله أعلم، المرورُ علىٰ جسرِ جهنمَ وليسَ الدخولَ فيها، كقوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص: ٢٣]، أي: مرَّ به؛ لأن الأنبياء والصالحين لا تمسُّهم النار، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢]، وقد ثبتَ ذكرُ الصراط في الحديث الصحيح الطويل الذي رواه البخاري، وفيه: «. . يُضرَبُ جسرُ جهنمَ فأكونُ أولَ من يُجيز، ودعوىٰ الرُّسُل يومَئذٍ: اللهم سَلِّم سَلِّم. وله كلاليبُ مثلُ شَوكِ السَّعْدان، هل رأيتم شوكَ السعدان؟ غيرَ أنه لا يعلم قَدْرَ عِظَمِها إلا الله عز وجل. قال: فتخطفُ الناسَ بأعمالهم، فمنهم مُوبَقٌ بعمله، ومنهم المُخَرْدَلُ ثم ينجو. . » الحديث.

رواه البخاريُّ في الرقائق (باب الصراط جسر جهنم)، وفي التوحيد باب قول الله تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ورواه مسلمٌ في الإيمان (٢٩٩) باب معرفة طريقة الرؤية. وانظر: «الاعتقاد» للبيهقي ص٢٠٠ وص١٩٧.

ويجتاز المؤمنونُ الصراطَ بسرعاتٍ متفاوتةٍ كلٌّ حسبَ عملِه وحسبَ سرعتِه في الاستجابة لأوامرِ الله وسرعته في الامتناعِ عن المعاصي، قال رسولُ الله ﷺ: «. . ثم يُضرَبُ الجسرُ علىٰ جهنم، قلنا: وما الجسرُ يا رسولَ الله بأبينا أنت وأمّنا. قال: دَحْضٌ مَزَلّةٌ، له كَلاليبُ وخَطاطِيفُ وحَسَكٌ يكون بنَجْدٍ فيها شُوَيكةٌ يُقال لها السَّعْدان، فيمُرُّ المؤمنُ كلَمْحِ البَرْق، وكالطَّير، وكالطَّرْف، وكأجاويدِ الخيل، وكالراكب، فمُرسَلٌ، ومخدوشٌ، ومَكْدُوسٌ. . . » الحديث، رواه مسلمٌ في كتاب الإيمان (٣٠٢)، انظر «الاعتقاد» ص ١٩٧.

وأما الكفارُ فيسقطون عن الصِّراط في جهنم، نسألُ اللهَ السلامة، وكذلك عصاةُ المؤمنيـن الذيـن لم تدركهم الشفاعة، لكنّ الكفارَ مخلَّدون في النار وعصاةُ المؤمنين يعذَّبون ما شاء الله ثم يخرجون إلىٰ الجنةِ بفضل الله.

وجوبُ الإيمانِ بالعرش والكرسيّ والقلمِ واللوحِ المحفوظ والكاتِبين:

١٠٧ـ والعَرْشُ والكُرْسِيُّ ثُمَّ القَلَمُ والكـاتِبُـونَ، اللـوحُ، كـلٌّ حِكَـمُ

١٠٨ـ لا لاحتِيـاجٍ، وبهـا الإيمـانُ يَجِـبُ عليـكَ أيُّهـا الإنسـانُ

من الأمور الغيبيةِ التي أخبرنا عنها القرآنُ والسنةُ ولذا يجبُ الإيمان بها: العرش، والكرسي، والقلم، واللوح المحفوظ، والملائكة الكاتبون لأعمال العِباد، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٣٠]، وورَدَ ذكرُ العرشِ في القرآنِ الكريمِ مراتٍ عديدة، وقال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، وورَدَ أن المرادَ بالقلمِ القلمُ الذي كُتِب به في اللوح المحفوظ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]، فالعرشُ والكرسيُّ واللوحُ المحفوظُ والقلمُ والملائكةُ الكاتبون أمورٌ غيبيةٌ يجبُ الإيمانُ بها مع تفويض حقيقتها وكيفيتها إلىٰ الله تعالىٰ، لأنه عز وجل لم يخبرنا إلا بأسمائها، ولم يَرِدْنا عن النبيِّ ﷺ تفصيلُ أحوالها، وكذا كل

ما ورد ذكرُه في الكتاب أو السنة الصحيحة كسِدْرةِ المنتهىٰ، والحُجُبِ والأنوار، نعتقدُ بوجودِها ونفوِّضُ علمَها إلىٰ الله تعالىٰ، ولا نتجاوزُ حدودَ الكتابِ والسنة، فما فصَّلَه الكتابُ والسنةُ نعتقدُ به مفصَّلًا، وما لم يفصِّلْهُ نعتقدُ به مُجمَلًا، فقد أكثر بعضُ المؤلفين من النقل عن كتب بني إسرائيلَ في هذه المواضيع مما يخالفُ المعقول، وقد نبَّهَنا اللهُ تعالىٰ إلىٰ أنّ بني إسرائيلَ يفتَرُون علىٰ الله الكذبَ، وموضوعُ العقيدةِ موضوعٌ خطيرٌ لا يُذكر فيه إلا ما صحَّت نسبتُه إلىٰ النبيِّ ﷺ.

ثم إنّ العرشَ في لغةِ العرب: سريرُ المَلِك؛ أي: المقعدُ الفَخْمُ الذي يجلسُ عليه، والكرسي: يُطلَق علىٰ ما يضع المَلِكُ عليه رجلَيه وهو جالسٌ علىٰ العرش، واللَّوح: ما يُكتَبُ به لحفظِ الشيء من النسيان، والقلمُ: ما يُتوصَّلُ به إلىٰ الكتابة، والكاتبون: هم الذين يساعدون المَلِكَ وغيرَهُ علىٰ حفظِ المعلوماتِ وإبلاغ الأوامر.

وهنا يجبُ الانتباهُ إلىٰ شيئين:

الأول: يجبُ الاعتقادُ بأنّ العرشَ والكرسيَّ واللوحَ والقلمَ والكاتِبين ليسـوا كعُرُوش المُلوكِ وكراسِيِّهم وألواحِهم وأقلامهم وكتّابهم، وإن كان هناك اشتراكٌ بين الأُولىٰ والثانية في معنىً ما ليصِحَّ إطلاقُ نفس الاسمِ عليها.

الثاني: يجبُ الاعتقادُ بأنّ الله تبارك وتعالىٰ ليس بحاجةٍ إلىٰ العرش أو الكرسي أو اللوح أو القلم أو الكاتبين كحاجة الملوكِ وغيرهم إلىٰ هذه الاشياء، فإنّ الله تعالىٰ: ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهو عز وجل قديمٌ وهذه المخلوقاتُ حادثةٌ، والقديمُ لا يحتاج إلىٰ الحادث.

ومع هذا يجبُ أن نعتقدَ أنها خُلِقَت لحكمةٍ يعلمُها الله تعالىٰ، لأن الحكيمَ لا يخلُقُ شيئاً عَبثاً، والحكمةُ وضعُ الشيءِ في موضِعِه.

وجوبُ الإيمانِ بالجنة والنار:

١٠٩ـ والنارُ حَقٌّ أُوجِدَتْ كالجَنَّةْ   فـلا تَمِـلْ لجـاحِـدٍ ذِي جِنَّـةْ

١١٠ـ دارا خُلُـودٍ للسَّعِيدِ والشَّقِيْ   مُعَـذَّبٍ مُنَعَّـمٍ مَهْمَـا بَقِـيْ

كل مسلمٍ يعتقدُ أنّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ سيُدخِلُ المؤمنين الجنة، ويُدخِلُ الكافرين النار، وقد بيَّن الله تعالىٰ هذه الحقيقةَ في القرآن الكريم في عدةِ مواضعَ حتىٰ صار الإيمانُ بها مستقراً لدىٰ جميع المسلمين، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: في الجنة، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦-١١].

لكنْ: هل الجنةُ والنارُ موجودتان الآنَ وقبلَ الآن؟ أم ستُوجَدان يومَ القيامة؟ إنّ أهلَ السنة والجماعة يعتقدون بأنهما موجودتان الآنَ وقبلَ أن يُخلَقَ آدمُ وحَوّاء، والدليلُ علىٰ هذا قصةُ آدم وحواء التي ذكرها الله تعالىٰ في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥]، ولفظُ الجنة إذا أُطلِقَ يُرادُ به دارُ النعيمِ الأبَدِي التي وعدَ اللهُ بها المؤمنين.

ويدلُّ علىٰ وجودِ الجنة والنار أحاديثُ عديدةٌ صحيحة، منها قولُه ﷺ: «وأَيْمُ الذي نفسُ محمدٍ بيده لو رأيتم ما رأيتُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قالوا: يا رسولَ الله ما رأيتَ؟ قال: «رأيتُ الجنةَ والنار». انظر «الاعتقاد» للبيهقي ص٢١٢. وقولُه ﷺ: «إنّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعدُهُ بالغَداة والعَشِيّ، إن كان من أهلِ الجنة فمِن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار

فمِن أهل النار، يُقال: هذا مقعَدُكَ حتىٰ يَبعثَكَ اللهُ عز وجل إليه يومَ القيامة»، رواه البخاري ومسلمٌ وغيرهما. وقولُهُ عليه الصلاة والسلام: «اطَّلعتُ في الجنة فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقراء، واطَّلعتُ في النارِ فرأيتُ أكثرَ أهلِها النساء»، رواه البخاري ومسلمٌ، وكذلك ما جاء في حديث الإسراء والمعراج من أنَّ الرسولَ ﷺ رأىٰ الجنةَ والنارَ ليلةَ الإسراء والمعراج.

وهذه النصوصُ واضحةُ الدلالة علىٰ وجود الجنة والنار قبلَ يوم القيامة، فلا داعي لصرفها عن ظاهرها، ومن جحدَ هذه الحقائقَ فإنما يجري وراءَ تصوُّراتٍ كتصورات المجانين إذ يجحَدُ ما لم يطّلع عليه مخالفاً قولَ علاَّمِ الغيوب ونبيِّه المعصومِ الذي رأىٰ من آياتِ ربِّه الكبرىٰ.

والجنةُ دارُ الخلود للسعداء، والسعيدُ من مات علىٰ الإيمان كما سبق، ويُلحَقُ بهم الذين لم تبلغهم الدعوةُ كأهل الفترة، وكذا من مات من أطفال المسلمين وأطفال الكفار أيضاً، فمن دخل الجنةَ لا يخرج منها سواءٌ عُذِّبَ قبلَ ذلك في النار أم لا، قال الله تعالىٰ عن أهل الجنة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وقد سمّىٰ الله تعالىٰ الجنةَ بعدّة أسماء في القرآن الكريم، منها: دار السلام، وجنات الفِردَوس، وجنات النعيم، وجنة الخلد، وجنة المأوىٰ، وجنات عَدْن، وكلها أسماء لمسمىً واحد، وهذه الأسماءُ تدل علىٰ صفاتٍ للجنة وعلىٰ درجاتٍ فيها.

وأما النار ـ أعاذنا الله منها ـ فهي دارُ الخلود للأشقياء، والشقي هو من مات علىٰ الكفر، وأبوابُ الكفر كثيرةٌ، نسألُ اللهَ أن يثبتَ قلوبنا علىٰ الإيمان، فإنّ من أنكر شيئاً مما اشتهر بين المسلمين من أحكام الإسلام فقد كفر، كما

سيأتي بيانُه إن شاء الله، والذين يدخلون النار طائفتان: كفار يخلَّدون فيها، ومؤمنون عصاةٌ يعذَّبون علىٰ قدر ذنوبهم ثم يخرجون منها إلىٰ الجنة بفضل الله ورحمته، كما سيأتي في حديث الشفاعة إن شاء الله، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٨].
وقد سمىٰ الله تعالىٰ النارَ بأسماء متعددة، منها: جهنم، ولظىٰ، والحُطَمة، والسعير، وسَقَر، والجحيم، والهاوية، نعوذُ بالله منها كلّها.

وجوبُ الإيمان بحوض المصطفىٰ ﷺ:

١١١ـ إيمانُنا بحَوْضِ خَيرِ الرُّسْلِ ... حَتْمٌ كما قد جاءنا في النَّقْلِ
١١٢ـ ينالُ شُرْباً منه أقوامٌ وَفَوا ... بعَهْدِهم، وقُلْ يُذادُ مَنْ طَغَوا

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، وفسَّرَ رسولُ الله ﷺ الكوثرَ بأنه حوضٌ فيه شرابٌ طيِّبُ اللون والطعم والرائحة، يَصُبُّ فيه نهرٌ لا ينضب، قال ﷺ: «لما عُرِجَ بي إلىٰ السماء أتيتُ علىٰ نهرٍ حافتاه قبابُ اللؤلؤ المجوَّف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا الكوثرُ الذي أعطاكَ ربك. فأهوىٰ المَلَكُ بيده فاستخرجَ من طينه مِسْكاً أذفرَ»، رواه البخاري، وقال ﷺ: «حوضي مسيرةُ شهر، وزواياهُ سواء، ماؤه أبيضُ من اللبن، وريحُه أطيبُ من المسك، وكِيزانُهُ أكثرُ من نجوم السماء، مَن شَرِبَ منه فلا يَظمأ أبداً»، متفقٌ عليه.

فالكوثرُ نهرٌ يصب في حوضٍ يشرب منه المؤمنون من هذه الأمة الذين وَفَوا بما عاهدوا عليه ربهم من الالتزام بشرائع الإسلام، فإنّ الإسلامَ في

حقيقته عهدٌ بين المسلم وربه أن يلتزمَ بكل الشرائع التي جاء بها رسولُ اللهِ محمدٌ ﷺ، قال الله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

هذا ما تدل عليه النصوصُ السابقةُ وغيرُها، فمن أعرضَ عن النصوص وأنكرَ الكوثرَ والحوضَ فقد اتبع هواه، وأعرضَ عن الخبر الصحيح، وحكَّمَ عقلَه في الأمور الغيبية، وقد دلَّ الحديثُ السابقُ علىٰ أن مَن شَرِبَ من الكوثر لا يظمأ بعدَ ذلك أبداً، وثبتَ في حديثٍ آخرَ أنّ بعضَ الناس يأتون الحوضَ ليشربوا منه فتطرُدُهم الملائكة، قال رسولُ الله ﷺ: «لَيَرِدَنَّ عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوضَ حتىٰ إذا رأيتُهم وعرفتُهم اختَلَجُوا دوني فأقول: يا ربِّ أصحابي أصحابي، فيُقال لي: إنكَ لا تدري ما أحدَثُوا بعدَك»، متفقٌ عليه، والمرادُ بالأصحاب هنا بعضُ المنتسبين للإسلام من الذين ابتدعوا وخالفوا الكتابَ والسنةَ ووقعوا في المعاصي، فإن أتباعَ كل نبي أو مجتهدٍ أو عالمٍ يسمَّون أصحابَهُ وإن لم يُدركوه، ومعرفةُ النبيِّ ﷺ لهم لأنهم، والله أعلم، يأتون غُرّاً محجَّلين من آثارِ الوضوء.

فقد بيّنَ رسولُ الله ﷺ في حديثٍ آخرَ أنه يعرف أمته يومَ القيامة بآثارِ الوضوء، إذ يأتي المسلمونَ يومَ القيامة غُرّاً محجَّلين من آثار الوضوء؛ أي بيضَ الوجوه والأيدي والأرجل. وصاحبُ البدعة قد تكون بدعتُه غيرَ مكفِّرةٍ فيُطرَد عن الحوض عقوبةً له، ثم يحاسَبُ علىٰ ذنبه، وسيأتي أنّ صاحبَ الكبيرة لا يكفُر.

أو أنّ الذين يُطرَدون هم الأعرابُ الذين أسلموا زمنَ النبيِّ ﷺ ثم ارتدوا زمنَ أبي بكرٍ وقُتِلَ بعضُهم كافراً، ندعو الله أن يهدِيَنا ويثبِّتَنا حتىٰ نَرِدَ الحوضَ ونشربَ منه مع الفائزين.

الشفاعةُ يومَ القيامة:

١١٣ـ وواجِبٌ شفاعةُ المُشَفَّعِ محمَّدٍ مقدَّماً لا تَمْنَعِ
١١٤ـ وغيرُهُ من مُرتَضَىٰ الأخيارِ يَشْفَعْ كما قد جاءَ في الأخبارِ
١١٥ـ إذ جائزٌ غُفرانُ غيرِ الكُفْرِ فلا نُكفِّرْ مُؤمِناً بالوِزْرِ

الشفاعةُ لغةً: الوسيلةُ والطَّلَب، وعُرْفاً: سؤالُ الخيرِ للغير، والمرادُ بالشفاعةِ هنا أنّ رسولَ الله ﷺ يطلبُ من الله تعالىٰ يومَ القيامة خيراً لبعض الناس، فيعطيه الله تعالىٰ ما طلبَ ويشفِّعُهُ فيمَن شفعَ له، وهذا ثابتٌ بالأحاديثِ الصحيحة، ولذا يجبُ اعتقاده.

وأصلُ الشفاعةِ ثابتٌ في القرآنِ الكريم، من ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وأما شفاعةُ النبيِّ ﷺ فقد دلَّ عليها القرآنُ الكريم، وفَصَّلتها الأحاديثُ الصحيحةُ الكثيرة، قال الله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحىٰ: ٥]، وقال رسولُ الله ﷺ: «إنا أولُ شَفِيعٍ يومَ القيامة، وأنا أكثرُ الأنبياء تَبَعاً يومَ القيامة، إنّ مِنَ الأنبياءِ لَمَن يأتي يومَ القيامةِ ما معه مصدِّقٌ غيرُ واحد»، رواه مسلمٌ، وقال ﷺ: «أنا قائدُ المرسَلين ولا فَخْرَ، وأنا خاتَمُ النبيين ولا فَخْرَ، وأنا أولُ شافعٍ ومُشَفَّعٍ ولا فخرَ»، انظر «الاعتقاد» للبيهقي ص١٩٢.

وهذه الأحاديثُ وغيرُها تدل علىٰ ثبوتِ شفاعةِ النبيِّ محمدٍ ﷺ، وعلىٰ أنه أولُ مَن يشفعُ يومَ القيامة، وأن الله تعالىٰ يقبلُ شفاعته فيمَن يشفعُ فيه.

وقد عدَّ العلماءُ ثمانيةَ أنواعٍ من شفاعةِ النبي ﷺ دلَّت عليها الأحاديثُ النبويةِ الشريفة:

الأولىٰ: الشفاعةُ العظمىٰ، وهي شفاعته بكل الخلائق لإراحتهم من طُولِ الوقوفِ يومَ القيامة ليبدأ حسابهم.

الثانية: شفاعتُهُ ﷺ في إدخالِ قومٍ الجنةَ بغيرِ حساب.

الثالثة: شفاعتُهُ ﷺ في بعض من استَحَقَّ دخولَ النار بذنوبه أن لا يَدخُلها.

الرابعة: شفاعتُهُ ﷺ في إخراج الموحِّدِين من النار.

الخامسة: شفاعتُهُ عليه السلام في زيادةِ درجاتٍ في الجنة لبعضِ أهلها.

السادسة: شفاعتُهُ في جماعةٍ من صُلَحاء أمته ليتجاوَزَ الله تعالىٰ عنهم في تقصِيرهم في الطاعات.

السابعة: شفاعتُهُ في بعضِ من خُلِّدَ في النار من الكفّار أن يخفَّفَ عنهم العذابُ في أوقاتٍ مخصوصة، كأبي طالبٍ وأبي لَهَب.

الثامنة: شفاعتُهُ في أطفالِ المشركين أن لا يعذَّبوا.

وكما يُشفَّعُ نبينا محمدٌ ﷺ يُشفَّعُ غيرُه من المقرَّبين الذين ارتضاهم الله عز وجل، كالأنبياء، والمرسَلين، والملائكة، والصَّحابة، والشُّهداء، والأولياء، والعلماءِ العاملين، كلٌّ علىٰ قدرِ مقامِه عندَ الله تعالىٰ، قال عز وجل عن الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فهم يشفعون لمن رَضِيَهُ اللهُ تعالىٰ.

وأعظمُ الشفاعاتِ شفاعةُ الله تبارك وتعالىٰ، أي عفوُهُ عزَّ وجل، فإنّ رسولَ الله ﷺ قد بيّنَ أنّ الله عز وجل يقولُ بعدَ أن يشفعَ الشفعاء: «هل بَقِيَ

إلا أرحمُ الراحمين. فيأخذُ قبضةً من النارِ فيُخرِجُ قوماً قد عادوا حُمَمَةً لم يعملوا لله عملَ خيرٍ قط، فيُطرَحُون في نهرٍ في الجنة يُقال له نهرُ الحياة، فينبُتُونَ فيه كما تنبُتُ الحبّةُ في حَمِيلِ السَّيل»، أخرجه مسلمٌ، وهذا جزءٌ من حديثٍ طويلٍ أخرجه البخاري أيضاً، والحُمَمَةُ كالفَحْمة.

وقد حملَ العلماءُ هذا الحديثَ علىٰ قومٍ قالوا (لا إلٰه إلا الله محمدٌ رسول الله) أو آمنوا بالله والرسولِ الذي أُرسل إليهم قبلَ مبعثِ محمدٍ ﷺ ثم لم يعملوا خيراً، ومثلُهم المسلمُ الذي يُحكَمُ بإسلامه تَبَعاً لأبويه أو أحدِهما ولم يعتنق عقيدةً مكفِّرةً ولم يفعل خيراً، لأن الشفاعاتِ مهما اتسعت لا تشملُ الكافرين، قال الله تعالىٰ عن الكفار: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقال تعالىٰ عنهم: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، ولا بد من حملِ الحديثِ علىٰ وجهٍ لا يُعارِضُ صريحَ القرآنِ الكريم، وبالمقابل لا يجوزُ إنكارُ الشفاعة بعدَ أن ثبتت بالكتاب والسنة، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورىٰ: ٢٥]، ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، ومذهبُ أهل السنة والجماعة أنّ الذنْبَ مهما كان كبيراً لا يكفِّرُ صاحبُه إلا إذا استحلَّه بلا شُبْهةٍ كما سيأتي إن شاء الله، أو كان الذنبُ نفسُه مكفِّراً كالسجودِ للصَّنَم. وأما النصوصُ التي توعَّدت العصاةَ بالعِقاب فإنها لا تدلُّ علىٰ تعذيبِ كل العصاة، بل إذا عُذِّبَ بعضُهم كان الخبرُ عن العقوبةِ صادقاً كما سيأتي إن شاء الله.

وخالفَ الخوارجُ أهلَ السنة فكفروا أصحابَ الذنوب، وقالوا: كفرٌ دونَ كفر، وخالفَ المعتزلةُ أيضاً فأخرجوا صاحبَ الكبيرة من الإيمان ولم يُدخلوه في الكفر.

القولُ فيمن مات علىٰ غير توبة:

١١٦ـ ومَنْ يَمُتْ ولم يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ فـأمـرُهُ مُفَـوَّضٌ لـربِّـهِ
١١٧ـ وواجبٌ تعذيبُ بعضٍ ٱرتكَبْ كبيـرةً ثـمَّ الخُلُـودُ مُجْتنَـبْ

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وهذه الآيةُ تُفيدُ أنّ المؤمنَ إذا عَمِلَ عملاً صالحاً لا بد أن يجازىٰ عليه خيراً في الآخرة، وأعظمُ الحسناتِ الإيمان، وكذلك قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وقالَ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وهذا التهديدُ يشمل المسلمَ والكافرَ الذي يأكل مالَ اليتيم ظلماً، ومثلُ هذا الآياتُ التي تهدِّدُ أصحابَ الذنوب.

ومن هذه الآياتِ وغيرِها استنبطَ أهلُ السنة العقائدَ التالية:

١ ـ المؤمنُ الذي يموتُ علىٰ الإيمان من غير توبةٍ نفوِّضُ أمرَه إلىٰ الله ولا نَجزِمُ بأنه سيُعاقب أو يعفو الله تعالىٰ عنه؛ لأنه مستحِقٌّ للعقابِ من جهةٍ وعفوُ الله تعالىٰ ممكنٌ شرعاً من جهةٍ أخرىٰ، ويؤيدُ هذا الاستنباطَ قولُ النبيِّ ﷺ: «بايعوني علىٰ ألا تُشرِكوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تَزْنُوا»، وقرأ عليهم الآيةَ وقال: «فمَنْ وَفَىٰ منكم فأجرُهُ علىٰ الله، ومَن أصابَ من ذلك شيئاً فعُوقِبَ به فهو كفّارةٌ له، ومن أصابَ من ذلك شيئاً فسَتَرَهُ الله عليه فهو إلىٰ الله إن شاءَ غفرَ له وإن شاءَ عذّبه»، رواه البخاري ومسلمٌ وغيرهما.

وعلىٰ أي حالٍ لا يخلُدُ المؤمنُ في النار بسبب ذنوبه كما تقدَّم، لقولِ النبيِّ ﷺ: «مَن قالَ: لا إلٰهَ إلا الله، مُخلِصاً دخلَ الجنةَ»، رواه البزّار، وقال

ﷺ: «أشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وأني رسولُ الله، لا يلقىٰ اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيُحجَبَ عن الجنة»، رواه مسلمٌ (٢٧).

٢ ـ لا بد أن يُعذِّبَ الله تعالىٰ بعضَ أصحاب الذنوبِ الكبيرة لأنه توعَّدَهم بالعذاب، فلا بد أن يُعذِّبَ بعضَهم كما أخبر، كيلا يكون الخبرُ مخالِفاً للواقع، وهذا علىٰ مذهبِ الماتُرِيديةِ الذين قالوا: إخلافُ الوعيدِ غيرُ جائز، أما علىٰ مذهبِ الأشاعرة الذين قالوا: إخلافُ الوعيدِ جائزٌ شرعاً لأنه كَرَمٌ؛ فلا يجبُ تعذيب بعضِ العصاة. ومن هذا يتبين أن المكلَّفين يومَ القيامة أقسامٌ:

١ ـ المؤمنونَ الذين لم يعملوا ذنباً قط كالأنبياء، وهؤلاء في الجنة لا يمسُّهُم عذابٌ بدليلِ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢]، وعلىٰ هذا أجمعَ المسلمون.

٢ ـ المؤمنون الذين أذنبوا ثم تابوا توبةً نصوحاً، وهؤلاء في الجنةِ لا يعذَّبون إن شاءَ الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الشورىٰ: ٢٥]، وقال رسولُ الله ﷺ: «التائبُ من الذّنْبِ كمَن لا ذنبَ له»، رواه ابنُ ماجه.

٣ ـ المؤمنونَ الذين أذنبوا ولم يتوبوا وذنوبُهم صغائرُ فهؤلاء في مشيئةِ الله تعالىٰ إن شاءَ عاقَبَهم وإن شاءَ عفا عنهم، وهم خالدون في الجنة، وأمرُهم إلىٰ العفوِ أقربُ، قالَ الله تعالىٰ: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ [النساء: ٣١].

٤ ـ المؤمنون الذين فعلوا الكبائرَ ولم يتوبوا فهؤلاء إن لم تشملهم شفاعةٌ ولا عفوٌ يعذَّبون علىٰ ذنوبهم لكن لا يخلَدُون في النار بل يخرجون منها

إلىٰ الجنة خالدين فيها أبداً، ويشهدُ لهذا قولُ الرسولِ ﷺ: «من ماتَ لا يُشرِكُ بالله شيئاً دخلَ الجنة»؛ أي: ولو بعدَ العذاب، «ومن ماتَ يشركُ بالله شيئاً دخلَ النار»، رواه مسلمٌ.

٥ ـ الكفارُ الذين ماتوا علىٰ الكفر، وهؤلاء مخلَّدون في النار، والمنافقون منهم في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، لا ينفعهم عملٌ وإن كان ظاهرُهُ حَسَناً، إذ ليس لهم عملٌ صالح، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهذه البحوثُ لا تعني الجرأةَ علىٰ المعاصي، فالمؤمنُ يَخافُ مِنَ الله ولو لم يعمل ذنباً قط، لأن الخوفَ مِن الله مِن علاماتِ الإيمان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

حياةُ الشُّهَداء:

١١٨ـ وصِفْ شَهيدَ الحَرْبِ بالحياةِ ورِزْقُـهُ مِـنْ مُشتَهـىٰ الجَنّـاتِ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠]، والمرادُ بالشهيدِ هنا الذي يُقتَلُ في سبيلِ الله، وسُمِّيَ شَهيداً لأن الله تعالىٰ شَهِدَ له بالجنة، والملائكةُ يشهدون له بذلك، فهو شهيدٌ بمعنىٰ: مشهودٌ له بالجنة، ثم إن روحَه شهدت دارَ السلام ودخلتها قبلَ يومِ القيامة، فهو شهيدٌ بمعنىٰ: شاهدٌ؛ أي: حاضرٌ مشاهِدٌ للجنة، والآيتان الكريمتان تشهدان للشهيد بأنه حيٌّ، لكنْ: ما هيَ ماهيةُ حياته؟ هذا أمرٌ نفوِّضُ علمَه إلىٰ الله،

ونعتقدُ أنه ليس ميتاً كبقيةِ الأموات، وإنْ كنا لا نشاهِدُ في جسمِهِ حركةً ولا حياةً كالأحياء الذين يمشون علىٰ وجهِ الأرض، بدليلِ أن تَرِكَتَهُ تُقسَّم، وجسمَهُ يُدفَن، لكنْ له حياةٌ من نوعٍ خاص، فهو يأكلُ ويشربُ ويتلذَّذُ ويستطلعُ أخبارَ إخوانه الذين خلَّفهم في الدنيا، ويستبشر بقدوم مِن يقدُمُ منهم إلىٰ الآخرة ثابتاً علىٰ العهدِ شهيداً أو غيرَ شهيد.

وقد روىٰ الإمام أحمد وأبو داودَ والحاكم عن ابن عباسٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لمّا أُصيب إخوانكم بأُحُدٍ جعلَ اللهُ أرواحَهم في أجوافِ طَيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنة وتأكلُ من ثمارها وتأوي إلىٰ قناديلَ من ذهبٍ في ظل العرش، فلمّا وجدوا طِيبَ مأكَلِهم ومشرَبِهم وحسنَ مَقِيلِهم قالوا: يا ليتَ إخوانَنا يعلمون ما صَنَعَ الله لنا لئلا يَزهَدُوا في الجهادِ ولا يَنكُلُوا عن الحرب، فقال الله تعالىٰ: أنا أبلِّغُهم عنكم، فأنزل هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾».

وأمّا أنّ الأرضَ لا تأكل أجسادَهم فهذا مما شاهدَه المسلمون وتناقَلُوه منذُ عهدِ الصَّحابة إلىٰ عهدِنا، فقد وَجَدَت الكتيبةُ الهاشميةُ العاشرةُ من الجيش العربي الأردني سنة ١٣٩٠هـ أثناءَ حربنا مع اليهود شهيدَين مدفونَين في التراب وأجسامُهم سالمةٌ لم تَبْلَ، وذلك بعدَ استشهادِهم بثلاثِ سنينَ بالقرب من بلدة الشُّونةِ الجنوبية، في منطقة الغَورِ مقابلَ القُدْس، وهي منطقةٌ شديدةُ الحرارة، ورأتهُما الكتيبةُ كلُّها، وأخبرني من شاهدَهما، ومثلُ هذا في منطقة الشُّوبَك في الأردن، وجدوا شهداءَ لم تَبْلَ أكفانُهم، ويظهر أنهم من أيام المماليك في جهادِهم ضدَّ الصليبيين، وأخبرني مَن رآهم. وأمّا أنّ بعضَ الذين يُقتَلون في المعارك ضدَّ الكفار تتفسَّخُ أجسادُهم فذلك لأنّ الشهداءَ درجاتٌ، والله أعلمُ بالنوايا.

ثم إنّ الشهداءَ ثلاثةُ أنواع:

الأول: شهيدُ الدنيا والآخرة، وهو المؤمنُ الصالحُ الذي يقاتِلُ لإعلاء كلمة الله فيُقتَلُ في المعركة ضدَّ الكفار مُقبِلاً غيرَ مدبِر، فهذا شهيدُ دنيا، بمعنىٰ أننا لا نغسِّلُه ولا نصلِّي عليه، وشهيدُ آخرة بمعنىٰ أن له في الآخرة ما وعدَ الله به الشهداء.

الثاني: شهيدُ دنيا، وهو المسلمُ الذي يُقتَلُ في المعركة ضدَّ الكفار لكن لم تكن نيتُه إعلاءَ كلمة الله، فهذا لا يُغسَّلُ ولا يصلىٰ عليه، لأنه شهيدٌ حسبَ الظاهر، ونحن لم نطَّلع علىٰ سريرته، وفي الآخرة ليس له ما للشهداء، بل هو كسائر أمواتِ المسلمين. ودليلُ هذا قولُ الرسول ﷺ: «من قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هيَ العليا فهو في سبيلِ الله»، وكان هذا جواباً لمن قال: يا رسولَ الله، الرجلُ يقاتِلُ للمَغْنَم، والرجلُ يقاتِلُ ليُذكَر، والرجلُ يُقاتِلُ ليُرىٰ مكانُه، فمَن في سبيلِ الله؟ فقال: «مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله»، رواه البخاري (٢٨١٠)، ومسلمٌ (١٩٠٤).

الثالث: شهيدُ الآخرة، وهذا يُغسَّلُ ويُصلَّىٰ عليه، وله عندَ الله تعالىٰ مثلُ أجرِ الشهداء في المعركة، قال رسولُ الله ﷺ: «والشهادةُ سبعٌ سوىٰ القتلِ في سبيل الله: المقتولُ في سبيل الله شهيدٌ، والمطعونُ شهيدٌ (أي: الذي ماتَ بالطاعون)، والغريقُ شهيدٌ، وصاحبُ ذات الجَنْبِ شهيدٌ، والمبطُونُ شهيدٌ (أي: مَن ماتَ بالإسهالِ كالكُولِيرا)، وصاحبُ الحريقِ شهيدٌ، والذي يموتُ تحتَ الهَدَمِ شهيدٌ، والمرأةُ تموتُ بجُمْعٍ شهيدٌ (أي: تموتُ بسبب الولادة)»، رواه الإمامُ مالكٌ والإمام أحمد وغيرُهما.

وفي بعض الأحاديث زيادةٌ علىٰ ما ذُكِر: «الغريب، والملدُوغ، ومن يقعُ من فوقِ البيت (أي من مكانٍ عالٍ)، ومن تقعُ عليه صخرةٌ، والتي تموتُ من الغَيرة علىٰ زوجها، ومن قُتِلَ دونَ مالِه، ومَن قُتِلَ دونَ نفسِه، ومن قُتِلَ دونَ أخيه، ومن قُتِلَ دونَ جاره، والآمرُ بالمعروف والناهي عن المنكر (أي: إذا قتل بسبب ذلك)»، رواه ابنُ عساكر.

وفي بعضِ الأحاديثِ زيادةٌ علىٰ مَن ذُكِر: مَن قُتِلَ دونَ دينه، ومن قتل دون أهله (أي عرضه ونسائه)، ومن قتل مظلوماً.

فبابُ الشهادة واسعٌ وفضلُ الله أوسع، وفي العقائد نقفُ عندَ النص.

معنىٰ الرِّزْق:

١١٩ـ والرِّزْقُ عندَ القومِ ما بِهِ ٱنتُفِعْ وقيلَ: لا، بل ما مَلَكْ، وما اتُّبِع

١٢٠ـ فيَـرزُقُ اللهُ الحـلالَ فـٱعلَمـا ويَــرزُقُ المكــروهَ والمحــرَّمــا

الرزّاقُ هو الله عز وجل، وهذا لا خلافَ فيه بينَ المسلمين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، فالعِبادُ لا يَرزُقُون أنفسَهم ولا غيرَهم، بل يتعاطَون الأسبابَ والرزّاقُ هو الله تعالىٰ، قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

لكنْ: ما هو الرِزقُ في الاصطلاحِ الشرعي؟ هل هو ما انتفعَ به الإنسانُ والحيوان، أم ما مَلَكَهُ الإنسان؟ قال أهلُ السنة: الرزقُ ما انتفعَ به الإنسانُ والحيوان. وقال المعتزلة: ما ملكه الإنسان.

وحجةُ أهلِ السنة أن المسألةَ ليس فيها إلا قولان: قولُهم وقولُ المعتزلة، وقولُ المعتزلة ينبني عليه أمورٌ غيرُ صحيحة، منها:

١ ـ لو كان الرزقُ ما مُلِكَ لكانَ الله عز وجل مرزوقاً لأنه يملك كل ما في الكون، وهذا لا يقولُ به أحد.

٢ ـ لو كان الرزقُ ما مُلِكَ لكانت الدوابُّ غيرَ مرزوقةٍ لأنها لا تَملِك، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فدلَّ علىٰ أنّ الرزقَ ما انتفعَ به الحيوان.

٣ ـ لو كان الرزقُ ما مُلِكَ لكان بعضُ الناس يأكل رزقَ بعض، وقد اشتهر بين المسلمين أن أحداً لا يأكل رزقَ أحد.

فبطلَ قولُ المعتزلة وثبتَ قولُ أهل السنة، أما قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، فمعناه مما أعطيناهم، والرزقُ يُطلَقُ لغةً علىٰ المِلْك، لأنّ ما يملكُهُ الإنسانُ ينتفعُ به غالباً فهو مُهَيَّأٌ للانتفاع، وموضوعُ البحث: الرزقُ اصطلاحاً وليس لغةً.

ولهذا جَزَمَ أهلُ السنة بأن الرزقَ ما ساقه الله تعالىٰ إلىٰ الإنسانِ والحيوانِ فانتفَعَ به بالفعل بأيِّ وجهٍ من وجوه الانتفاع من أكلٍ أو شربٍ أو غيرهما، ومعلومٌ أنّ الإنسانَ يمكن أن يأكلَ الحلالَ والحرامَ والمكروه، فالحلالُ ما ثبتت إباحتُهُ بدليلٍ شرعيٍّ من الكتاب أو السنة أو غيرهما من الأدلة، والحرامُ ما ثبتت حرمتُهُ بدليلٍ شرعي، والمكروهُ ما نهىٰ الشرعُ عنه نهياً غيرَ جازم، فإن قيل: كيفَ يرزقُ اللهُ الحرامَ؟ قلنا: هذه من مسائلِ خَلْقِ الأفعال والكسب، وقد تقدَّمَ الحديثُ عنها، وخلاصةُ الجوابِ الذي يناسِبُ المقامَ أنّ العبدَ يختارُ الانتفاعَ بالحرام فيُحاسَبُ علىٰ اختيارِه وإن كانت قدرتُهُ علىٰ الانتفاعِ بالحرامِ من خَلْقِ الله تعالىٰ.

معنىٰ التوكُّل:

١٢١- في الاكتِساب والتوَكُّلِ ٱختُلِفْ والراجِحُ التفصِيلُ حَسْبَما عُرِفْ

الرزقُ من عند الله عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]، ومع هذا أمرَ الله تعالىٰ بالسعي في طلبِ الرزق فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، فمَن نظرَ إلىٰ الآيةِ الأولىٰ وما في معناها من الآياتِ والأحاديثِ بدا له أن عدمَ السعي في طلب الرزق مع الاشتغال بالعبادةِ أو العلمِ أو الجهادِ أو الدعوة أفضلُ، لأنه اعتمادٌ مطلَقٌ علىٰ فضل الله تعالىٰ فهو لا يُخلِفُ الميعاد، ولا بد أن يسوقَ إليه رزقَه بطريقةٍ ما، ويسمُّون هذا (التوكُّلَ) أو التجريدَ عندَ أهل التصوف، ويشترطون علىٰ مَن سلكَ هذا الطريقَ أن يَقصِدَ به التفرُّغَ لأمرٍ من أمور الدِّين من علمٍ أو عبادةٍ أو جهادٍ.. إلخ، ويشترطون عليه أن لا يُخِلَّ بنفقةِ مَن تلزمُهُ نفقتُه مِن زوجةٍ أو قريب، وأن يكون حَسَنَ الظنِّ بالله عز وجل مهما أصابه من الفقر حتىٰ لو مات جوعاً، وعَدُّواْ من التوكل تركَ الدواء اعتماداً علىٰ الله تعالىٰ وأنّ الآجالَ محدَّدةٌ لا تتغير.

ومن نظرَ إلىٰ الآية الثانية وما في معناها من الآياتِ والأحاديثِ رأىٰ أنّ السعيَ في طلبِ الرزقِ أفضل، لأنه استجابةٌ لأمر الله تعالىٰ بالسعي، قال تعالىٰ: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وفي هذا استغناءٌ عن الناسِ والذلِّ لهم بسببِ ما يقدِّمُونه لمَن ترك العمل، وفيه أيضاً تسبُّبٌ في كسبِ المالِ للإنفاق علىٰ غيرِه من المسلمين، ويسمون هذا (الاكتسابَ) أو التسبُّب، ويشترطون علىٰ من سلكَ هذا الطريقَ أن لا يشغَلَه عن واجبٍ دينيٍ

من عبادةٍ، وعلمٍ، وجهاد، قال الله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، ومن الاكتسابِ تعاطي الدواء عندَ المرض عملاً بقول النبي ﷺ: «عبادَ الله تداووا، فإنّ اللهَ لم يَضَعْ داءً إلا وَضَعَ له دواءً إلا داءً واحداً: الهَرَم»، رواه الطيالسي، انظر «الجامع الصغير».

وأما من نظرَ إلىٰ الآيتين معاً وما أشبههما من الآيات والأحاديث وجدَ أنه لا تعارُضَ بينهما، وأنّ المؤمنَ يجبُ أن يسعىٰ في طلب الرزق مع اعتقاده أنّ الرزّاقَ هو الله تعالىٰ، وأنّ ما يكسبه طالبُ الرزق ليس بقدرته ولا بحوله بل بفضل الله تعالىٰ، فكم من إنسانٍ يسعىٰ ويتعبُ في طلب الرزق وهو فقيرٌ، وكم من إنسانٍ يبذل جهداً قليلاً ويأتيه مالٌ كثير، ومثلُ هذا يُقال في الدواءِ والتداوي، فعلىٰ المسلم أن يتداوىٰ ويعتقدَ أنّ الشافيَ هو اللهُ تعالىٰ، قال عزوجل فيما حكاه عن إبراهيمَ عليهِ السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وهذا هو الأوْلىٰ، لأنه حالُ النبيِّ ﷺ وحالُ الصحابةِ الكرام، وحالُ النبيِّ ﷺ وحالُ أصحابه أشرفُ الأحوال، فهم القدوةُ لمن بعدَهم كما سيأتي، وأهلُ هذا الزمانِ لا يُخاف عليهم من ترك الأسباب توكُّلاً بل من الاشتغالِ بها والاعتمادِ عليها مع نسيانِ الرزّاق خالقِ الأسبابِ جلَّ جلاله.

وفي نفس الوقت لا ننكر أنّ العلمَ والعبادةَ والجهادَ بحاجةٍ إلىٰ تفرُّغ، فمَن تفرَّغ لذلك ورضيَ بالقليل الحلال لا يجوزُ الإنكارُ عليه، كما أن كفايةَ النفس والإنفاقَ علىٰ العِيالِ وإنعاشَ اقتصادِ الأمة الإسلامية كيلا تطغىٰ عليها الأممُ الأخرىٰ وتستعمِرَها يحتاجُ إلى جهدٍ ومثابرةٍ وسفرٍ واتصالات، ومَن عمل في هذا المجالِ بنيّةٍ صادقةٍ لخدمة الأمةِ أو كفايةِ النفس والعِيالِ مع أداءِ حقوقِ الله لا يجوزُ الإنكارُ عليه، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «كلٌّ ميسَّرٌ لما

خُلق له»، رواه البخاري ومسلمٌ. والأمةُ لا تستغني عن هذا ولا عن ذاك، وخيارُ الأمة كان فيهم الغني كعثمانَ بن عفان وعبد الرحمٰن بن عَوف، وكان فيهم الفقيرُ كأبي ذَرٍّ وبلالٍ رضيَ الله عنهم أجمعين، والأولياءُ فيهم الغني والفقير، ولذا اختلفوا أيهما أفضلُ الغني الشاكر أم الفقير الصابر، والصحيحُ أنّ المعوَّل عليه هو الحالُ مع الله، فما قرَّبَ إلىٰ الله فهو الأفضلُ سواءٌ في ذلك الغنىٰ والفقر.

الشيءُ هو الموجود، والموجوداتُ حقائقُ ثابتة:

١٢٢ـ وعندَنا الشَّيءُ هو الموجُودُ   وثـابـتٌ فـي الخـارِجِ المـوجـودُ

هذه بعضُ اصطلاحاتِ علماءِ الكلام الأشاعرة، فان كلمتَي (شيء) و(موجود) معناهما واحدٌ عندَهم، فكل ما قيل عنه (شيءٌ) فهو (موجودٌ)، وكل ما يُقال عنه (موجودٌ) فهو (شيءٌ)، ولا يُقال: (شيءٌ) ولا (موجودٌ) إلا لما له حقيقةٌ في الواقع، أما الذي تتخيله الأذهانُ وليس له وجودٌ في الواقع فلا يُقال له (شيءٌ) ولا (موجودٌ). فعندَما ننظر إلىٰ الحيوان المعروف ونقول: «هذا فرسٌ» فإن الفرسَ التي نراها فرسٌ حقيقيةٌ وليست خيالاً، ولها وجودٌ في الواقع، وكذلك عندما نقول: هذا إنسانٌ أو شجرةٌ... إلخ؛ أي: أنّ الكونَ وما فيه حقيقةٌ، وما نحِسُّ به من الموجوداتِ في الكون حقائق، ولسنا في حُلمٍ طويل أو تصوُّراتٍ ناتجةٍ عن اضطرابٍ في العقل، وأقربُ الحقائق وجودُنا نحن الذين نفكِّرُ ونعالج القضايا.

هذه الحقائقُ البَدَهِيةُ تنبني عليها حقيقةٌ كبيرة، وهيَ: أنّ الكونَ وأجزاءه حقائقُ ثابتةٌ، وهي عاجزةٌ عن إيجادِ نفسِها، فلا بدَّ لها من مُوجِد، ومُوجِدُها هو الله تعالىٰ.

وبعضُ الناس أرادَ أن يهربَ من حقيقةِ وجودِ الله تعالىٰ فقال إنّ الكونَ وما فيه خيالٌ لا حقيقةَ له؛ أي: لا يحتاجُ إلىٰ خالق، لأنه إذا اعترفَ بوجودِ الكون لزمه أن يعترفَ بخالق الكون، فأنكرَ وجودَ الكون، وهذا الكلامُ أقربُ إلىٰ الجنون، وقد اشتهر به قومٌ سُمُّوا (السوفسطائية)، وقد انقرضَت هذه الفرقة، ويُحكىٰ أن سُوفسطائياً أتىٰ علىٰ بَغْلةٍ إلىٰ الإمام أبي حنيفةَ رحمه الله ليناظِرَهُ في هذا الموضوع، فأمرَ الإمامُ بعضَ تلاميذه أن يُخفِيَ البغلة، فلما خرج السوفسطائي لم يجد بغلتَه، فبحث عنها، فقال له الإمام: أنتَ تزعم أنه لم يكن لبغلتك حقيقةٌ! فلا تطلُبْها. فرجعَ عن معتقده ورُدَّت إليه بغلتُه.

وهذه المسألةُ التي نراها بَدَهيةً يذكرها بعضُ العلماء في أول بحوثِ علمِ الكلام لأنه ينبني عليها ما بعدها، قال الإمام عمرُ النسفي في متن عقائده: «قال أهلُ الحق: حقائقُ الأشياءِ ثابتةٌ والعلمُ بها متحقِّقٌ»، لأنه إذا لم يُسلَّم بوجودِ الأشياءِ فكيف يتم بحثٌ وفكرٌ ويُقامُ دليل.

وجودُ الشيءِ عينُ حقيقتِه، والجوهرُ الفردُ حادثٌ:

١٢٣ـ وجودُ شيءٍ عينُهُ والجَوْهَرُ الفَـرْدُ حـادِثٌ عنـدَنـا لا يُنكَـرُ

إذا قلنا: هذا ثوبٌ أحمر، فنحن نعني ذاتَ الثوب، ونعني اتصافه بالحُمْرة، فذاتُ الثوبِ شيءٌ وكونه أحمرَ شيءٌ آخر، إذ قد يكون أزرقَ أو أخضر، أي يُمكِنُ أن تَنعَدِمَ الحُمْرةُ ويبقىٰ الثوب.

لكن إذا قلنا: الثوبُ موجودٌ، فوجودُ الثوبِ وذاتُه شيءٌ واحد، فإذا انعدمَ وجودُهُ انعدَمَت ذاتُه، وإذا انعدمَتْ ذاتُه انعدَمَ وجودُه، وإذا ثبتَت ذاتُه ثبتَ وجودُه، وإذا ثبتَ وجودُه ثبتَت ذاتُه، وهكذا يُقالُ في كل موجود. وقد

تقدَّمَ هذا في بحثِ صفة الوجود في حق الله تبارك وتعالىٰ عندَ القول بأن الوجودَ صفةٌ نفسية.

فالمعدومُ ليس في الخارج بشيء، ولا ذاتٍ، ولا ثابت؛ أي: لا حقيقةَ له في الخارج، وإنما يَتحقَّقُ في الخارج بوجودِهِ فيه. والمرادُ بالخارج: خارجُ الذهن؛ أي: ليس خيالاً بل موجودٌ في دنيا الناس كما يقولون.

ثم إنّ علماءَ الكلام قالوا في بحوثهم: إنّ الكونَ مؤلَّفٌ من أجزاءٍ صغيرةٍ غيرِ قابلةٍ للانقسام، وسمَّوا الجزءَ الذي لا ينقسم (الجوهرَ الفرد) أو (الجزءَ الذي لا يتجزأ)، وقالوا: إنه حادث، لأنّ وجودَه جائزٌ لا واجب، وما كان جائزَ الوجود فوجودُهُ يحتاجُ إلىٰ مُوجِد، ومُوجِدُه هو الله تعالىٰ، ثم جاءَ العلمُ الحديثُ ليؤيِّدَ ما قاله علماؤنا ويقول: إنّ العالَمَ مؤلَّفٌ من عناصر، والعناصر مؤلَّفةٌ من ذرات، والذرةُ هي الجزءُ الذي لا ينقسِمُ من كل عنصر، وأن ذراتِ العناصر لا يختلف بعضُها عن بعضٍ إلا بعدد الإلكترونات التي تدور حولَ النواة، وهذا يعني أن تخصيصَ ذراتِ كل عنصرٍ بعددٍ خاصٍ من الإلكترونات يحتاجُ إلىٰ مخصِّص، وهذا دليلٌ علىٰ حاجة كل ذرةٍ إلىٰ صانع، وصانعُها هو الله تعالىٰ، وهكذا فإنّ كل صغيرةٍ وكبيرةٍ في الكون تشهدُ بوجود الله عز وجل، وصدقَ الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فمَن أنكرَ وجودَ الله فقد أعلنَ عن عمىً قلبه.

وجوبُ التوبة:

١٢٤ـ ثمَّ الذُّنُوبُ عندَنا قِسْمانِ	صغيـرةٌ كبيـرةٌ فـالثـانـيْ
١٢٥ـ منهُ المَتَابُ واجبٌ في الحالِ	ولا انتقـاضَ إن يَعُـدْ للحـالِ
١٢٦ـ لكنْ يُجَدِّدْ تَوبةً لما ٱقتَرَفْ	وفـي القَبـولِ رأيُهُـم قَـدِ ٱختَلَـفْ

مذهبُ أهل السنة والجماعة أنّ الذنوبَ قسمان: صغائرُ وكبائر، واستدلوا علىٰ هذا بقول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، فقد فرّقت الآيةُ بين الكبائرِ وغيرِها وهو اللّمَم؛ أي: الصغائر.

وخالفَ في هذا المرجئةُ فقالوا: كل الذنوب صغائر، بمعنىٰ أنه لا يضرُّ مع الإيمانِ شيءٌ، وخالفَ الخوارجُ فقالوا: كلُّ الذنوبِ كبائر، نظراً إلىٰ عَظَمةِ الله تعالىٰ، وكلُّ كبيرةٍ كفرٌ، لكنْ كفرٌ دونَ الكفر بالله، وخالفَ بعضُ الصوفية فقالوا: كل معصيةٍ كبيرةٌ ولا يكفُرُ صاحبُها إلا إذا كان نفسُ الفعلِ مكفِّراً، كالسجود لصَنَمٍ ونحوه، وقد تقدَّم هذا ص ١٨٣ عندَ بيان أن اجتنابَ الكبائر يكفِّرُ الصغائر، وتقدَّمَ تعريفُ الكبائر، والمقصودُ هنا بيانُ وجوبِ التوبة من الكبائر حالاً؛ أي: أثناء القيامِ بها، وذلك بالكَفِّ عنها، فإن كان قد انتهىٰ من فعلِها وجبت التوبةُ فوراً، وكل تأخيرٍ للتوبة يُعَدُّ ذنباً جديداً لأنه تأخيرٌ للواجب عن وقته.

ودليلُ وجوبِ التوبة قول الله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، والتوبةُ النَّصُوحُ، أي: الصادقة، ما توفَّرَ فيها ثلاثةُ أركان:

١ ـ الإقلاعُ عن المعصية، وذلك بتركها.

٢ ـ الندمُ علىٰ فعلِها لأنها مخالفةٌ لأمر الله تعالىٰ.

٣ ـ العزمُ علىٰ عدمِ العودة إليها أبداً عزماً صادقاً.

فإن كانت المعصيةُ متعلِّقةً بحقوق العباد؛ كأكل أموالهم بالباطل أو ظلمهم بضربٍ أو شتمٍ أو غِيبة، فلا بدَّ من ركنٍ رابع: وهو رَدُّ الحقوقِ إلىٰ

أصحابها أو مسامحتُهم، لكن إن اغتابَ شخصاً أو شتمَهُ ولم يبلُغْهُ ذلك فلا يجوزُ أن يُخبِرَهُ به، لأنها إساءةٌ جديدةٌ قد يترتَّبُ عليها شرٌّ جديد، بل يدعو له ويستغفرُ له ويذكرُهُ بالخير كما ذكرَهُ بالسُّوء من غير أن يكذِب، فكلُّ إنسانٍ له حسناتٌ وسيئات، أمّا إن بَلَغَتْهُ الإساءةُ فَلْيطلُب منه المسامحة.

وهنا مسائلُ ينبغي التذكيرُ بها:

١ ـ أكبرُ الكبائر الكفر، والتوبةُ منه واجبةٌ سواءٌ كان كافراً أصلياً أو مرتداً، وتوبةُ الكافر بالنطق بالشهادتين، والتبرِّي من العقائدِ المكفِّرة، والاعتقادِ الجازمِ بالعقيدة الإسلاميةِ الصحيحةِ عندَ أهلِ السنة والجماعة.

٢ ـ لو قَدَرَ علىٰ التوبةِ من بعض الذنوب ولم يقدِر علىٰ التوبةِ من بعضِها الآخر وجبَ عليه أن يتوبَ عمّا يقدِرُ علىٰ التوبةِ منه ويحاولَ أن يتوبَ من الباقي.

٣ ـ إذا غلبه الشيطانُ وعادَ إلىٰ المعصية التي تابَ عنها وجبَ عليه أن يتوبَ منها مرةً أخرىٰ، وهكذا كلما غلبه الشيطانُ تابَ ولا يَقنَطُ من رحمة الله.

٤ ـ لو تابَ من الذنوب كلِّها جملةً يكفي، ولا يُشترط أن يعُدَّها بالتفصيلِ ليتوبَ منها، وعليه أن لا يعودَ إلىٰ ذنبٍ بعدَ ذلك، فإن عادَ جَدَّدَ التوبةَ مما عاد إليه.

٥ ـ حقوقُ العبادِ المالية إن كانت معلومةً لا بد من طلب المسامحة بها بالتفصيل ولا تكفي المسامحةُ جملةً، وإذا لم تكن معروفةً بالتفصيل كَفَتِ المسامحةُ بالجملة، وهي مسألةٌ خلافيةٌ بينَ الفقهاء يذكرونها في بابِ «الإبراء» من كتب الفقه. وأما الحقوقُ المعنويةُ الناتجةُ عن الإساءة

بالغِيبة والشتمِ ونحوهما فقد تقدَّمَ أنّ الإساءةَ إن بلغت من أساءَ إليه فلا بد من طلب المسامحة وحصولِها، وإلا فلا يجبُ ذكرُها له، بل يكفي الدعاءُ والاستغفارُ له وذكرُهُ بالخير خاصةً عندَ الذين ذكرَه بالسُّوءِ عندَهم.

٦ - التوبةُ من الذنوبِ الصغيرةِ واجبٌ أيضاً، فهيَ مخالِفةٌ لأمرِ الله تعالىٰ، ولا يوجد حَدٌّ فاصلٌ تماماً بين الكبائر والصغائر كما تقدَّم.

٧ - بابُ التوبة مفتوحٌ أمامَ الإنسان في كل وقتٍ ليلاً ونهاراً ما لم يُغَرْغِرْ؛ أي: يَصِل إلىٰ حالةِ النزاع ويرىٰ مَلَكَ الموت، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

ويُغلَقُ بابُ التوبة أيضاً عندَ طلوع الشمس من مغربها، وهو من علاماتِ الساعة الكبرىٰ التي تقعُ قبلَها بقليل، قال الله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

أما قبلَ ذلك فبابُ التوبة مفتوحٌ، قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله تعالىٰ يبسُطُ يدَه بالليل ليتوبَ مسيءُ النهار، ويبسُطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مسيءُ الليل، حتىٰ تطلُعَ الشمسُ من مغربها»، رواه أحمد ومسلمٌ.

٨ - لا يجوزُ ذكرُ الذنب لأحدٍ إلا علىٰ سبيلِ الاستفتاء ونحوِه، لأن ذكرَهُ تبجُّحاً ذنبٌ جديدٌ، بل يتوبُ بينَه وبينَ الله تعالىٰ ويستغفر، حتىٰ في الاستفتاءِ يقولُ: ما حكمُ مَن فعلَ كذا...

٩ - الاستغفارُ سببٌ من أسباب المغفرة، ويُستحَبُّ الإكثارُ منه في كل وقت، وخاصةً في وقتِ السحرِ والأوقاتِ الشريفة، قال الله تعالىٰ:

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

١٠ـ إذا اجتمعت أركانُ التوبة وشروطُها فهيَ مقبولةٌ إن شاءَ الله، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فإذا كان الكفرُ قابلاً للمغفرةِ بالتوبة منه فغيرُهُ من بابِ أولىٰ، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

١١ـ الصغائرُ تُعطىٰ حكمَ الكبائر بالإصرارِ عليها، أو التهاونِ بها، أو الفرحِ والافتخارِ بفعلِها أو صدورِها من عالِمٍ وغيرِه ممن يُقتدىٰ به.

أهمُّ مقاصدِ الشريعةِ الإسلامية:

١٢٧ـ وحِفْظُ دِينٍ ثم نَفْسٍ مالْ نَسَبْ ... ومِثْلُها عَقْلٌ وعِرْضٌ قَدْ وَجَبْ

الصلةُ بينَ علومِ الشريعة صلةٌ وثيقة، والفصلُ بينها في التأليفِ هو لأغراضِ البحثِ والدراسة، لأنها كلَّها تدورُ حولَ وجوبِ الإيمانِ بالله وطاعته وِفْقاً للمنهاج الذي أنزله علىٰ سيدِنا محمدٍ ﷺ، وهذا من معاني قولِنا: (أشهدُ أن لا إلٰه إلا الله، وأشهدُ أن محمّداً رسولُ الله)؛ أي أُقِرُّ وأعترِفُ بأنّ اللهَ ربي وربُّ العالمين، ولذا يجبُ عليَّ طاعتُه وِفْقاً لما أنزل علىٰ رسولِه محمّدٍ ﷺ، لأنّ اللهَ يعلمُ ماينفعني في الدنيا والآخرة.

ولذا نجدُ بعضَ المؤلفين في الفقهِ يمهِّدُ بذكر العقائدِ الإسلاميةِ باختصار، ثم يذكرُ الأحكامَ الفقهية، ويختِمُ بذكر الأخلاقِ الفاضلةِ ووجوبِ تصفيةِ السريرةِ لربِّ العالمين، وذلك تأسِّياً بحديثِ جبريلَ المشهورِ الذي سألَ فيه عن الإيمان والإسلام والإحسان، وبهذا الأسلوبِ اشتهرت كتب

الفقه المالكي، ومؤلِّفُ جوهرةِ التوحيدِ رحمه الله مالكيُّ المذهب، ولذا بعدَ أن ذكرَ مسائلَ العقيدة أتبَعَها بذكرِ قواعدَ تَرجِعُ إليها الأحكامُ الفقهية، ثم أتبعها بذكرِ مسائلَ في الأخلاق وإصلاح القلب.

والقواعدُ التي تدور عليها أحكامُ الفقه هي وجوبُ حفظ: الدِّين، والنفس، والمال، والنَّسَب، والعقل، والعِرْض، فإنّ علماءَ أصول الفقه يرَون جميعَ الأحكامِ الفقهيةِ الإسلاميةِ راجعةً إلىٰ حفظِ هذه الأمور الستة، وأنّ جميعَ الشرائعِ الربانيةِ متفقةٌ علىٰ وجوبِ حفظِها.

أما الدِّين: فهو ما شرعه الله تعالىٰ لعباده من الأحكام في كل المواضيع، ومن أجلِ بيانِ الدِّين أرسلَ الله الرُّسُل، وأنزلَ الكُتُب، وأمرَ بالدعوة، ومن أجل حمايةِ الدِّين ونشرِ رسالتِهِ شَرَعَ الجهاد، وعقوبةَ المرتدّ، وأمرَ بمعاقبةِ المخالِفِ لأحكامِ الشريعة. ولذا لا يُباح الكفر، ولا انتهاكُ حُرُماتِ الدِّين.

وأما النفس: فمن أجل إيجادها أمرَ الله تعالىٰ بالزواج وحثَّ عليه، وأمرَ بالعنايةِ بالإنسان منذُ يكون جنيناً حتىٰ يُتَوَفَّىٰ، ومن أجل حفظِ النفس شرعَ علاجَ المرض، وعقوبةَ القِصاص في النفس والأطراف، وأوجبَ الدِّيَةَ فيهما، ولذا لا يجوزُ قتلُ النفس بغيرِ حقٍ ولا قطعُ الأعضاءِ إلا بحقٍ أو لحاجةٍ علاجية.

وأما المال: فمن أجل تحصيله شرعَ الله الكسبَ بالتجارة والعمل، والهبةَ والإرثَ والوصيةَ.. إلخ، ومن أجلِ حفظه شرعَ حدَّ السرقةِ وقطعِ الطريق والحِرابة، وأحكامَ التعويضِ عن المتلَفات، وحرَّم السرقةَ وأكلَ الأموالِ بغير حق.

وأما النسب: فهو مما ميَّزَ اللهُ به الإنسانَ عن غيره، فبه يَعرِفُ آباءه وأبناءه وأقاربَه، ولهذا شَرَعَ اللهُ النكاحَ بالشروطِ الشرعية، وحرَّم الزنا، وأوجبَ الحدَّ علىٰ مُرتكبِه.

وأما العقل: فهو هبةُ الله تعالىٰ ميَّزَ به الإنسانَ عن الحيوانات والجمادات، ولحفظه حرَّم الله تعالىٰ كل مُسكِرٍ ومُفتِرٍ وشرعَ حدَّ السُّكْر.

وأما العِرْضُ فالمرادُ به موضعُ المدحِ والذم؛ أي: الكرامةُ الشخصية، وكلُّ إنسانٍ يُولَد بريئاً من الذنوب والنقائص، ولحفظِ الكرامةِ حرَّمَ الله القَذْفَ، والسَّب، والغِيبة، وشرعَ حدَّ القذف.

وبعضُ العلماء يرىٰ أن حفظَ النَّسَبِ والعِرْضِ شيءٌ واحدٌ، ويعُدُّون الكلِّياتِ خمساً، وهو المشهور.

ويرىٰ العلماءُ أنّ هذه الخمسةَ بعضُها أهمُّ من بعض، فأهمها الدين، ولذا تُبذَل الأنفسُ والأموالُ في سبيله، ثم النفوس، ولذا تُباح المحظوراتُ عندَ الخوفِ عليها، ثم العقول، ثم الأنساب، ثم الأموال، والأعراضُ في مرتبةِ الأموال، وتفصيلُ هذا في كتب أصول الفقه، وقد قالَ رسولُ الله ﷺ: «فإنّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكُم عليكم حرامٌ»، رواه البخاري وغيره، وقال: «ألا لا تَرجِعُوا بعدي كفّاراً يضرِبُ بعضُكم رِقابَ بعض»، رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم.

بعضُ أسباب الرِّدّة:

١٢٨ـ ومَنْ لمعلومٍ ضَرورةً جَحَدْ ... مِنْ دِينِنا يُقتَلُ كُفراً ليسَ حَدْ

١٢٩ـ ومِثلُ هذا مَنْ نَفَىٰ لمُجْمَعِ ... أو ٱستَباحَ كالزِّنا فلتَسْمَعِ

الإيمانُ هو التصديق بكل ما جاء به رسولُ الله محمدٌ ﷺ وبلَغَنا بطريقةٍ ثابتةٍ لا يتطرَّقُ إليها الشك، وهو ما يَعرِفُ علماءُ المسلمين وعوامُّهم المتديِّنُون أنه من الدِّين الإسلامي، وذلك كوجوبِ الصلاة، والصيام، والزكاة، وحُرمة الزنا وشربِ الخمر، ووجوبِ الإيمان بالآخرة والبعثِ بعدَ الموت، والجنةِ والنار، أما غيرُ المتدينين فلا اعتبارَ لمعلوماتهم، لأنهم لا يهتمون بأحكامِ الإسلام فيجهلون الكثيرَ منها، والمسلمُ إذا أنكرَ شيئاً من هذه الأحكامِ الثابتةِ فقد كذَّبَ الرسولَ صلى الله عليه وآله وسلم، وتكذيبُ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ كفرٌ، والمسلمُ إذا كفرَ؛ أي: ارتدّ، يُطلَبُ منه أن يتوبَ ويرجعَ إلىٰ الإيمان، ويُحاجِجُهُ العلماءُ لإزالةِ شُبْهَتِه، فإن رجعَ إلىٰ الإسلام فبها ونِعمَت، وإلا وجبَ علىٰ الحاكمِ المسلمِ أن يقتلَه، ودليلُ هذا قولُ الرسولِ ﷺ: «من بَدَّلَ دينَهُ فَٱقتُلُوه»، رواه البخاريُّ وغيرُه، والحكمةُ في قتله أنه بعدَ إزالةِ شُبْهَتِهِ لم يَبْقَ سببٌ لكفره إلا المعانَدةُ والكِبْرُ ومحاولةُ زَعْزَعةِ صفوفِ المسلمين وإيمانِهم، وهو بهذا أصبحَ عُضواً فاسداً يجبُ بترُه كما يُبتَرُ الزاني المحصَنُ والقاتلُ بغيرِ حق، لكن مَن قُتِلَ بسببِ الردة فحكمُهُ حكمُ الكافرين لا يُغسَّلُ ولا يُصلىٰ عليه ولا يُدفَنُ في مقابرِ المسلمين، وقتلُهُ لا يكفِّرُ ذنبَه، أما مَن قُتِلَ من المسلمين عقوبةً كالقاتلِ بغير حقٍ والزاني المحصَنِ فحكمُهُ حكمُ أمواتِ المسلمين يغسَّلُ ويُكفَّن ويُصلىٰ عليه ويُدفن في مقابر المسلمين، وقتلُه كفارةٌ لذنبه.

ويكفُرُ أيضاً مَن نفىٰ وجوبَ أمرٍ أجمعَ كلُّ المسلمين المتدينين علىٰ وجوبه، أما ما أجمعَ الفقهاءُ فقط علىٰ وجوبِهِ فلا يكفُرُ جاحِدُه، لأنّ بعضَ ما يُجمِعُ عليه الفقهاءُ قد لا يعرفه كلُّ المسلمين المتدينين، فلم يصل إلىٰ درجةِ النقلِ القطعي عن النبي ﷺ.

ويكفُرُ من استباحَ محرَّماً مُجمَعاً علىٰ تحريمه بينَ المسلمين المتدينين، لأنَّ الحكمَ عندَئذٍ منقولٌ عن النبي ﷺ بطريقٍ قطعي.

أما من فعلَ الحرامَ مع اعتقادِهِ بحرمته فإنه لا يكفُر، لكن قد يُفسَّق؛ أي: يُحكَمُ عليه بأنه فاسقٌ ليس عَدْلاً.

ويكفُرُ أيضاً من استهزأ بحكمٍ من أحكامِ الدِّين أو رآه غيرَ حق، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال رسولُ الله ﷺ: «لا يؤمن أحدُكم حتىٰ يكونَ هواهُ تَبَعاً لما جئتُ به»، انظر «الأربعين النووية» (٤١). وهذا هو سببُ كفرِ إبليسَ مع أنه يُؤمِنُ بوجودِ الله والجنةِ والنارِ والدارِ الآخرة، لكنه رأىٰ أنّ أمرَ الله له بالسجودِ لآدمَ غيرُ صواب.

وجوبُ نَصْبِ الخليفةِ وطاعتِهِ:

١٣٠ـ وواجِبٌ نَصْبُ إمامٍ عَدْلِ	بالشَّرْعِ فاْعْلَمْ لا بحُكْمِ العَقْلِ
١٣١ـ فليسَ رُكْناً يُعتَقَدْ في الدِّينِ	ولا تَزِغْ عن أمرِهِ المُبِينِ
١٣٢ـ إلا بِكُفْرٍ فاْنْبِذَنَّ عَهْدَهُ	فاللهُ يَكفِينا آذاهُ وحدَهُ
١٣٣ـ بغيرِ هذا لا يُباحُ صَرْفُهُ	وليسَ يُعْزَلْ إنْ أُزِيلَ وَصْفُهُ

من المعلومِ أن القرآنَ الكريمَ والسنةَ النبويةَ فيهما أحكامٌ تتعلَّق بالمجتمعِ كلِّه، ولا يقدرُ علىٰ تطبيقِها إلا الدولة، وذلك كالقَضاء في المواضيعِ المختلفة، مِن قِصاصٍ وحدودٍ وعُقُود، وكحمايةِ الدِّين والمجتمعِ بالجهاد، وتحقيقِ العدالةِ الاجتماعية، ونشرِ الإسلام في كل أرجاءِ العالم، وغيرِ هذا من الأحكام التي لا يستطيعُ الأفرادُ القيامَ بها.

وقد أقام رسولُ الله ﷺ الدولةَ الإسلاميةَ بهجرته إلىٰ المدينة المنورة، ولذا كانت الهجرةُ بدايةً للتأريخ الإسلامي، لأنها بدايةُ قيامِ الدولةِ الإسلامية، وكان رسولُ الله ﷺ رئيسَ الدولةِ الإسلامية، يعتني بأمورِ الدِّين والدنيا علىٰ حدٍ سواء، فهو الإمامُ في الصلاة، وخطيبُ الجمعة، والقاضي في المنازَعات، والقائدُ في الحرب.. إلخ، ولم يستطع أن يفعلَ ذلك قبلَ الهجرةِ وقيامِ الدولة، فكان قيامُ الدولة الإسلاميةِ ضرورياً كي تُطبَّقَ الأحكامُ الإسلامية التي أرادَ الله أن يلتزمَ بها الناس، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وبعدَ وفاةِ النبيِّ ﷺ سارعَ الصحابةُ الكرامُ إلىٰ تنصيبِ رئيسٍ للدولةِ الإسلامية، واشتغلوا بهذا الأمرِ عن تجهيز النبيِّ ﷺ ودفنِهِ مع محبَّتهم الشديدةِ له، لأنهم فهموا منه أن هذا الأمرَ لا يؤخَّر. بهذا استدلَّ أهلُ السنة علىٰ وجوبِ تنصيبِ رئيسٍ للمسلمين يكونُ نائباً عن النبيِّ ﷺ في الرئاسةِ العامةِ في أمور الدِّين والدنيا، وسمَّوه خليفةَ رسولِ الله وأميرَ المؤمنين وإمامَ المسلمين، وكلها أسماءٌ لمسمىً واحدٍ هو رئيسُ الدولة الإسلامية.

وتنصيبُ الخليفة فرضُ كفايةٍ علىٰ جميع المسلمين منذُ وفاةِ النبي ﷺ إلىٰ قيامِ الساعة، فإذا قامَ به أهـلُ الحَلِّ والعَقْد؛ أي: وُجهَـاء الناس، سقطَ الإثمُ عن غيرهم. والذي يصلح للخلافة هو مَن اجتمعت فيه الشروطُ التالية:

١ ـ أن يكون مسلماً، فالكافر ليس له ولايةٌ علىٰ المسلمين، إذ كيف يُطبِّقُ أحكامَ الإسلام مَن لا يؤمنُ به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]؛ أي: لا يرضىٰ الله بذلك.

٢ ـ أن يكونَ مكلَّفاً؛ أي: بالغاً عاقلاً، فالصبيُّ ليس له ولايةٌ علىٰ نفسه فكيفَ تكونُ له ولايةٌ علىٰ غيره، ومثلُه المجنون.

٣ ـ أن يكون حُرّاً، فالعبدُ المملوكُ لا يملك أمرَ نفسِه، فكيفَ يملكُ أمرَ المسلمين.

٤ ـ أن يكونَ ذكراً، لقولِ النبيِّ ﷺ: «لن يُفلحَ قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأة»، رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي والنسائي.

٥ ـ أن يكونَ قُرَشِياً، لقولِ النبي ﷺ: «إنّ الأمرَ في قريش، لا يُعادِيهم أحدٌ إلا كَبَّهُ اللهُ علىٰ وجهِهِ ما أقاموا الدِّين»، رواه البخاري.

٦ ـ أن يكونَ عَدْلاً: والعَدْلُ هو المسلمُ الذي لا يرتكبُ الكبائرَ ولا يُصِرُّ علىٰ الصغائر ولا يفعلُ ما يُخِلُّ بمروءةِ أمثاله.

٧ ـ أن يكونَ مجتهِداً؛ أي: بالغاً درجةَ الاجتهاد في علوم الشريعة كما هي مذكورةٌ في كتب الأصول.

٨ ـ أن يكونَ شجاعاً، ذا رأي، سميعاً، بصيراً، ناطقاً.

وهذه الشروطُ تُعتبَرُ في الابتداءِ وفي حالة الاختيار، لكن لو بُويعَ العَدْلُ ثم فَسَقَ لا تُنتَقَضُ بيعتُه، ويجبُ علىٰ مَن يقدِرُ علىٰ نُصحِه أن ينصحَه ويَعِظَه، أما إذا أظهرَ الكفرَ فلا بيعةَ له وتجبُ مقاومتُه حسبَ الاستطاعة، ولو غلبَ علىٰ الخلافةِ غيرُ قرشيٍّ وبايعه أهلُ الحل والعقد صحَّت بيعتُه، وجبت طاعتُه، لقولِ الرسولِ ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمِلَ عليكم عبدٌ حَبَشيٌ كأن رأسَه زبيبة»، رواه البخاري وغيره، وقوله ﷺ: «ستكونُ عليكم أئمةٌ تعرفون منهم وتُنكِرُون، من أنكرَ بلسانه فقد بَرِىءَ ومن كَرِهَ فقد سَلِم، ولكن من رَضِيَ وتابع»، قيل: يا رسولَ الله أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صَلُّوا» رواه مسلمٌ.

ووجودُ الخليفة ليس ركناً من أركان الدين، إذ يمكنُ أن يخلوَ زمانٌ من خليفةٍ شرعي، والإثمُ عندَئذٍ علىٰ مَن يستطيع نصبَ خليفةٍ ولم يفعل، وعلىٰ مَن رضيَ بذلك ولم يعمل ما في وسعه لإقامة الخلافة، ودليلُ هذا حديثُ حذيفةَ بن اليَمان: كان الناسُ يسألون رسولَ الله ﷺ عن الخير وكنتُ أسأله عن الشر مخافةَ أن يدركني.. وفي آخرِه: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمام؟ قال أي: رسولُ الله ﷺ: «فاعتزِل تلكَ الفِرَقَ كلَّها ولو أن تَعَضَّ بأصلِ شجرةٍ حتىٰ يُدرِكَكَ الموتُ وأنتَ علىٰ ذلك»، رواه البخاري، فلم يأمره بغير الصبرِ علىٰ الحق إذا لم يقدر علىٰ غيره.

وتجبُ طاعةُ الإمام؛ أي: الخليفة، إلا في معصيةِ الله تعالىٰ، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال رسولُ الله ﷺ: «السمعُ والطاعةُ علىٰ المَرْءِ المسلمِ فيما أحبَّ وكَرِهَ ما لم يُؤمَر بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سمعَ ولا طاعة»، رواه البخاري، وهذه بحوثٌ طويلةٌ يُرجَع فيها إلىٰ كتب الفقه، خاصةً كتابَ «الأحكام السلطانية» للماوَرْدي.

الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر:

١٣٤ـ وأْمُرْ بعُرْفٍ وٱجْتَنِبْ نَميمةْ ... وغِيبـــةً وخَصْلـــةً ذَميمـــةْ

١٣٥ـ كالعُجْبِ والكِبْرِ وداءَ الحَسَدِ ... وكـالمِـراءِ والجَـدَلْ فـاْعْتَمِـدِ

وجودُ خليفةٍ في المجتمع الإسلامي لا يكفي لإقامة شعائرِ الدين وتطبيقِ أحكام الإسلام، ولذا أوجبَ الله علىٰ جميعِ المسلمين أن يتعاونوا علىٰ تطبيقِ الشريعةِ الإسلاميةِ في المجتمع من خلالِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر، وجعلَ ذلك شعارَ المجتمع الإسلامي وسببَ أفضليةِ الأمة

الإسلامية، قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر فرضان من فروض الكفاية إذا قامَ بهما البعضُ سقطَ الإثمُ عن الجميع، وإلا أثِمَ الجميعُ وتعرَّضوا للعقوبةِ الربّانية، وقد اهتمَّ علماءُ المسلمين ببيانِ أحكامِهما، وأفردَها بعضُهم بالتأليف نظراً لكثرةِ الفروع، وممن اعتنىٰ ببيانِهما الإمامُ الغزالي في الجزء الثاني من كتاب «الإحياء».

وقد كان الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر نظاماً موازياً لنظامَي القضاء والشرطة، ويُسمىٰ نظامَ الحِسْبة، لأنّ القائمَ به متبرِّعٌ لا يتلقىٰ راتباً من الدولة، بل يريدُ الأجرَ والثوابَ من الله تعالىٰ بإظهار شعائر الإسلام وكَبْحِ جِماحِ الفَسَقة والخارجين علىٰ شريعةِ الله تعالىٰ، وإنما كانت أحكامُ الحِسْبة كثيرةً لأن تطبيقَها يحتاجُ إلىٰ ضوابطَ حتىٰ لا يُؤدِّي الاحتسابُ إلىٰ التدخُّلِ في حياةِ الناسِ الخاصة بناءً علىٰ اجتهاداتٍ شخصية، لذا قالوا: (لا يُنكَر المنكَرُ إلا إذا كان مُجمَعاً علىٰ تحريمِه).

والمرادُ بالمعروف: كل ما عُرِفَ من طاعةِ الله والتقرُّبِ إليه، والإحسانِ إلىٰ الناس، فيشمَلُ الواجبَ والمندوب، فيجبُ الأمرُ بالواجب، ويُندَبُ الأمرُ بالمندوب، لأن طلبَ المندوبِ غيرُ محتَّمٍ كالواجب.

وأما المنكرُ فما أنكره الشرعُ، وهو الحرامُ والمكروهُ، فيجبُ النهيُ عن الحرام، ويُندَبُ النهيُ عن المكروه، لأنّ النهيَ عن المكروهِ غيرُ جازم.

والدليلُ علىٰ وجوبِ الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكَرِ قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقولُ رسول الله ﷺ: «مَن رأىٰ منكم منكَراً فليغيِّرهُ بيدِه، فإن لم يستَطِع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبِه، وذلك أضعفُ الإيمان»، رواه مسلمٌ وغيره.

ويُشترط في الآمرِ بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكونَ عالماً بما يأمرُ به ويَنهىٰ عنه، وأن لا يؤديَ أمرُه أو نهيه إلىٰ منكر أكبر، ولا بدَّ لطالبِ العلم من مراجعةِ أحكام الحِسْبة لأنها أمرٌ مهم، ومن الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكَر أن يرىٰ مِن أسرتِهِ أو زملائه أو تلاميذه تهاوُناً في فريضةٍ فيأمرَهم بها، أو تقصيراً في مندوبٍ فيحثَّهُم عليه، أو يرىٰ منهم فعلاً محرَّماً فيزجرَهم عنه ولو بالقوة، فإن عَجَزَ فباللسان، فإن عَجَزَ أنكرَ المنكرَ بقلبه ولم يفعله، أو يرىٰ منهم مكروهاً فينهاهم عنه، ومن المفيدِ في هذا المجال الدعوةُ باللطفِ ببيانِ فوائدِ الواجباتِ وآثارِها الطيبةِ في الدنيا والآخرة، وبيانِ مضارِّ المحرَّماتِ وآثارِها السيئةِ في الدنيا والآخرة، مع التضرُّع إلىٰ الله تعالىٰ لمعافاةِ المبتلىٰ بتركِ الواجبِ أو فعلِ المحرَّم، لأن المقصودَ الهدايةُ وليس التسلُّط.

ومن المنكَرات التي يجبُ اجتنابها ونهيُ الناس عنها إن ظهرت؛ الأمورُ التالية:

١ ـ النميمة: وهي نقلُ كلامِ الناسِ بعضِهم إلىٰ بعضٍ علىٰ وجهِ الإفساد، ودليلُ حُرمتِها قولُ الرسولِ ﷺ: «لا يدخُلُ الجنةَ نَمَّامٌ» متفقٌ عليه، أما إذا كان القصدُ من نقل الكلام التحذيرَ من وقوع مَظْلمةٍ ونحوِها من المحرَّماتِ فليسَ نميمةً، كمَن سمعَ رجلاً يتوعَّدُ شخصاً في نفسِهِ أو مالِه أو أهله ورأىٰ أنه عازِمٌ علىٰ ذلك قادرٌ عليه فحذَّرَ مِن شره، فليست هذه نميمةً.

٢ ـ الغِيبة: وهي: «ذكرُكَ أخاكَ بما يكره»، هكذا عرَّفَها رسولُ الله ﷺ، فقيل: يا رسولَ الله، أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيهِ فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقولُ فقد بَهَتَّهُ»، رواه مسلمٌ وأبو داود، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وكما تحرُمُ الغِيبةُ يحرُمُ استماعُها وإقرارُها.

٣ ـ العُجْب: وهو أن يرىٰ العبدُ عبادته عظيمةً في جانبِ الله تعالىٰ، وهذا جهلٌ وغفلةٌ عن عَظَمةِ الله وكثرةِ نِعَمِهِ علىٰ عِبادِه، فإن كلَّ عبادةٍ يفعلُها العبدُ قليلةٌ في جانبِ الله عز وجل نظراً إلىٰ عَظَمته وكثرةِ حقوقه ونِعَمِه، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ﴾ [النحل: ١٨].

والرسولُ ﷺ كان يقول: «لا أُحصِي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِك»، رواه مسلمٌ وغيره. فليس للعابدِ أن يُعجَبَ بعبادته، ولا للعالم أن يُعجَبَ بعلمه، ولا للمجاهِدِ أن يُعجَبَ بجهاده، فإنَّ الفضلَ في ذلك كلِّه لله، فهو الذي وفَّقَ للطاعةِ وأثابَ عليها، بل ليس للإنسان أن يُعجَبَ بنفسه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ﴾ [النحل: ٥٣]، والعُجْبُ بالنفس سببُ الهلاك كما حدث لقارون، أمّا لو سُرَّ بالطاعةِ لأن الله تفضَّلَ بها عليه ووفَّقَه إليها فلا بأسَ في ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وهذه مباحثُ دقيقةٌ يُرجَعُ فيها إلىٰ كتاب «الإحياء» ونحوه، والمهمُّ أن ترىٰ الفضلَ لله عليكَ في كل شيء،

وترىٰ نفسَكَ مقصِّراً مع الله تعالىٰ في كل حال، وهذا يجعلُكَ تواصِلُ مسيرةَ الخير ولا تقعُدُ عن فعل الطاعات.

٤ ـ **الكِبْر**: وهو كما عرَّفَهُ رسولُ الله ﷺ: «بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ الناس»، رواه أبو داود والحاكم. وبَطَرُ الحق رَدُّه علىٰ قائله ورفضُهُ وعدمُ الاعتراف به، وأما غَمْطُ الناس فهو احتقارهم.

والكِبْرُ ذَنبٌ عظيم، وهو من الذنوب المهلِكةِ لصاحبها، فقد قال رسولُ الله ﷺ: «لن يدخُلَ الجنةَ مَن في قلبه مثقالُ ذرةٍ مِنَ الكِبْر»، فقالوا: يا رسولَ الله، إن أحَدَنا يُحِبُّ أن يكونَ ثوبُهُ حسناً ونَعْلُهُ حسناً، فقال ﷺ: «إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمال، ولكنَّ الكِبْرَ بَطَرُ الحقِّ وغَمْصُ ـ أو غَمْطُ ـ الناس» بالصاد والطاء، رواه مسلمٌ وغيره. ويزدادُ إثمُ الكبرِ إذا كان التكبُّرُ علىٰ الصالحين وأئمةِ المسلمين بسبب تديُّنهم، لقد تكبَّرَ إبليسُ علىٰ آدمَ فكان من أمره ما، كان ولذا قد يؤدِّي التكبُّرُ إلىٰ الكفرِ والعياذُ بالله.

٥ ـ **الحَسَد**: وهو تمنِّي زوالِ النعمةِ عن المحسود، وهذا من الذنوبِ الكبيرة، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾، فقد أمرَ الله تعالىٰ بالاستعاذة به من شر الحاسدين، وقال رسولُ الله ﷺ: «إياكم والحَسَد، فإنه يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحَطَب»، رواه أبو داود وابنُ ماجَهْ بمعناه، أما من تمنّىٰ خيراً كالذي عندَ غيره فليس بحاسد، لكن هذا التمنّي لا ينبغي إلا في أمرين، قال رسولُ الله ﷺ مبيناً لهما: «لا حَسَدَ إلا في الاثنتين: رجلٌ علَّمَه اللهُ القرآنَ فهو يقومُ به آناءَ الليل وآناءَ النهار، ورجلٌ آتاه اللهُ مالاً فهو ينفقه آناءَ الليل وآناءَ النهار»، رواه أحمد والشيخان.

٦ـ **المِراء**: وهو الطعنُ في كلامِ الغير احتقاراً له وإظهاراً للفضل عليه، أما إذا عَرَفَ بدليلٍ شرعيٍ أن ما يقولُهُ خطأٌ فالواجبُ بيانُ الحق بلطفٍ مع عدمِ جرحِ الشعور.

٧ ـ **الجِدال**: وهو دفاعُ الإنسان عما قاله أو اقترحه بعدَ أن ظهر بطلانُه دفعاً للنقص عن نفسِه، فإنّ المسلمَ إذا عَرَفَ الحقَّ اتبعَه سواءٌ ظهرَ منه أو من غيره، والمراءُ والجدالُ غالباً ما يكونُ في أمورٍ لا طائلَ تحتَها ولا دليلَ من الشرع عليها، وهذا غيرُ البحثِ العلمي الذي يقومُ علىٰ الدليل، ويُقصَدُ به معرفةُ الحق.

التصوُّفُ اتّباعُ النبيِّ ﷺ:

١٣٦ـ وكَنْ كما كانَ خِيارُ الخَلْقِ ... حَلِيفَ حِلْمٍ تابِعاً للحَقِّ

١٣٧ـ فكلُّ خَيرٍ في اتِّباعِ مَنْ سَلَفْ ... وكلُّ شَرٍّ في ابتِداعِ مَنْ خَلَفْ

في خاتمة هذه المنظومة المباركة يذكرُ المؤلفُ رحمه الله شيئاً من علم التصوف، وهو عندَ أهل السنة: علمٌ يُعرَفُ به صلاحُ القلبِ وسائرِ الحواس، أو: تجريدُ القلبِ لله تعالىٰ والإعراضُ عما سواه، أو: التخلّي عن الأخلاقِ الذميمة والتحلّي بالأخلاقِ الحميدة، وهذه التعاريفُ وغيرُها كلُّها تدورُ حولَ معنىً واحد، والمقصودُ التعرُّضُ لما يفتحُ اللهُ علىٰ القلبِ من معارفَ وأحوالٍ تزيدُ الإيمانَ رُسوخاً واليقينَ ثباتاً، حتىٰ يَعبُدَ المؤمنُ ربه كأنه يراه، أو علىٰ الأقل يشعُرُ بمراقبةِ الله له واطّلاعِهِ علىٰ كل أحواله، وهذا كما ترىٰ لا يخرجُ عن دائرةِ الكتابِ والسنة، بل هو جزءٌ مما فيهما، قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]؛ أي:

نُوراً في القلب يُفرِّقُ به بينَ الحقِّ والباطل، وقال رسولُ الله ﷺ: «ذاقَ حلاوةَ الإيمان من رضيَ بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّدٍ رسولاً»، رواه مسلمٌ وغيره، أما ما خالفَ الكتابَ والسنةَ فهو مرفوضٌ أياً كان قائلُه، فقد افترىٰ علىٰ الصوفيةِ بعضُ الناسِ وانتسَبَ إليهم بعضُ الجاهلين، ومن طلبَ الحقَّ وجدَهُ إن شاءَ الله.

أما الصادقون أهلُ العلم فإنهم يرَونَ التصوُّفَ اتباعَ منهاجِ السَّلَفِ والتخلُّقَ بأخلاقهم، ومن أخلاقهم:

١ ـ الاقتداءُ بالنبيِّ محمدٍ ﷺ وصحابتِهِ الكِرام، فإنّ أخلاقَه ﷺ خيرُ الأخلاقِ وأفضلُها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، والصحابةُ الكِرامُ تلاميذه، تربَّوا علىٰ يدَيه، ولا يخفىٰ فضلُهم علىٰ مُنصِف، فقد قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد حُفظَت سيرةُ النبيِّ ﷺ وسيرةُ أصحابه لتكونَ نَموذجاً للخُلُق الفاضِل والسِّيرةِ الحَميدة.

٢ ـ الحِلْم: وهو الصبرُ وتحمُّلُ المشاقِّ في طاعة الله تعالىٰ وعبادته من علمٍ وعملٍ وجهادٍ ومخالفةٍ للنفسِ والهوىٰ والشيطان، مع الوَقارِ وعدمِ الطَّيش لأيِّ سببٍ من الأسباب.

٣ ـ التزامُ الحق: والحقُّ ما دلَّ عليه كتابُ الله وسنةُ نبيه ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

فما ناله السَّلَفُ من خيرٍ في الدنيا والآخرةِ كان بسبب اتباعِهم للنبيِّ ﷺ، وما حصلَ للخَلَفِ من شرورٍ فسببه البِدَعُ التي ظهرت واتُّبِعَتْ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فمَن أرادَ الخيرَ فعليهِ بمنهاجِ السَّلَف الصالح في متابعتهم للنبي ﷺ.

حالُ النبي ﷺ أشرفُ الأحوال:

١٣٨ـ وكلُّ هَدْيٍ للنبيِّ قَدْ رَجَحْ فمَا أُبِيحَ ٱفْعَلْ ودَعْ ما لم يُبَحْ

هديُ النبي ﷺ سُنّتُه، وهو ما نُقِلَ عنه عليه السلامُ من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير، والنبيُّ ﷺ هو المثلُ الأعلىٰ للمسلمين، بل للناسِ كلِّهم، فأحوالُه أفضلُ الأحوالِ ولا مزيدَ عليها في الخير، ومنتهىٰ الكمالِ في حقنا أن نقلِّدَ النبيَّ ﷺ، لكن بعضُ ما فعله النبيُّ ﷺ كان حُكماً خاصّاً به، كوجوبِ مقاتلته الكفّارَ ولو لم يكن معه أحدٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤]، وتزوُّجِهِ أكثرَ من أربعِ نسوة، فالأحكامُ الخاصةُ بالنبيِّ ﷺ منها مالا يُكلَّفُ به غيرُه، ومنها ما يحرُمُ علىٰ غيره فعلُه، وكذلك بعضُ الأفعال التي فعلها لبيانِ جوازِها مع أن الحالةَ الغالبةَ غيرُها كغسلِ أعضاء الوضوء مرةً، مع أنه كان يغسِلُها ثلاثاً ثلاثاً في غالب الأحيان، وكشربه من ماء زمزمٍ قائماً، مع أنه كان لا يشربُ قائماً، فالحالُ الغالبُ هو الأفضل، وما فعله النبيُّ ﷺ ثم نُسِخَ لا يُقلَّد فيه.

والخلاصةُ أن أشرفَ الأحوال التي ينبغي للمسلم أن يقلِّدَها ويتَّبِعَها هي أحوالُ النبيِّ ﷺ غيرُ المنسوخةِ ولا الخاصةِ ولا النادرةِ التي فعلَها لبيانِ الجواز، وهذا هو منهاج التصوُّفِ الحقّ.

وجوبُ اتباعِ السنةِ واجتنابِ البِدْعة:

١٣٩ـ فتابعِ الصّالحَ مِمّنْ سَلَفا وجانِبِ البِدْعةَ ممّن خَلَفا

قال رسولُ الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»، رواه أبو داود والترمذي، انظر «الأربعين النووية» (٢٨).

وتقدَّم ص ١٢٣ قولُ النبي ﷺ: «خيرُ الناسِ قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم..» الحديث، متفقٌ عليه. ولهذا اشتهر بينَ المسلمين أن حالَ السَّلَفِ خيرُ أحوال الأمة، وأن حالَ الخَلَفِ فيه مافيه، فقد ظهرت البِدَعُ في زمن الخَلَف، لكن هذا ليسَ علىٰ إطلاقه، فبعضُ السَّلَفِ رُوِيَت عنهم مخالفاتٌ للشريعة، فهم غيرُ معصومين، وبعضُ الخَلَفِ كان علىٰ مقدارٍ عظيمٍ من العلم والصلاح والتقوىٰ والزهد واقتفاءِ آثار النبيِّ ﷺ، كالأئمةِ الأربعة وغيرهم من علماءِ الأمة وأئمة الهدىٰ الذين كانوا في أجيالٍ متعاقبة، ولذا فإنّ المِعْيارَ هو اتباعُ الكتاب والسنة والإجماعِ والقياسِ الجليّ؛ أي: الدليلِ المعتبَرِ شرعاً، فما وُجِدَ من حالِ السَّلَفِ أو الخَلَف موافِقاً للدليل الشرعي فعلىٰ الرأسِ والعَين، وما كان من أحوال الخَلَف أو السَّلَفِ معارِضاً للدليل الشرعيِّ فهو بدعةٌ يجبُ اجتنابها، وهنا ينبغي التذكيرُ بأن البدعةَ في اللغة هيَ كلُّ جديدٍ مهما كان موضوعُه، فالسياراتُ والطائراتُ والمختَرَعاتُ كلُّها بِدَعٌ حسبَ المعنىٰ اللغوي، وليست هذه هي البدعةَ المنهيَّ عنها.

وأما البدعةُ في الاصطلاح الشرعيِّ فهي ما كان مخالفاً لكتابِ الله وسنةِ رسولِ الله ﷺ والأدلة الشرعية، وبعبارةٍ أخرىٰ: البدعةُ هي الزيادةُ في الدِّين؛ أي: في الفرائض أو السُّنَن أو المحرَّمات أو المكروهات، فمن فَرَضَ ما لم يفرضه الله فقد ابتدع، ومثلُه من سنَّ ما لم يَسُنَّه الشرعُ أو حَرَّمَ ما

لم يحرِّمْهُ أو عدَّ من المكروهاتِ ما لم يعُدَّهُ الشرع، أما المباحاتُ فأمرُها واسعٌ، وهذا موضوعٌ اختلَطَ علىٰ بعضِ الناسِ لعَدَمِ التمييز بينَ البدعةِ بالمعنىٰ اللغوي والبدعةِ بالاصطلاح الشرعي، فعَدُّوا من البِدَعِ استعمالَ الآلاتِ الحديثةِ للجهاد، وإنارةَ المساجدِ بالكَهرُباء، ورفعَ الأذان بالسمّاعاتِ. . . إلخ.

مع أن العلماءَ الراسخينَ قالوا إنّ بعضَ الأمورِ الجديدةِ واجبٌ، كجمعِ المصاحِف وتدوينِ السُّنّة، واستعمالِ الأسلحة الحديثة في الجهاد، وبعضُها حرامٌ كالضرائب التي تُفرَضُ بغيرِ حاجة، وبعضُها مندوبٌ كصلاةِ التراويحِ جماعةً، ولذا قال سيدُنا عمرُ رضيَ الله عنه بعدَ أن جمعَ المسلمينَ علىٰ إمامٍ واحدٍ في التراويح ورأىٰ حُسْنَ اجتماعِهم: «نعمَت البدعة»، وبعضُ البِدَعِ مكروهٌ كزخرفةِ المساجدِ بما يَصرِفُ المصلِّيَ عن الخشوع، وبعضُها مُباحٌ كالترفُّهِ في المعيشةِ من وجهِ حلال، وينبغي مراجعةُ هذا الموضوعِ بتوسُّعٍ في كتبِ أهل العلم.

خاتمةٌ ودُعاء:

١٤٠ـ هذا وأرجُو اللهَ في الإخْلاصِ مِـنَ الـرِّيـاءِ ثـم فـي الخَـلاصِ

١٤١ـ منَ الرَّجِيمِ ثم نفسِي والهوىٰ فمَـنْ يَمِـلْ لهـؤلاءِ قَـدْ غَـوَىٰ

بعدَ أن أوجزَ المؤلفُ رحمه الله عقائدَ أهل السنة في هذه المنظومة ختَمَها بدعاءٍ فيه توجيهٌ إلىٰ أمور هامة، وهذا ما يُسمّىٰ الدعاءَ التعليمي، لأن فيه مع الدعاءِ تعليمَاً للسامعين والقارئين ليعرفوا أموراً مهمةً ويحرِصُوا عليها، فطلبَ من الله تعالىٰ:

١ ـ أن يرزقَهُ الإخلاص: وهو قصدُ وجهِ الله تعالىٰ خاصةً بالعبادة قوليةً كانت أو فعليةً ظاهرةً أو خفية، فالإخلاصُ واجبٌ شرعاً، وهو روحُ العبادات، وبها يتفاوتُ الثوابُ وإن تساوىٰ الظاهر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله لا يقبل مِن العمل إلا ما كان خالِصاً وما ابتُغِيَ به وجهُه»، رواه النسائي.

وعكسُ الإخلاصِ الرِّياء، وهو عملُ القُربةِ لقصدِ الناس، فإن كان لا يريدُ إلا الناسَ فهو رياءٌ خالِص، كمَنْ يصلِّي لوجودِ شخصٍ أو جماعةٍ بحيثُ لو غابَ عنهم لتركَ الصلاة، أو قطعَها، ومنه رياءٌ غيرُ خالص، كأن يفعلَ العبادةَ لله وللناس، وهو أخفُّ من الأول، والرياءُ بنوعَيهِ حرامٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧]، وقالَ رسولُ الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أنا أغنىٰ الشركاءِ عن الشِّرْك، مَن عَمِلَ عَمَلاً أشرَكَ فيهِ معي غيري تركتُهُ وشِرْكَه»، رواه مسلمٌ (٢٩٨٥).

وليس المطلوبُ تركَ العمل الذي يُراعىٰ به الناس، بل المرادُ أن تعملَ مع ترك مراعاةِ الناس بالعمل، ولذا قالوا: تركُ العمل لأجل الناسِ رياءٌ، والعملُ لأجلِ الناسِ شِرْكٌ، والإخلاصُ أن يعافِيَكَ اللهُ منهما. فليعمل المسلمُ الخيرَ غيرَ ملتفِتٍ إلىٰ حضورِ الناس وغِيابِهم، فإنّهم لا يضُرُّون ولا ينفعون.

وليس من الرِّياء النشاطُ في العبادة مع الجماعة، بل هذه سنةُ الله في خَلْقه أن يَنشَطَ الإنسانُ للعمل مع الجماعة، ولذا يُستحب مخالطةُ أهل الخير ومفارقةُ أهل الشر، ولذا أيضاً كانت صلاةُ الجماعة أفضلَ، وقد كان الرِّياءُ

شائعاً يومَ كان المرءُ يعظَّمُ لعبادته ودينه، وقد اختلفت الأحوالُ اليوم، والمتديِّنُ لا يكاد يَسلَمُ من أذىٰ الناس، وصارَ القابِضُ علىٰ دينه كالقابِضِ علىٰ الجَمْر، فلم يَبْقَ مجالٌ للرياء من هذه الناحية!

٢ ـ يسألُ المؤلفُ ربه عز وجل أن يرزقَهُ الخلاصَ من الشيطان، وهو العدو الأكبر للإنسان، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ومن لم يحذَر الشيطانَ وقعَ في حبائِله، والحافظُ هو الله تعالىٰ، وقد أمرنا الله تعالىٰ أن نَستجيرَ به من الشيطانِ فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

٣ ـ يدعو المؤلفُ أيضاً أن يخلِّصَه الله تعالىٰ من شرِّ النفسِ الأمّارةِ بالسُّوء، وهي التي تأمرُ صاحبَها بمخالفةِ أمر الله تعالىٰ، وقد ذكرَها الله تعالىٰ فيما حكاه عن سيّدنا يوسُفَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، أما النفسُ المطمئنةُ فهيَ التي رضيت بشريعةِ الله وأمره، فاجتهدت في الطاعات، وهي نفسٌ زكية، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، وأما النفسُ اللوّامةُ فهيَ التي تلومُ صاحبَها إذا خالفَ أمرَ الله تعالىٰ أو قصَّرَ في جانبه عز وجل، وقد أثنىٰ الله عليها بقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢]، وقد حَثَّ اللهُ علىٰ تزكيةِ النفس بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

[الشمس: ٧-١٠]، ومعنىٰ دَسّاها: غَمَسَها بالمعاصي وأخفىٰ نُورَها بالذنوب.

٤ ـ يدعو المؤلفُ أن يخلصَهُ الله تعالىٰ من شر الهوىٰ، وهو ما تهواه النفسُ وتميلُ إليه من الشهواتِ والرَّغَباتِ المخالفةِ للشريعة، ومعلومٌ أنّ النفسَ قد تميل إلىٰ ما يجوزُ شرعاً، فإذا لم يَكْبَحْها صاحبُها بلِجام التقوىٰ أوقعته في المعاصي والمهالك، قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [صَ: ٢٦]، وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقد حذَّر اللهُ كثيراً من اتباع الهوىٰ المخالِفِ لأمره عز وجل، ومَن تَرَكَ الشرعَ واتبعَ ما تهواهُ نفسُهُ فقد عَبَدَ غيرَ الله، قال تعالىٰ: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]، فالمؤمنُ يتبع أمرَ الله، والكافرُ يتبع هواه وشهوتَه كالبَهائم، لكن البهائمَ لا تحاسَبُ لأنها لا تعقِل، والإنسان يحاسَبُ لأن الله أكرمَهُ بالعقل، وهكذا فالإنسانُ إما أن يطيعَ الله تعالىٰ فيَسعَدَ في الدنيا والآخرة، وإما أن يطيعَ هواه فيهلِكَ مع الهالكين. والشيطانُ والنفسُ والهوىٰ أعداءٌ ملازمون للإنسان يجبُ الحذرُ منهم والاستعانةُ بالله عليهم، والاستعاذةُ به مِن شرورِهم.

الله تعالىٰ هو الموفِّقُ للصَّواب:

١٤٢ـ هذا وأَرجُو اللهَ أن يَمْنَحَنا   عنــدَ الســؤالِ مُطلقــاً حُجَّتَنــا

العلماءُ لا يغترُّون بعلمِهم مهما بلغوا من مراتب العلم، لأنهم يذكرون قولَ الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولذا فإنّ الناظمَ رحمه الله مع علمه الغزيرِ الذي تُعرِبُ عنه هذه «الجوهرة» يخافُ أن لا يهتديَ للجواب الصحيح إذا سُئل في الدنيا من قِبَلِ المتعلّمين المستفهِمين أو المعارضين المخالفين، أو إذا سُئلَ في قبره من قِبَلِ الملَكَين الكريمين، فيَضْرَعُ إلىٰ الله تعالىٰ أن يُلهِمَه الجوابَ الصحيحَ الذي تقومُ به الحجةُ ويرضىٰ به الله عز وجل، وهو يدعو بهذا لنفسِه وإخوانه وجميعِ المسلمين، وندعُو اللهَ تعالىٰ أن يستجيبَ دعوته ويشمَلَنا بها.

١٤٣ـ ثم الصلاةُ والسلامُ الدائمُ   علىٰ نبي دأبُهُ المَراحِمُ

١٤٤ـ محمّدٍ وصَحْبِهِ وعِتْرَتِهْ   وتابِعٍ لنَهْجِهِ مِن أمّتِهْ

الصلاةُ والسلامُ علىٰ سيدِنا محمدٍ ﷺ مطلوبانِ شرعاً لقولِ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ولذا كان دأبُ المسلمين المحبين للرسولِ ﷺ كثرةُ الصلاةِ والسلامِ عليه وعلىٰ آله، خاصةً في ابتداء الأمور وختامها بعدَ البسملةِ والحمدِ لله تعالىٰ، والصلاةُ من الله تعالىٰ الرحمةُ والبركةُ، ولذا نصلّي علىٰ رسولِ الله ﷺ وعلىٰ آله وصحبه وكلِّ مَن اتبعَ منهجَه من أمته، ونبينا محمدٌ ﷺ هو نبيُّ الرحمة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكان ﷺ شديدَ الرحمة بكل الخَلْق، حتىٰ بالذين لم يؤمنوا به يَخافُ عليهم من النار، قالَ الله تعالىٰ له عليه السلام: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقد بدأ المؤلفُ رحمه الله بالصلاةِ والسلامِ علىٰ رسولِ الله ﷺ خَتَمَ بهما تبرُّكاً واعترافاً بفضله ﷺ، فبه أخرَجَنا اللهُ من الظلماتِ إلىٰ النور، وعلَّمَنا العقيدةَ الصحيحةَ والعلمَ النافع، ورجاءَ أن يتقبَّلَ اللهُ تعالىٰ ما بينَ الصلاتَينِ والسلامَين، فالصلاةُ والسلامُ علىٰ رسولِ الله ﷺ مقبولان، واللهُ أكرمُ من أن يقبلَهُما ولا يقبَلَ ما بينهما، ولذا يُوصِي العلماءُ من كانت له إلىٰ الله حاجةٌ أن يبدأ بحمدِ الله والثناءِ عليه ثم يصلِّيَ علىٰ النبيِّ ﷺ ثم يسألَ اللهَ حَاجتَه ثم يصلِّي علىٰ النبي ﷺ، فالله كريمٌ يقبلُ الصلاتَين وما بينهما بفضلِه وكَرَمِه.

هذا ما يسَّرَ اللهُ تعالىٰ مِن شرح «جوهرة التوحيد»، وأسألُ اللهَ أن يجعلَ عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعلَه حجةً لي يومَ القيامة، وأن ينفعَ به كما نفعَ بـ «الجوهرة» وشروحِها، وأن يغفرَ لي ولوالديَّ ولمشايخي، ولأصحابِ الحقوق عليَّ وعلىٰ المسلمين والمسلمات.

اللهم يا مقلِّبَ القُلُوب، ثبِّتِ قلوبَنا علىٰ دينِك

وصلىٰ الله علىٰ سيدِنا محمّدٍ وعلىٰ آله وأصحابِهِ أجمعين

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

المؤلف في سطور:

- ولد عام ١٩٣٩ في أسرة علمية على رأسها والده الشيخ علي سلمان في عين جنة/ عجلون.
- درس فيها الابتدائية، ثم انتقل إلى الشام ودرس في مدارسها إلى أن حصل على شهادة الثانوية الشرعية من «الغراء» عام ١٩٦١.
- واصل دراسته في جامعة دمشق وحصل منها على درجة البكالوريوس في الشريعة.
- رجع إلى الأردن عام ١٩٦٥ حيث التحق بالقوات المسلحة برتبة ملازم أول إمام.
- في عام ١٩٧١ تسلم منصب مفتي عام القوات المسلحة وبقي في منصبه متدرجاً في الرتب العسكرية حتى عام ١٩٩٣ حيث أنهى خدماته برتبة لواء.
- خلال هذه الفترة حصل على درجة الماجستير من جامعة الأزهر ودرجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
- تم تسلم منصب قاضي قضاة الأردن عام ١٩٩٣ حيث استقال منه بعد عام واحد، ليتفرغ للتدريس في حلقات علمية في مسجده وفي جامعتي اليرموك وجرش.
- في عام ١٩٩٧ غادر الأردن سفيراً في طهران، وما زال يشغل منصبه.